ماجد الشيباني

دوار الأرض

رواية

دوار الأرض

ماجد الشيباني

دوار الأرض

روايـــــة

دار الفارابي

الكتاب: دوار الأرض

المؤلف: ماجد الشيباني

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-500-1

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الفصل الأول........ ٩

الفصل الثاني........ ١٥

الفصل الثالث........ ٢٢

الفصل الرابع ٣٩

الفصل الخامس ٥٢

الفصل السادس ٧٩

الفصل السابع ٩٧

الفصل الثامن........ ١٠٦

الفصل التاسع........ ١١٨

الفصل العاشر ١٣٦

الفصل الحادي عشر ١٤٨

الفصل الثاني عشر ١٥٨

الفصل الثالث عشر........ ١٦٨

الفصل الرابع عشر........ ٢١٢

الفصل الخامس عشر ٢٣٥

الفصل الأول

لكـي أروي لـك قصتـي لا بـد لـي مـن العـودة طويـلاً إلـى الـوراء، ولا علـم لـي إن كنـت سـأظهر فـي نهاياتهـا بمظهـر الرجـل الخبيـر فـي التعامـل مـع أسـياده دون أن يشـغلني شـيء آخـر فـي الحيـاة غيـر التفكيـر فـي إمـا أننـي سـأكافأ مـن سـيدي لأننـي أفعـل وإمـا أننـي سـأعاقب لأننـي لـم أفعـل، وكـم فـي هـذه التصرفـات مـن قـذارة عنـد مـن يقـرأون جيـداً فـي الإنسـانية، فـي جزئياتهـا البسـيطة والتـي قـد يراهـا مـن لـم يعـرف شـيئاً عـن هـذه المعانـي بأنهـا فطنـة فـي تـدارك المواقـف الحرجـة، وبيـن هـذه وتلـك قـد تكـون مجـرد حكايـة لتجربـة مُجـردة مـن كل شـيء ولا تتعلـق إلا بالحـظ، كل مـا أسـتطيع قولـه الآن كتمهيـد هـو أن علـى هـذه الأرض لغـة تفتـرض فَهـم الكلمـة المسـموعة فـي وجـود الشـيء، وفهمهـا فـي غيـاب الشـيء، والنطـق بالكلمـة فـي وجـود الشـيء، والنطـق فـي غيـاب الشـيء، هـي أمـور فـي الكلمـات تؤخـذ فـي الاعتبـار فتشـغل مـن يطاردهـا بلملمـة تفاصيلهـا كافـة بحثـاً عـن أفـكار قـد تفضـي إلـى دوار أشـبه بـدوار البحـر إذا سـلمت معـي بوجـود لغـة للأشـياء تشـمل أولاً، لغـة أوليـة، لا تقبـل بالتأكيـد نقيضـاً للإنـكار، وقـد تدفـع السـلوك لأن يوجـد شـيء دون أي وسـاطة عقليـة،

وثانياً، لغة ثانوية قد تدفع بالزيف والنفي وفي الاثنتين كم هائل من مشكلات معقدة، الحديث عن اللغة يدفعني للحديث عن الذاكرة والتسليم بأنها حديث بطريقة ما عن النسيان، فكل حالة ميلان عن الخط هي سوء تقدير لا يعتمد إلا على فعل إنساني تشكله لغة تنطق بصعوبة فتنسى أن تلم بجميع التفاصيل فيكون وقعها على الإنسان مريراً، ذاكرة ونسياناً، وجهان لعملة واحدة في طرح أسئلة تدور في فلك الوجود وبما أنك تقرأ الآن هذه السطور فأنت قد اخترت الوجود على العدم، فأنت موجود باق في هذه الحياة المليئة، المشبعة، الأكيدة، فلنبدأ من حيث الإحساس بأن هناك شيئاً ما يثير الشعور كي تتحول هذه الحكاية بواسطة عدسة مكبرة إلى معنى فنصطاد معاً كل ما هو ثانوي، وخير بداية ستكون مع تلك العودة المتأخرة إلى الوراء والتي ستتوقف عند محطة كان لها الأثر الواضح في بداية معانقتي لتلك الأسئلة الحائرة والمتطايرة وما أتذكره جيداً هو أني في يوم من الأيام فتحت عيني بصعوبةٍ بالغةٍ على انبعاث صيحات مختلفة آتية من بعيد، هذه الأصوات هجمت عليَّ فأقلقتني، فلم تكن من النوع الذي يهجم عليَّ بسبب ضوء ساطع ينفذ إلى العين، ولا هي في تهيّج لرائحة ما تخترق غشاء الأنف، وليست بفعل حركة غير إرادية تكشف عن جزء من الجسد فيتأثر بالبرودة، هذه الضوضاء التي أمكن لي معرفتها على أتم نحو من خلال تلك النداءات الملهوفة بدأت تأخذ نصيبها في الفراغ فتتموّج في مقاطعها كحالة يأس فلا تصيب إلا من كان مثلي ينتمي إلى

هـذا المـكان، أصـوات خرقـت سـكون هـذه الغرفـة لثـوانٍ، أمّـا الآن فصمـت مطبـق بعـد أن خفـت الصـوت وقـد تسـكّع فـي كل ركـن للحظـات لتُثقلنـي بأحمـال السـأم فـلا اسـتطيع أن أميـز بيـن هـذه التفاصيـل الدقيقـة وقـد ازداد ثقلهـا فـوق رأسـي حتـى تسـلّلت إلـى جسـدي المنهـك..

مصـدر الصـوت فـي حقيقتـه لأعـداد مـن المرضـى تعانـي شـتى الأسـقام، أنّاتهـم عميقـة خلـف هـذا البـاب وكأن المـوت مـن فوقهـم مزهـو بنفسـه لا يريـد الافتـراس علـى عجـل، وإن كنـت لا أفهـم الحيـاة تحـت هـذه الظـروف التـي لـو فكـرت بـأن أطـارد جميـع زواحـف الأرض فلربمـا سـبقتني.

شـعور هـذه اللحظـة بـدا وكأن كل شـيء مـن حولـي هـادئ نسـبياً، فمـازال الجميـع نيامـاً، لـم يتنبـه منهـم أحـد أو ينزعـج، وحتـى فـي صحوهـم هـم مـن حولـي هادئـون ومطمئنّـون، ولا أعلـم حقيقـة أن الحلـم يتابـع حيـاة اليقظـة أو أن حيـاة النهـار لا تتكـرر فـي الحلـم.

كان الوقـت مسـاء ولـم أكـن حينهـا قـد فتحـت عينـي تمامـاً، لكنّنـي بقيـت متيقظـاً، متأمـلاً هـذه الأصـوات المألوفـة إلـى حـد مـا، أنظـر إلـى الأشـياء داخـل هـذه الغرفـة فـلا شـيء غيـر الظـلام، كمـا لـو كان هـذا الظـلام يسـتنبت فـيَّ بـذور النـور علـى أرضـي القاحلـة، الأشـياء مـا زالـت علـى حالهـا، متأمـلاً، عانقـت هـذه اللحظـة فـي العتمـة حتـى تكشـف لـي شـعاع حـاد فأغمضـت عينـيّ لأعـود إلـى العتمـة مـن جديـد كـي أتحسـس وجعـي ووجـع الصامتيـن أمثالـي، فهنـاك علـى السـرير المقابـل لـي تمامـاً رجـلٌ يغـط

فـي سـبات عميـق، مسـتغرقًا تحـت وطـأة ليـل الشـباب، فقـد جـاوز مـن كان بمثـل عمـري بمراحـل، أنـاخ الزمـن بنوازلـه هنـا فـي هـذا المـكان، فـي بعثرتـه يبـدو وكأنـه قـد مـلّ أن يصبـح أكثـر إدراكاً لنفسـه، وإن كان الرجـل الهـرم أكثـر الرفـاق إحساسـاً بالرضـا مـع هـذا المـكان، مـن يتفـرس فيـه لا يـرى أمامـه إلا قسـمات وجـه أتعبتـهُ السـنون، وكأن مـن يتأمّلـه يأتيـه الجـواب بـأن هـذا الرجل صلـب لكنّـه فـي المقابـل ذو مـزاج معتـدل فمـن يبلـغ هـذه السـن يفقـد كل شـهوته أو هكـذا رأيتـه فـي البدايـة، ففـي أحيـان يظـل فـي صراخـه ويضطـرب حولـه المرضـى وأحيانـاً أخـرى يبقـى فـي حالـة تأمـل وكل مـا يفعلـه هـو مراقبـة الأشـياء كمـا كنـت أفعـل ولكنـه يتميـز عنّـي بأنـه يراقـب بعينيـن حمراويـن، يفعـل كل هـذا وهـو فـي مكانـه متمـدد علـى سـرير أبيـض لا يسـتطيع الخـروج مـن قوقعتـه، كنـا متشـابهين فكلانـا أشـبه بـدود علـى عـود، ومـا إن أنظـر إليـه حتـى أرى نفسـي فأحـاول عبثـاً بعثـرة تلـك المعرفـة فـي عوالـم الأشـخاص أو علـى أقـل تقديـر تحديـد هويـة الأشـياء مـن حولـي بمعـزل عـن الـذات فأمـلّ كل محاولـة لا تأتينـي إلا بفشـل، فـلا حلـول تأتـي منفـردة فـي خانـة الوسـط بيـن حالتـي الهـدوء والإثـارة، ومهمـا يكـن مـن أمـر فقـد طغـى جـوّ مـن الأُلفـة القسـرية لعلاقتـي مـع الأشـياء وهـي فـي الحقيقـة طريقـة للتعايـش وحيـدة.

علاقتـي مـع السـأم توطـدت مـع حـالات الانتظـار التـي كانـت توحـي لـي بـأن زاويـة التفـاؤل قـد تحولـت مـع الوقـت إلـى التشـاؤم نفسـه،

فاللـون الأسـود لـن يتغيـر حتـى وإن كان منظـوراً إليـه مـن زاويـة التفـاؤل، ويبقـى الهـرب مـن هـذا الموقـف بمثابـة سـلوك دائـم يعنـي لـي جـولات مـع الموسيقى التـي لا أعـرف سـر تعلقـي بهـا، هـذه الأنغـام المتنوعـة هـي وحدهـا مـن تنقلنـي بتلقائيـة إلـى عوالـم أخـرى، وقـد جـاءت هـذه المـرة مترافقـة مـع لحـن نـاي يشـكو ويئـن ويحتـرق بألـم الفـراق، فاستسـلمت معهـا تمامـاً للشـعور بالحنيـن، هـذا اللحـن لا يجرنـي إلـى الأزمنـة القديمـة وحسـب بـل إلـى عصـر مـا قبـل التاريـخ وثقافـة النـاس البدائييـن بمنحوتاتهـم ورسـومهم وأسـاطيرهم لتتقافـز فـي ذاكـرة معطوبـة يحملهـا طفـل علـى هيئـة صـورة لعظـام مثقوبـة علـى شـكل نـاي، لـم أذهـب بعيـداً نحـو العصـر الميوسـيني أو الميزوليتـي أو مـع إنسـان النياندرتـال وإن كانـت هـذه الموسـيقى حاضـرة فـي فتـرة العصـر الحجـري، ومـع هـذا أُجبـرت علـى الاستسـلام كمـا كان النـاي يفعـل بالعالـم بـأن يضـج حزنـاً فـي حضـوره، معانقـاً هـذه اللحظـة أبحـث فـي غياهـب الأرض والظلمـة عـن آثـار فـي رسـوم علـى جـدران المعابـد والأحجـار فـي زمـن الأشـوريين، أجـد نفسـي فـي زمـن حمورابـي والبازلـت الأسـود والرقـم الطينـي والخطـوط المسـمارية، زمـن جلجامـش وصديقـه المخلـص إنكيـدو، ومـرة أطـل علـى جـدران الأهرامـات عنـد الفراعنـة قبـل أن يحكـم مصـر القديمـة الكهنـة فأحلـم بمشـهد رومنسـي يخيّـم معـه الهـدوء والصمـت والسـكينة.

علـى هـذه النغمـات لنـاي حزيـن كنـت أخاطـب نفسـي حامـلاً معـي ذاكـرة خاويـة، وأذكـر جيـداً تلـك النظـرة العابـرة نحـو الفضـاء مـن خـلال

حـدود نافـذة صغيـرة وهـي تتأهـب قبـل انتشـار جنـاح الضـوء فـي الأفـق متسـائلاً بنبـرة تشـاؤم : «كيـف لـه أن يغمرنـا هـذا الفجـر بسـواده فـي وقـت يقتـرب لأن يتمسـك بغـرة الصبـح!» ..

لامسـت السـماء حينهـا، فخُيـل إلـيَّ أننـي وإياهـا متشـابهان فـي حالـة ترقـب وانتظـار، لا صـوت هنـا ولا حركـة هنـاك ومـا زال اللـون أدكـن والصـوت سـاكناً، والملـل حاضـراً والبـدن علـى حالـه مُلتهبـاً بالحمـى.

هـذه العوالـم مـن الأشـياء بـت أحفظهـا عـن ظهـر قلـب حتـى أنـه لا يفوتنـي شـيء مـن عبرهـا وتفاصيلهاعلـى ندرتهـا، أحسسـت مـع الوقـت وكأن عينـيَّ قـد أسـدلتا جفنيهمـا ولـم يطـل الأمـر كثيـراً حتـى عـدت مجـدداً للنـوم وكأننـي فـي حالـة سـباق محمـوم نحـو الكسـل فلاشـيء ينتظرنـي ومـا من شـيء يجـب علـي فعلـه، فقـط الراحـة ولا شـيء غيـر ذلـك، برغـم هـذا التعـدد الهائـل فـي الخـارج، والامتـداد الفسـيح للكـون فـي الخـارج مـا زلـت متمـدداً فـي زاويـة مـن الزوايـا كالمقيـد لا يتحـرّك فـي أطـر هـذا المـكان سـوى خيـال بائـس قـد يقلـق صاحبـه بسـؤال دون أن يؤرقـه بفكـرة.

الفصل الثاني

وبعد مرور وقت ليس بالطويل اندفعَت ممرّضة في لحظة كادت عيناي تتطاير شظاياهما غضباً على من أفسد عليَّ متعة النوم، وما إن رأيتها حتى ألهب حضورها مخيلتي، رأيتها وهجاً من الشرق يتلألأ كشمس، وبحماسة تشبه تلك الهتافات والتصفيق الحار لخطاب عاطفي من على منبر، وقعت أسيراً تحت رحمة النظرة الأولى. فمن يرَ الجمال بقلب يصبح أسيراً لانطباعه الأول، حالة من اللاشعور تتوق إلى الهيام، إلى الفتنة والعجب، تبحث عن إرادة جديدة لها في البقاء، والنجاة من حالة السأم، تبحث لها عن مكان كما لغيرها تلذذاً بعوالم الحب، المجد، والجميلات، هذا اللاشعور هو الآن أقرب لأن يتمدد داخل ذهن بدأ تواً مراحل نموه، لأنعم بفعل المخاطرة بالحياة نفسها من أجل الحياة، كان وقع خُطاها يقترب مني، وقد تحولت تماماً من حالة إلى حالة أخرى تتناقض والأولى، لم يمضِ على نومي الكثير ولم أصل بعد إلى مرحلة الاكتفاء، ولا مجال للعودة مرة أخرى، فهذه الأصوات المتضاربة مع أصوات أخرى مدفوعة بالفضول للوجوه نفسها التي لا تهتم عادة بما إذا كان المريض يشتكي أرقاً، ولكن في هذا اليوم أعود

مستسلماً لكل ما هو مخبوء تحت حالة اللاشعور، وكأن شلالاً من الماء، يسقط من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، حتى تلاشى كل ما هو سلبي مع وجود صاحبة الحسن والجمال، أخذ الرجل الهرم بحماقة يداعبها بكلمات تأتي بالشرق ناحية الغرب في وقت كانت الحسناء قريبة مني لدرجة الالتصاق.

هذا الرجل الهرم مثلي، يعبر عن ألمه لهذا الوضع فيشتكي من قلة في عوالم الأشخاص ومن غياب المساحات في هذه الغرفة وكأنها تبدو لنا مساحة أضيق من ظل رمح، وعلينا أن نتعلم كيف نسيّرها حتى لا تسيّرنا هي، فنكون أقرب إلى وصف سطحي يشير إلى الشيء عن بُعد، كان لزاماً على الرجل الهرم وعليَّ تفعيل «حب الواقع» على حساب الاستسلام لدواعي القرف والقلق والكآبة، فكنّا تحت رحمة الشعور بالحواس إن جرى الإقرار عمداً بوجود شعور، عله يبتعد بنا عن مساره الطبيعي في معانقة السأم، ومع ما تبقى من حواس أمكن لنا التحكم في ملكة التخيل بإدراك وبتناغم مع الأشياء، لتكوّن نظرتنا الحالمة وهي من جعلتني أولاً أنظر إليها برغبة تكبر وتتمدد بفعل حاكمية الذوق القسرية، ومن الرجل الهرم، ثانياً، في ممارسة العبث..

وبينما كنت واقعاً تحت تأثير هذه المخيلة الحالمة، تحدثت معي وفي صوتها نغمة أعذب من همس الحياة فاستمرت نظراتي تراقبها بلهفة حتى أخرجت «الحقنة» ليحملني الواقع بعيداً عمّا كنت

فيـه صارخـاً فـي وجهـي وكأنـه ينطـق بحقيقـة الجمـال المرعبـة: تُـرى، هـل يمكنـك الآن تأمـل الضديـن وهمـا يتفقـان علـى نحـرك!

ابـن الأرض حينهـا لا يعلـم أن هنـاك أرضـاً للأنوثـة وأرضـاً للفحـم والحديد، أرضـاً للسـلام وأخـرى للحـرب، إرادة واستسـلام، جمـال وقبـح فـي آن، لا معنـى لهـا سـوى أنهـا فوضـى. ثنائيـة عندمـا تتآلفـان فإنهمـا ولا شـك تسـيطران، فـلا يمكـن لأيّ حاسـة مـن الحـواس أن تـدرك القيمـة فـي كل مـا هـو جميـل ولا يمكـن إخضـاع المسـألة برمتهـا للعقـل، ثنائيـة تتعاضـد وهـي فـي الأصـل حقيقـة تحمـل ضدهـا فـلا تكـون ضربتهـا إلا علـى رأس فتـى صغيـر، إن جـاءت فـي عقلـه الأيسـر فقـد الكلمـات والمنطـق والتحليـل وكل الأرقـام، وإن جـاءت الضربـة علـى الجانـب الأيمـن قضـي علـى مخيلـة حالـم فـلا يستشـعر أي حالـة مـن حـالات السـلام الداخلـي.

بـدأت لعبـة الأضـداد فـي تداخـل لتضفـي نكهـة أخـرى علـى السـأم، فتبقـى بقيـة الأحـداث متشـابهة وكأنهـا حالـة مـن التكـرار، تبـدأ صباحـاً بمقولـة تأتـي بالنغمـة نفسـها:

«قود مورننق، بلود سامبلز»

لأبـدأ بممارسـة الطقـوس المعتـادة نفسـها، فـي أن أحـرك رأسـي المثقـل بالضربـات فـي الاتجـاه الآخـر هربـاً مـن منظـر الحقنـة، أمـد يـدي لمـن تأتـي منهـم فأهـرب بنظـري نحـو الجهـة الأخـرى مـن الغرفـة حيـث الرجـل الهـرم، مـن يهـرب منـي هـو الآخـر مباشـرة إلـى مـن تعبـث بيـدي.

الممرّضـات يقمـن بعملهـن الروتينـي والرجـل الطاعـن فـي السـن

لا يتوقف أبداً عن الكلام تغزلاً بهن، يداعبهن بالكلمات دون خجل وبصوت جهوري دون مراعاة لأحد، وإن تحدثت معه رد علي بكلمات مقتضبة وسريعة وكأنه سَئِمَ حديثي المتكرر، لأعود إلى نفسي وأتتبعها فلا أراها إلا وهي تتجول مرة أخرى في هذا المكان وفي خارجه، أحسست بحقيقة ذاك الذي يشكو ألماً وذاك الذي يغنّي، وفي أحيان أراقب من كانوا في خندق المرض لا يملكون حيلة إلا أن تنحني رؤوسهم باتجاه صدورهم أو يلمّون ركبهم باتجاه بطونهم، ومن زادته حالته سوءًا يكون معه مُرافق قد غطّ في نومه فتُرك وحيداً، تتنقل الصور من زاوية إلى أخرى، لتلتقط هذه النفس كل شيء هنا من على هذه الأنقاض في محاولة لئلّا يكون المكان سجناً عليها، ترى السماء من خلال فتحة صغيرة كما يراها سجين، كأنما أنا والنفس توأمان محال أن يفترقا، خيالنا بذرة قيد التخلّق، نتعرف إلى تفاصيل أكثر فأكثر عن النهار وعن الليل، عن الكواكب والنجوم و إذا ما حامت فوق رؤوسنا أسراب نبقى في حالة تنبه وفضول كي نميز بين سلسلة لا تنتهي من الأصوات فلا مجال لرؤية أخرى، ويكفيني هنا من النفس ذاكرة أستحضر منها مواقف إذا أُخذ بمعناها التأملي في التواصل الزمني، وما يميز هذا الفعل أن له طريقته الخاصة فيَّ في تلمس الحواس بصورة مظلمة، أدناها في الدرجات لا تعبر بي إلى الضفة الأخرى نحو شعر كلاسيكي ينطق بالملاحم والمأساة أو مع شعر رومنسي حالم يثير الذكرى والحنين فينطق بكل ما هو سحري، هذه الأشكال من المحاكاة

لا تأتـي فـي تعبيراتهـا كلوحـة مـن دون ألـوان، تـرى فـي الألـوان إغـواء للعيـن ومحـاكاة للطبيعـة، فعقلـي مـا زال فتيـاً لا يعـرف سـوى القلـة فـي الأشـياء ولكنـي قـد بـدأت تـواً فـي تكويـن علاقـة جديـدة مـع حقيقـة تلـك الوحشـة والتنبـه والفضـول فـي النـأي عـن المألـوف.

إن مـن يرانـي يـكاد يجـزم أنـي لا اشـتكي مـن علـة تسـتحق أن تبقينـي أسـيراً لهـذا السـرير الأبيـض، ومـع هـذا فقـد أحسسـت تدريجـاً بالمـرض، مـا زالـت الأصـوات نفسـها تُلقـي بظلالهـا الكئيبـة علـيَّ معظـم أوقـات اليـوم، وبـدأت الأشـياء تأخـذ مكانهـا الطبيعـي فتوصـف بغرابتهـا، فـي هـذا اليـوم، الرجـل الهـرم، صاحـب المـزاج المتقلـب بقـي هادئـاً صامتـاً علـى غيـر عادتـه بعـد أن كان يـردد الكلمـات نفسـها فـي حضـور الأنثـى وكأنهـا دليـل علـى سـعادة يخفيهـا، علـى مـا يبـدو أنـه وقـع معـي أخيـراً فـي الفـخ نفسـه، ممّـا أضـاف تَعسـاً، فقـد غابـت عـن مسـامعي كلمـات كان يرددهـا بسـعادة ويتناغـم مـع أصواتهـا بمأمـأة عاليـة، علامـةٌ منـه علـى اليـوم البهيـج، وحيـن يفعـل يُخـرج الفرحـة مـن رحـم الألـم، حتـى الممرضـة فـي هـذا اليـوم تبـدو فـي حالهـا كالرجـل الهـرم، انشـغلت بعملهـا دون أن تنطـق بكلمـة وكأنهـا فـي حالـة سـأم هـي الأخـرى، كانـوا جميعـاً فـي حالـة تبـدو لـي وكأنهـم يسـتنجدون بالصمـت مثلـي علهـم يتشـبّثُون بأيَّـة قشَّـة ترسـو بهـم علـى أقـرب شـاطئٍ لتبقيهـم فـي حالـة سـلام، تسـاءلت فـي نفسـي وأنـا أراقـب هـذه الأجـواء: قـد يأخـذ المـرض شـيئاً مـن المريـض ويجعلـه سَـئِماً ولكـن العمـل بالنسـبة إلـى الممرضـة هـو المـال والاسـتقرار وقـد لا يتوافـر لغيرهـا فلمـاذا حالـة السـأم التـي انتابتهـا..

أراقب بصمت وكأنني أعلم أنه في بداية كلِّ يوم تقتضي الإرادة في داخلي بدءاً القدرة على تحمل السأم، سرعان ما تصل إلى ذروتها في تفاصيل حياتية ثانوية تأتي وفق الترتيب نفسه لما كان عليه يوم الأمس، والحقيقة، أن هذا حال الجميع فنحن نراقب معاً كل شاردة وواردة هنا ونتساءلُ عن كل شيء قبل أن تتعالى الأصوات التي تأتي وفق التسلسل نفسه في كل يوم لتقتحم الغرفة رقم سبعة، هذه الأصوات التي تأتي غامضة، متداخلة بعضها ببعض بلغة غير مفهومة تبدأ عندما تقوم الممرّضة بحماسة مفتعلة بيد وفي اليد الأخرى حقنة لا تسرني رؤيتها، وهناك في أقسام أخرى عمليات معقدة تتم بكلِّ يُسْر وسهولة دون أنْ يشعرَ بها المرضى، تتم ومن كان الضحية يُتمم محاولاته المتكررة دون مَللٍ في صراعه الدائم مع السأم في سبيل النجاة.

لم أعد أفهم شيئاً كحال من يرى الغبار بعد قنبلة مدوية في ساحة الحرب، وكل هذه المحاولات اليائسة للهرب بالتقوقع بين الملاءات تزيد من الأمر تعقيداً ويكفي أنها تحدث نشاطاً ذهنياً أكثر، أبقى صامتاً في مكاني وكأنني من النوع الذي يسمع ويهز رأسه بالموافقة في كل موقف، يبحث ولا يبحث عن غرائب الأشياء في هذا المكان فيتذكر بعضاً من بقايا ذاكرة. أكتشف أنه في هذه اللحظة لا شيء يستدعي بقائي مستيقظاً لأعود إلى النوم فترة فأعود مرة أخرى لفتح عيني من جديد فأكتشف مرور عشر دقائق لا أكثر، قلقٌ في الحالتين، في نومي وفي يقظتي، ومع هذا القلق تنقضي ساعات وأيام وأسابيع، حتى مواعيد

الزيـارة التـي يقـوم بهـا الأهـل، وفـي العـادة أكـون مسـتثنى مـن حواراتهـم إلا قليـلاً، فيمـر علـي الوقـت بطيئـاً يشـعرني أكثـر بالسـأم، وبعـد أن تنتهـي الزيـارة يكـون الوقـت قـد حـان للنـوم مـن جديـد والـذي يأتـي بصعوبـة مـع اسـتمرار أصـوات تشـبه النحيـب والتـأوه ليأتـي الغـد الـذي آمـل أن يكـون حامـلاً معـه بعـض الأمـل فـإذا بـه يرسـل إلـيَّ الجمـود مـع الوجـوه نفسـها فـي كل صبـاح.

الفصل الثالث

أذكر مرة أنه في صباحات يوم مميز، وسبب تميزه في أني آخر من صحا من نومه وما إن فتحت عيني حتى وجدت أنه قد سقطت ورقة بيضاء على الأرض من مجموعة أوراق كان يحملها طبيب جاء ليطل على الرجل المسن، فتابعتها وهي تسقط متلهِّفاً بشدة للتعلّق بشيء، ولاكتساب بعض القوة أو الانفلات ولو موقتاً من مكاني فلم أستطع الحراك، ولا حتى إمكانية تنبيه الطبيب فقد فاجأتني حقيقة الجسد بالحمّى، ارتفعت درجة حرارتي مرة أخرى وهنا عين جديدة لي ستُراقب الأشياء، غادر الطبيب وبقيت تلك الورقة على الأرض..

وما إن قَرُب موعد زيارة الأطباء لي حتى بدا الأمر وكأنهم غزاة من عالم خارجي، وأنّي لأخشى ملامح الفرسان فيهم، يجهزون دوماً الإعدادات الخلاقة لأجل معاركهم العلمية، فلا يعرفون سوى لغة القسوة، ولغة الغلبة، طبول هذه الحرب مُحملة على أكتاف مجموعة من المتدربين، وأنا وحدي من أمثل الجند في ساحة القتال، يتفاعلون معاً بتناغم، ومعي لا يتفاعلون إلا بحسب قانون رد الفعل الحرج، إمّا الفناء وإما المجابهة تحت ضغط غريزة البقاء، يحومون فوق رأسي

كنسور جارحة، فتعبّر اللغة عن نفسها بغير تلك اللغة التي أتحدث بها، لم أفهم ما يجري حولي، ولم تنفعني محاولاتي لكشف هذه اللغة بثقافة المحاكاة من أجل الوصول إلى أي شكل من أشكال التمثل كي تُفهم علتي.

هذا اليوم وكأنه يحمل بوادر الانتقال إلى شيء جديد، غادر الأطباء وقد صرف لي أحدهم نوعاً جديداً من الأدوية علها تساعدني ولو قليلاً، لم تكن لديهم أيّ رغبة في البقاء أكثر، ليندفع الرجل الهرم كعادته، ويُغنّي بصوت عال، في الحقيقة كان يعوي مثل كلب جريح أو هكذا كنت أسمعه تحت تأثير الحمى، جاء صوته قوياً وكأنه لا يتخندق وراء تحصينات المرض ليتحرك إلى مسامع الجميع حتى سرت في عروقي قشعريرة، وليتقنّع وجها الممرضة وعامل النظافة بالعبوس وهما يراقبانه بصمت، وعلى نحو غير متوقع، قبل أن تخرج الممرّضة أخذت تتأمل زوايا الغرفة بطريقة أخّاذة مشوّقة وكأنها تتكئ على سحابة، فلربما كانت تبعث برسالة إلى الرجل الهرم بعد أن وجدت في كلماته شيئاً من التقدير لذاتها المنهكة كذوات المرضى، بدت وكأنها تبحث هي الأخرى عن شيء، توقفت قليلاً قبل خروجها، وعندما نطقت تلعثمت ثم خرجت وهي تتمايل في مشيتها بخطوات متثاقلة وكأنها لا تريد الخروج من هذا المكان، اسمها ميرفت وقد كانت لطيفة إلى حد ما، لا لشيء سوى لأنها تجيد اللغة العربية.

حدود التأمل تدفعني دفعاً لأن أتجول كثيراً في ذكريات الماضي

فـلا أتذكـر سـوى تسـارع الأحـداث وهـي تتنقـل بـي مـن محطـة إلـى محطـة وكأنهـا شـريط يمـر سـريعاً مكتـوب عليـه اسـمي، عمـري كان ثمانيـة عشـر عامـاً وكل سـنة بهـا اثنـا عشـر شـهراً وكل شـهر فـي الغالـب يكـون ثلاثيـن يومـاً واليـوم أربـع وعشـرون سـاعة فسـتون دقيقـة للسـاعة ومثلهـا مـن الثوانـي للدقائـق ولهـذا هـم يقولـون إن ذاكـرة الإنسـان هـي كنـزه النفيـس الـذي يحملـه ولا يعلـم أي إنسـان عـن حقيقـة هـذا التشـكل، هـذا الرقـم الكبيـر فـي الغالـب يسـفر عـن مخـزون هائـل يتنقـل معـه الإنسـان الطبيعـي بيـن محطـات التجربـة الحياتيـة متـى مـا أراد، لكنـي أخفـق فـي محاولاتـي كـي ألتقـط بعضـاً مـن الصـور، ولـو لـم يكـن الرجـل الهـرم موجـوداً معـي فـي هـذه الغرفـة لـكان لعزلتـي مـكان أفضـل فـي تدريـب الذاكـرة حتـى وإن كانـت رمـاداً لسـنوات منطفئـة.

«لا أذكـر ملامـح أشـخاص مـرّوا فـي حياتـي، وبرغـم ذلـك، تشـبّثت بالخيـالات، مختبـئٌ فـي التفاصيـل فأنجـح فـي إقصـاء الواقـع بنـوره الوهـاج عـن الذاكـرة قليـلاً، فتتكشـف مراحـل سـن العبـور مـن بـراءة الطفولـة إلـى عنفـوان الصبـا فـي محطتيـن كانتـا تتموجـان فـي حياتـي وقـد قسـمتا خيالـي نصفيـن، الأول فـي خانـة الشـعور والآخـر فـي خانـة المـادة، ومـا بيـن القريـة والمدينـة، الداخـل والخـارج، البسـاطة والتكلـف، ثمّـة حكايـات لا يقرأهـا مُحتـرف فـي اللغويـات، كان الفـرق فـي كل شـيء وكأنهمـا فـي رأسـي علـى شـكل قطبيـن سـالبين لا يلتقيـان، أو همـا قطبـان موجبـان، ليبقيـا علـى كل محـاولات الفهـم فـي تباعـد، فكانـت مدلـولات الألفـاظ أو المعانـي أو

حتـى العبـارات اللفظيـة وكأنهـا طائـر أسـطوري يحلـق فـي سـمائي كشـمس يطبـق جناحيـه علـى نهـار ليدخـل عالمـي الأرضـي باتجـاه حـداد العتمـة، الأمـر كان يشـبه صدمـات حضاريـة تؤخرنـي فـي كل مـرة عـن متابعـة الطريـق، فأمضـي عازفـاً والطريـق الوعـر يُوقّـعُ مـا ألحنـه.

ومـن جملـة الألحـان التـي وقعـت أنـه لـم أكـن أهتـم فـي بدايـة وصولـي إلـى المدينـة بمـا حـدث لـي مـن تغييـر فـكل هـذه الأشـياء مـن منظـر بديـع وجـو متقلـب وجيـران متزاحمـة، متداخلـة يضـل فيهـا البصـر ويكفـي أنهـا تبعـث علـى الراحـة فـي اسـتقبال تغييـر جديـد ينفـض عنـي غبـار الجمـود، كنـت مشـغولاً إلـى حـد مـا بمهـام أخـرى ومـا أبسـط تأديـة واجبـات العائلـة ومـا أصعبهـا، فعائلتـي لا تتنقـل بـي بيـن ذكـرى الأمـس الدابـر وحقيقـة اليـوم فـي الحاضـر فتنحسـر الأشـياء فـي أولـى محطـات التغييـر، ومـا تبقـى لـديَّ مـن أحـلام تـرده الطبيعـة نفسـها وكأن فرحتـي بالحـي الجديـد هـي البدايـات فـي تلمـس حالـة سـأم جديـدة، لا تشـعرني بروعـة التنقـل فـي المـكان مـع الثبـات فـي الزمـان، لا علـم لـي بتلـك الكيفيـة التـي بسـببها تملكتنـي هـذه الحالـة مبكـراً دون رغبـة منهـا فـي الرحيـل، شـيء مـن الداخـل لا يُعـرف سـره، بقـي عالقـاً سـواء أكانـت شمسـاً فاتنـة، أو حارقـة، أو سـماء تمطـر أو حاملـة لضبـاب خفيـف حتـى تجـاوزت معهـا شـعور المـرة الأولـى إحساسـاً بروائـح الأرض وهـي تـؤذن بتغييـر الفصـول، فكانـت النتيجـة النهائيـة أنـه لـم تكـن لـديَّ خطـط لوقوعـي فـي دائـرة التناقـض، وإن كان هنـاك وصـف دقيـق جـداً لحالتـي تلـك فهـي أشـبه بشـظايا بلـور شـحذت مخيلـة مـن يـرى

في نفسه فارساً ملثماً فلا يراها سوى قطع متناهية في الصغر وعليه أن يبقى بعيداً عن تفسير وتحليل هذه الجزئيات الدقيقة وكأن فهم الحياة قد استقر على كبار السن، هم وحدهم من يلملمون أكداس الكتب المتراصة فتبرز لمن هم أصغر سناً وكأنها الأرض في عطائها.

وصلت بي الأقدار إلى مرحلة من العمر تُعرف بالعبث، فهي منطقة التردد بين إقدام وإحجام، الفعل واللافعل، المسؤولية واللامسؤولية، لم أكن طفلاً أو شاباً ولا حتى رجلاً، أُعامل من الجميع بحسب ما يريدون هم، وبحسب متطلباتهم، فإن ساءت الأمور بسببي قالوا لي: أنت رجل، وإن كثرت مطالبي كرجل تحولت في نظرهم إلى طفل وما بينهما كلمة أحب أن أوصف بها كثيراً وهي «شاب»، بعيداً عن المسؤوليات وكذلك عن التوصيات، ولم يكن يسعني إلا أن أستشعر نوعاً من القبول إزاء هذا التحول وأن أختار لنفسي ما يحلو لها..

اخترت لنفسي أو أن الأدوار كانت توزع علي عمداً في أن أكون بروليتارياً في القرية وبرجوازياً في المدينة..

منزلنا الجديد يتراص مع منازل قليلة وأمامه شارع فسيح، ووالدي رجل مقتدر لا يشتكي من شيء، فاتخذ قراره بالرحيل عن القرية وعن بيت طفولته ذلك البيت الذي ولد فيه ومارس فيه أحلاماً صغيرة لينمو ويكبر مع الأيام حتى قدم بعائلته إلى هذا المكان وقد خلع عنه قميص البساطة، وصادف أن دخلنا المدينة لأول مرة في يوم ماطر، رؤيتنا للمطر وهو يتساقط بغزارة، والبروق التي كانت تضرب السماء قبل أن

ينهمـر المطـر كانـت رسـالة مـن السـماء لأن يتوافـق الزمـان حتـى يبهرنـا أبـي أكثـر بحقيقـة الجمـال فـي المـكان..

أصبـح الخيـال واقعـاً، وأصبحـت الأحـلام حقيقـة فـي عينـي فتـى يحـدق إلـى الفـراغ بعيـون غائبـة فتـراءى لـه المشـهد وكأنـه أفضـل طريقـة للنجـاة مـع طبيعـة تتجـاوز فـي مسـاحتها مسـاحة المبانـي السـكنية لتكتمـل صـورة القريـة بهدوئهـا ودفئهـا علـى مسـاحة شاسـعة ربطـت بشـبكة مـن الأرصفـة تطـل مـن ورائـه أشـجار كثيفـة، كان المنـزل الجديـد لا يطـل علـى واحـد مـن البسـاتين المنتشـرة بشـكل مباشـر ولكنـه قريـب جـداً مـن واحـد منهـا، وكان لانسـيابية الممشـى بيـن البيـوت متعـة أخـرى، فلـم أكـن أعـرف سـوى المـزارع والجبـال، المشـهد برمتـه كان سـحراً وجمـالاً، يعطـي معنـى أكثـر لشـاعرية الطبيعـة حيـن ترتبـط بالخيـال المـادي، أزهـاراً ونباتـات بـكل الألـوان يتوسـطها مـرج فسـيح مـن العشـب الأخضـر بحيـث لا أقـوى علـى مقاومـة تلـك الرغبـة الجامحـة فـي لمسِـه فأجلـس علـى العشـب وسـرعان مـا أتمـدد ليلامـس ظهـري الأرض المُعشـبة، أتوغـل بعيـداً فـي حدائـق أخـرى فـأرى الأطفـال الصغـار وهـم يتمـددون علـى الأرض المعشـبة مثلـي، وبعضهـم يجـري كالأرانـب دون تعـب..

فـي الخيـال صـورة مـن الماضـي معلقـة فـي وسـط الحقـول مليئـة بأزهـار بريـة كنـت أعتقـد أنهـا صناعـة ريفيـة بامتيـاز لا تقـوى المـدن علـى توفيـر هــذه الأرض الخصبـة فـي محيطهـا ولكنّـي اكتشـفت حقيقـة هـذه البسـاتين المنتشـرة فـي كل مـكان، مسـتعيناً بدراجتـي الهوائيـة، وكانـت

تلك، واحداً من أشكال اللهو المفضلة لدي، شاهدت الجميع من جميع الأعمار، حتى الفتيات كن يلعبن بعيداً دون مشاكل تذكر، أهل الحي يوجدون دوماً لا لمعاقبتنا بل للتشجيع وكأننا نعامل معاملة الضيوف على عكس ما كنت أحس به في البداية، يحضرون بتعاقب مستمر كي يتابعون أبناءهم في جو بات جميلاً يزرع رغبة في الحماسة، الأطفال هم أكثر نشوة بهذا الفرح وبهذه المراقبة، وكم ينغرس في قلبي سهم من الوجع ما إن أتذكر حالنا في القرية وكيف كانت عين الرقيب مرعبة ومقلقة لنا قبل وأثناء وبعد اللعب، ولم تكن عين واحدة من تراقبنا فهناك أكثر من عين يستفزها لعبنا البريء..

تبدلت تلك النظرات الجافة التي تكشف علناً كراهيتها بنظرة حميمة لأدرك مع الوقت أن الخيط الذي كان يربطني بالرفاق أخذ ينزلق من بين أصابعي فلا وجود لصحبة ترافقني قبل أن تتغير وتتبدل أحوالي في جملة أحداث، جاءت على نحو غير متوقع، فقد تمردت وأنا الصَّبي الغرِيرُ على سطح ماضٍ مرير بعد أن غاب عني ابن القرية المُتسلط ولم يكن في بالي سوى إثبات حقيقة واحدة لقائمة الرفاق الجدد، أنني في حال أفضل مما كنت عليه في القرية، وكأن الأحداث قد بدأت تبتسم لي ابتسامة المزهوّ بنفسه، فلأول مرة أجد نفسي صاحب قرار، وهذا الأمر جعلني أسيراً للمكان طوال سنوات، حُرمت من متعة التنقل والتعرف إلى قائمة جديدة مكتفياً بعطايا الوجود لي، هكذا جرت معي الأمور وهكذا تقبلتها وتعايشت معها في تحوّل كامل عمّا كنت عليه.

هـذه الوجـوه التـي لا حصـر لهـا، هـي عائـلات اسـتقر بهـا الزمـن فـي هذا المـكان فـكان الاختـلاط والاندمـاج والانصهـار بيـن عـادات وتقاليـد تختلـف فـي حدتهـا بيـن هـذا وذاك، وفـي المدرسـة اكتشـفت أن عـدد الطلبـة لـم يكـن كبيـراً مقارنـة بحجـم المدرسـة الكبيـر جـداً فقـد كان العـدد يبـدو فـي القريـة أكثـر إذا مـا قورنـت بالمسـاحة الأقـل وقـد تعجبـت وأُعجبـت بهـذه الوفـرة مـن المسـاحات، وحيـن يلتهمنـي اليـأس أتنقـل مشـياً علـى الأقـدام أو علـى الدراجـة الهوائيـة مـا بيـن حدائـق لأستشـعر معهـا حالـة مـن الهـدوء، فتبهرنـي الحيـاة بجمالهـا العمـري القصيـر كمـا كان يصفهـا أخـي عامـر، لأعـود إلـى المنـزل وقـد انشـغل عنـي جميـع مـن فـي البيـت فـلا أحـد يسـأل ولا يهتـم بأمـري، ومـع حالـة الانصـراف يكـون الهـرب إلـى حيـث الموسـيقى ومقطوعاتهـا الحزينـة، تفاعـل عاطفـي عميـق مـع الموسـيقى بنغماتهـا وفواصلهـا، بتناغمهـا وإيقاعهـا، أسـتمع إليهـا بلهفـة، وكأنهـا تُعـزف فـي عقلـي، أسـتمع إليهـا بعمـق عندمـا أكـون وحيـداً حتـى يتوقـف كل شـيء فـي حضـور عامـر الـذي يفسـد علـيَّ فـي كل مـرة هـذا التأمـل ولطالمـا سـمعت منـه جمـلاً مختلفـة تنتهـي بالإحبـاط:

«وقد تصفو الحياة لغافل عما مضى فيها وما يتوقع»..

«إن ورثته، احصل عليه كي تمتلكه»..

أخـي فـي الأرض معـي، لكنـه فـي نظـري إنسـان يجهـل لغـة الطيـور عندمـا تغـرد، ويراهـا قبيحـة وهـي تراقـب الأرض، تزعجـه عندمـا ترتجـل

التغريد أو حينما تعزف لحناً ثنائياً، بفعلته هذه بات أشبه بمنقّب الآثار وما أكثر الرّمل من حوله وما أثقله، لا يعرف أن للموسيقى أسلوباً خاصاً في تنشيط الخيال عندما تقترن بالأرض، يهدم بينما أنا أبحث عن تأريخ للجمال، عن محاكاة الطبيعة وفعلها العجائبي في صناعة التاريخ، فأستمتع أكثر بالموسيقى وبالنظر الممتد إلى جماليات المكان وكم تمنيت أن يكون عامر معي مفعلاً كل حواسه ليشعر بحاكمية الذوق كملكة.

كان المستقبل بالنسبة إليَّ شيئاً من العدم، لا يعني لي شيئاً على الإطلاق، كلمات كنت أسمعها فيستعصي علي الفهم أو هو محاولة فهم ما لا يُفهم ولهذا لا وجود له في قائمتي، ولا يوجد حتى من يذكرني بأهميته لانشغال والدي بتجارته وانشغال أمي بوظيفتها التعليمية وفي ملاحقة دورها كأم تعتني بالبيت وبأبنائها، لم يساهم آخر آنذاك في مضاعفة انطباع القلق لدي تجاه هذا الأمر، سوى عامر ومقولاته الخالدة:

«ولماذا لا تسترجع دروسك حتى لا تصبح نكرة في المستقبل»..

«إن كنت لا تهتم فاذهب إلى سريرك فغيرك الآن على بوابة في ثكنة عسكرية أو مشرد دون مأوى»..

«استمتع بنوم هادئ فلن تجد مساحة لأن تفعل ذلك في المستقبل»..

كان أخي عامر يريد أن يبعدني قليلاً عن عالمه الخاص في حدود

كتبه المدرسية، ينطق لي ببعض من هذه الجمل بوجه لا يمكن تحديد سماته، لم يكن غاضباً مني قط فأنا شقيقه لكنّه يرمي عليَّ بهذه الجمل وهو قاصد شيئاً، فأحملها في نفسي لأبقى في حالة صراع دائم وحيرة من أمري إن كان عامر يعي حقاً ما يقول..

هذه السلبية من عامر تركت جانباً من التشاؤم بحقيقة وجودي في ظل هذه الظروف، لأبقى بطبيعتي البشرية أسيراً لعالم أراه جميلاً في أحيان، وفي أحيان أخرى أنظر إليه بكل كآبة..

وصل بي العمر إلى سن السابعة عشرة وما زلت طفلاً في نظر والدي ونكرة في نظر عامر، ولم تكن الأحداث تستحق ان أستشعر معها حقيقة من أنا..

انتقلت من المرحلة المتوسطة إلى المرحلة الثانوية دون صعوبة تذكر فقد كانت للمدرسةِ مشاركات في حفلة افتتاح إستاد رياضي وبعدها افتتاح مهرجان تراثي وكنت من بين الطلبة المشاركين هنا وهناك لأنشغل عن دراستي مع هذه التدريبات المكثفة حتى انقضت سنة كاملة ولا أعلم ماذا تعلمت وكيف نجحت!

في البيت ما زال عامر مهتماً بما يتحصل عليه في المدرسة ليقرأ ويقرأ ثم يقرأ، أحاول إزعاجه وإخراجه من هذه الطقوس في كل مرة ولكن عامر يعود ليقرأ دون شعور منه بالغضب ودون تفاعل كما الآخرين، هادئ الطباع يقوم بكل خطوة بصمت وكأنه في حالة شبيهة بحالة السأم في كل شيء إلا الابتسامة عندما يتحصل على نتيجة لجهده

مـع نهايـة كل عـام، كنـا معـاً فـي الغرفـة نفسـها، يبقـى عامـر منغمسـاً حتـى النخـاع بتحصيلـه العلمـي وبشـكل يومـي فتـرة تتجـاوز الثـلاث سـاعات يوميـاً وأذهـب أنـا لأسـتمتع بالموسـيقى بقوانيـن صاحـب السـلطة الأكبـر فـلا يمكننـي مشـاهدة التلفـاز ولا بـأس بموسـيقى أسـمعها بواسـطة سـماعة داخليـة، وبفعـل هـذه القوانيـن دخلـت عوالـم هـذا الفـن الجميـل، عامـر هـو مـن لـه الحـق فـي أن يصـدر أصواتـاً عاليـة مزعجـة فـي محاولـة لفهـم مـا بداخـل الكتـاب الـذي بيـن يديـه، يتصـارع مـع نفسـه خـلال معركـة الـذات فتخـرج منـه الأصـوات المزعجـة وكأنـه يـرى فـي نفسـه تشايكوفسـكي، أصـوات تخـرج منـه بشـكل عشـوائي لتُحـدث الارتبـاك بداخلـي، فـلا أسـتطيع فعـل أي شـيء علـى الإطـلاق سـوى مراقبتـه والانتظـار وفـي أحيـان الهـرب مـن هـذه الغرفـة حيـث الأهـل في الأسـفل لتبقـى ميـزة أخـي الأكبـر سـناً أنـه بمجـرد مـا إن ينتهـي مـن طقوسـه حتـى تكـون فرصتـي أكبـر فـي القبـض علـى كل شـيء يمنحـه عامـر بسـخاء، كل شـيء ينتهـي عنـدي فـي تـذوق كل مـا يتضمنـه البرنامـج الترفيهـي علـى حسـب إمكانـات ذلـك العصـر فلـم تكـن القنـوات الفضائيـة التـي حلـت محـل جهـاز الفيديـو، متعـة ذلـك العصـر متوافـرة، كنـا نخـرج للتنـزه بسـيارته الجديـدة التـي كانـت هديـة مـن والـدي لتفوقـه الدراسـي الدائـم، كان والـدي يريـد أن يوصـل إلـى عامـر رسـالة شـكر بـأي طريقـة كانـت، فكانـت هـذه الهديـة نوعـاً مـن التقديـر، فقبلهـا ولكنـه أبقاهـا فتـرة طويلـة دون حـراك أمـام البيـت، لا يطلـب ولا يتكلـم وكأنـه أسـدل علـى الحيـاة سـتاراً، وعندمـا طلـب وكانـت هـي المـرة

الأولـى فـي حياتـه، طلـب «بندقيـة» أثـارت اسـتغراب الأهـل كثيـراً لكـن وبعـد التحاقـه بالكليـة العسـكرية كأن جميـع مـن عايـش الموقـف عـرف السـبب، وقـد توقعـت أن تكـون وظيفتـه المسـتقبلية، منقّبـاً عـن الآثـار..

تعلـم قيـادة السـيارة ومـع هـذا لا يقودهـا إلا إذا كانـت هنـاك حاجـة، يتأخـر فـي كل صبـاح ولطالمـا أوقعنـي بسـبب ذلـك تحـت رحمة مـدرس غاضب نتيجـة التأخيـر الصباحـي، يتأخـر عامـر كثيـراً ومـع ذلـك يتركونـه فـي المدرسـة يرحـل دون عقـاب ويبقـون علـيَّ وبقيـة الأولاد المتأخريـن لنيـل عقـاب قـاسٍ وصـارم ينتهـي معـه اليـوم الدراسـي والألـم مـا زال باقيـاً، عوقبـت مـراراً بسـببه وبسـبب حالتـه الغريبـة ومـع هـذا كان عامـر هـو مـن يلقـى القبـول، متفوقـاً فـي دراسـته، يحبـه جميـع المدرسـين ويلقـى الثنـاء والمديـح مـن العائلـة.

الخـروج بنزهـة تعنـي لـي وجبـة عشـاء فـي مطعـم وفـي أحيـان تكـون زيـارة لمحـلات أفـلام الفيديـو والاسـتمتاع بعمليـة الاختيـار التـي تكـون مـن نصيبـي، لأنـه وبمجـرد مـا يبـدأ الفيلـم يذهـب عامـر فـي نـوم عميـق ليتركنـي وحيـداً دون نديـم ..

فـي الوقـت الـذي انشـغلت بمراقبـة تصرفـات أخـي كان هـو واعيـاً لمـا يريـد ولا ضـرر إذا بـذل مجهـوداً فـي اسـتيعاب مـا تحويـه كتبـه الدراسـية ليكافـئ نفسـه بعـد هـذا المجهـود، كنـا معـاً نتشـارك فـي طبيعـة ذلـك الفـرد الصامـت، قريبيـن بعضهـم مـن بعـض لكـن الإسـقاطات الحياتيـة تصـل بنـا إلـى مرحلـة الانعـدام..

الحياة بالنسبة إلى عامر هي استقرار، وبالنسبة إلي روتين ممل، وجوه أراها في مدرستي غاضبة وفي أحيان باكية، أرى الحزن وأسعد بالفرح ووجه أخي ثابت لا يتغير، وهذا ما تعلمته من أخي..

«حالة اللاشعور»..

وبعد سبعة عشر صيفاً وليس ربيعاً، ففي كل سنة يزداد في هذه المدينة الصيف لهيباً، وكانت في قمتها عندما اقتحمت رأسي لأول مرة، تم نقلي من مستشفى إلى آخر وفي آخر زيارة تم نقلي عن طريق سيارة إسعاف وقد كنت حينها في وعي كامل فقد كانت «الحمى» تنتابني يوماً واحداً كل أربعة أيام، لم أكن أعرف ما ينتظرني في المستقبل وهو ما كنت أهرب منه دائماً، أو أقبل حقيقته فقد كانت الأحداث تسابق بعضها بعضاً وتتنقل بي كيفما تشاء، من محطة إلى أخرى، لأرى نظرات أخرى مختلفة من الآخرين وهي تشفق علي فقد مضى على أول يوم دخلت فيه المستشفى تسعة أيام.

مجموعة من الأطباء تناقش بعضها بعضاً وأنا في الوسط بينهم، لا أستطيع أن ألتقط لغتهم، يتحدثون ولا أسمع إلا غمغمات، ذهول والتباس زادت من نقاشاتهم حِدة وفي جواري مريض قد انزعج هو أيضاً من نقاشاتهم، التي لا يستطيعون متابعتها في مكتب، فيأتون ويتناقشون على مرأى ومسمع من الجميع، نظراتهم إلي جافة دون ابتسامة، أحسست بشيء غريب فالتصرفات من حولي لا تشعرني أبداً بالأمان..

استشعرت قليلاً من الرحمة مع طاقم التمريض وجميعه كان من النساء، يتبادلن عملهن فتمر علي لحظات لا يمكن أن أتجاهلها أو أتناساها، حالة من الشرود أشبه بلون أبيض سرعان ما تشكلت فوقه بعض الخطوط السوداء لتعيدني مجدداً إلى عالم اليقظة في الغرفة رقم سبعة، ومع رجل صلب يشتكي من علة لم تُكتشف كما هي حالتي وكلانا في انتظار قرارات الأطباء..

أيقظني صراخ الرجل الهرم كما هو الحال في كل يوم ولكن هذه المرة أتى صوته جهورياً:

«سلام عليها ماااا.. أحبت سلامنا»

فنظرت نحو الجهة المقابلة فشاهدت ممرّضة وقد كان وجودها متوقعاً بالنسبة إلي تناغماً مع أصوات الرجل المسن، يتكلم بصوت عال متحدثاً إلى نفسه ثم يصمت ساعات ولا يعلم أحد سر هذه الكلمات التي ينطق بها كلما شاهد ممرّضة تدخل الغرفة وقد تزايد عددهن بعد أن زاد عدد المرضى في هذا اليوم ليصل إلى الرقم ثلاثة في غرفة ضيقة تماماً، ومع قدوم المريض الجديد الذي كان شاباً في هيئته، مسالماً في طلته، هذا الشاب كان سبباً في تحول الغرفة إلى ورشة عمل من الممرضات التي تصاحب قدوم أي مريض جديد.

قرأت مرة بيتاً من الشعر يقول: في الناس أَمثِلَةٌ تَدُورُ حَياتُها كَمَماتِها ومَماتُهاكَحَياتِها..

وكمتطفل أكاد أقول إني تذكرت السبعة عشر ربيعاً، ولا أعلم

سر ذلك الربيع فلم أشاهد فصلاً واحداً لي على هذه الأرض ينبئ بقدومه، حتى الاستقرار هو في حقيقته ملل عندما تفتقد الأشياء قيمتها، وفي حال وجود بعض من هذه العوالم يكون الاستقرار متوفراً للحظات قد يرفضها بعد فترة من الزمن الإنسان نفسه بعد حالة من السأم، ليعود فيحن إليها مرة أخرى وهكذا تستمر معي الحياة في تقلب مستمر تماماً كضباب بددته أشعة الشمس، وحدها المراقبة من كانت تتسبب لي بالأذى الذهني وتشعرني بالملل، ولم تنفعني ذاكرتي وقد بعثرتها الرياح فحملتها بعيداً، راقبت صعودها في السماء حتى غابت ملامحها، فجلست أراقبها بصمت، خلفي بيوت من طين، ووجوه لكبار أهل القرية، مرة تختفي ومرات تبقيني في حيز الوجود حيث القبول بهذه العقدة.

وفي تذكري للأشياء فإني أراها الآن بغير طبيعتها، فلا يعني أن المسطحات الخضراء، خضراء، أو أن الحدائق، غناء، وفي مجموعة الأزهار، أريج وعطور، فقد تكون هذه المسطحات إمبراطورية للحشرات، والأزهار أشواكاً تتسبب بالأذى.

أتحسر كثيراً وأنا أشاهد من خلف النافذة كل صباح وفي الساعة السادسة بالتحديد مجموعة من العمال وهم يمشون عبر ممرات المستشفى الخارجية الشبيهة بممرات الحي تماماً، في الطريق كي يعملوا بكل نشاط وهمة، ولكم تمنيت حينها لو أن بقدرتي المشي أوأني هناك حيث السماء الصافية الزرقة عامل أستنزف جهدي البدني في كل يوم للحصول على مقدار ضئيل من المال.

أذكر حـواراً دار بيني وبيـن ميرفـت التـي تكلمـت عـن الحـب بحماسـة بعـد أن جلسـت تمامـاً علـى حافـة سـريري:

« على ما يبدو إنك غارق في الحب»

قالـت هـذه الكلمـات وهـي تـرى كتـاب ألـف ليلـة وليلـة بيـن يـدي، أمسـك بـه دون أن تكـون عنـدي نيـة لقراءتـه، ابتسـمت لهـا دون إجابـة، مكتفيـاً بتحريـك رأسـي فـي الاتجاهيـن نافيـاً، فالحـب لا يعنـي عنـدي سـوى ذكـرى يتيمـة سـيئة، لكنهـا أيقظـت بسـؤالها فضـولاً إضافيـاً فمـن أي بـاب طرقـت بكلماتهـا علـي، غـادرت لأبقـى وحيـداً فـي رفقـة السـأم، كتـاب هنـا ومجلـة هنـاك وفـي الزاويـة لعبـة الشـطرنج لعبتـي المفضلـة ولكنهـا تحتـاج إلـى لاعـب آخـر وهـو مـا لـم أفكـر فيـه عندمـا طلبـت هـذه اللعبـة مـن والـدي فـي وقـت كان بإمكانـي أن أطلـب أي شـيء آخـر، وفـي النهايـة اخـتـرت شـيئاً لا يسـتفاد منـه!.

دفعنـي الفضـول لأن أعـرف قصـة هـذا الوافـد الجديـد ولكنـه سـرعان مـا أخـرج مجلـة ليقـرأ وكأنهـا إشـارة منـه إلـى أن عالمـه الخـاص يكفيـه وحـده دون مشـاركة مـن أحـد، تناولـت سـماعات الأذن تسـبقها نظـرة خاطفـة إلـى فتحـة السـتارة بعـد أن غـاب عـن الغرفـة نـور الشـمس كإعـلان مبدئـي بنهايـة أحـداث اليـوم، كمـا لـو كان فـي الأفـق ذاكـرة تحـل بديـلاً لأشـعة كانـت تنشـر فـي المـكان نـوراً، مـن يتلقفهـا أشـبه بلاعـب خفـة يتـدرب علـى حيلـة إخفـاء، لا يحتـاج إلـى مـا يطمئنـه أنـه لا يتلصـص علـى الآخريـن كـي يشـعر بنفسـه.

هـذا الفتـى يبـدو وكأنـه لاعـب خفـة ماهـر، بينمـا كنـت أنـا فـي مكانـي

أتخيّـل حريقـاً والرجـل الهـرم فـي الجهـة المقابلـة يبـارز الجـن ويصرعهـم، وحكيـم ينظـر إلـى الشـمس بتأمـل فيسـأل: إن غابـت اليـوم هـل سـتأتي غـداً؟..

إذا كانـت الإجابـة يقينـاً بنعـم، فهـي ستسـتمرّ فـي الاحتـراق، ومـع هـذا حجمهـا الكبيـر لـن يصغـر!

وإذا جـاءت الإجابـة بـأن هـذا الشـيء طبيعـي، فمـن يصنـع فـي الأرض شموسـاً جديـدة لـن يحـرق الأرض، لـن تسـاهم التكنولوجيـا فـي حرقنا، فلنسـتمر فـي رحلـة العلـم والتطـور..

أفـكار تقتحـم رأسـي بينمـا أنـا غـارق فـي الاسـتماع إلـى معزوفـة الجميلـة النائمـة، هـذه الأسـطورة التراثيـة القديمـة لأميـرة نائمـة وقـع عليهـا سـحر مـن مشـعوذة عجـوز فيقـوم بإنقاذهـا الأميـر الجميـل الـذي وقـع حبهـا فـي قلبـه بمجـرد رؤيتهـا نائمـة فـي كـوخ الأقـزام السـبعة، كل البشـر صُنـاع أسـطورة، يصنعونهـا بطريقتهـم الخاصـة ولـو كان تشايكوفسـكي قانونيـاً لمـا كان أسـطورة فـي الموسـيقى.

الفصل الرابع

وصلت إلى مرحلة متقدمة من اليأس، فالجهل بوثائق صغيرة قد تحكي الوفرة في شبكة العلاقات، في كثافة التفاعل التي بدأت معي أولاً بالتحرر من نفوذ الأقارب وسلطتهم، وثانياً بالقبض على الاستقلالية الفردية. هذه البدايات في التشكل لم تأت بصورة طبيعية فكانت حالة عدم التركيز مسيطرة عليَّ حينها وما كان عليَّ فعله كل يوم هو نوع من الكفاح للكشف عن هذه الخفايا وقد جاءت في هذا اليوم بجرعة مكثفة لأحداث لم تكن تلقائية في تأمل الأشياء، فهناك موعد لعمل أشعة رنين مغناطيسي على الرأس وهذا الأمر يتطلب مني الخروج من هذا المكان، هيأت نفسي جيداً للخروج وما إن جاءت الممرضة حتى نزعت عني أجهزة تراقب أدق التفاصيل داخل جسمي، فحملت نفسي برشاقة نحو الكرسي المتحرك وبين يدي ملف طبي يزداد حجماً يوماً بعد يوم، غادرت الغرفة معها والرجل الهرم باق في حالة سكون على غير عادته، وفي الناحية الأخرى ما زال الوافد الجديد نائماً، الممرات الفسيحة في الخارج بدأت تضيق في عينيَّ شيئاً فشيئاً بسبب أعين الناس وهي تتبعني حتى أضحى كل شيء يوحي أكثر بالضيق وبالضجر،

عيـــون تتبعنـــي، وتلاحقني كي تتفحصني بشـــدة، تجاهلت تلـــك النظرات في البدايـــة فلم أســـتطع لتتحـــول نظراتي نحـــو الأرض تماماً، حتـــى وصلت إلى قســـم الأشـــعة، أثار صمتهم انتباهي وكأن لهـــم ملامح مشـــتركة معي فهناك وســـيلة أخـــرى للتخاطب بين العاملين هنـــاك، هزّ أحد الموظفين رأســـه فقام آخـــر بنقلي مباشـــرة، بالإشـــارة تتم الأمـــور دون كلام، وكأنها رموز تشـــير إلى معـــانٍ جاهـــزة، لغة جافة هي أشـــبه بعلامـــات لتوصيل معـــانٍ، حتى وجدت نفســـي في داخل فوهة وبصـــوت أســـمعه دون أن أتبين مصـــدره، صرخ في صاحـــب الصوت المجهول مـــراراً وتكراراً طالباً منـــي أن لا أتحرك وقد كنت في مكاني ســـاكناً فزادني الصـــوت ارتباكاً، شـــعرت بالحيرة وأنا أخاطب نفســـي: «ما الخطأ الـــذي فعلته»..

كتمـت أنفاسـي حتـى كـدت أنفجـر فجاءتنـي الاشـارة بالانتهـاء وبـدا لـي أن السـرير يتحـرك تلقائيـاً ومـا إن ثبـت حتـى أخـذت أنـزل علـى مضـض، إذ شـعرت ببعـض التقلـص فـي معدتـي، جاءنـي مـن كان يصـرخ فـي حامـلاً معـه الصلابـة فـي تعابيـر وجهـه لينقلنـي باتجـاه زاويـة خـارج الغرفـة ولكنهـا مـا زالـت فـي القسـم نفسـه علـى أن يأتـي آخـر وينقلنـي إلـى الغرفـة رقـم سـبعة وكنـت فـي مكانـي سـاكناً بضـع لحظـات، أحـدق إلـى صرامـة الأشـياء مـن حولـي، ليمضـي أكثـر مـن نصـف سـاعة وأنـا فـي مكانـي، فقتلنـي الانتظـار أكثـر، نظـرت إلـى سـاعة الحائـط، كانـت تشـير إلـى النصـف بعـد العاشـرة لأتذكـر تلـك الغرفـة ومـا فيهـا مـن حـالات ترقـب فقبلـت باستسـلام أن أكـون هنـا ضيفـاً فأقلـه هنـا حركـة لا تهـدأ ووجـوه داخلـة وخارجـة، هنـا

قد تُفهم الكيفية التي يسيطر بها التأمل على عوالم من أشخاص في مراقبة الفعل، لم أكن أعلم أن النظر إلى أي شيء هو في حقيقته مجرد إرسال أشعة من السأم تنعكس على صاحبها، فهذه الأحداث تبقيني على تفاعل بحاستي النظر والسمع لا بشيء آخر، وفي النهاية جاءني شاب وهو يلقي بكلماته صوب زميل يعمل معه ليقف إلى جانبي دون أن يُلقي علي التحية، ولم تكن عنده نية للتحرك بل وقف ببرودة ليكمل حواره حاملاً بيده كوباً من القهوة، عشر دقائق أخرى زادت من حدة سأمي فانفجر في داخلي فصل آخر عاصف، أحسست بأن لا قيمة لي هنا أبداً..

وبعد أن فرغ الموظف من قهوته أعادني مرة أخرى بعد أن اتفق مع زميله على أن يأتي معه، في الطريق شعرت أكثر بالاختناق، فلا يمكنني إلا أن أبقى هكذا مستسلماً لكلماتهما الفارغة ولم تكن تعني لي سوى شكل من أشكال التفاهة، لم أستطع الهرب من ثرثرتهما فوق رأسي، ضحكات عالية تأتي بشكل مصطنع تمنيت معها لو أنه كان بالإمكان سكب تلك القهوة الساخنة على رأسيهما الفارغين.

عدت أخيراً إلى الغرفة بعد أن كادت الحياة تلقي بثقلها عليَّ، لأجد سريري وقد تزين بباقة ورد وضعت على الطاولة إلى جانب السرير، قرأت الإهداء وفيها دعوات بالسلامة والشفاء العاجل..

كان لمنظر الورد شكل جميل ومنسق بطريقة لا توحي سوى بالإناقة والجمال، اسمي لم يكن موجوداً على الإهداء وصاحب هذه

الباقـة الجميلـة مـن الـورود اكتفـى باسـمه الأول ليحـول بتصرفـه هـذا الإثـارة إلـى إفسـاد فـي الرؤيـة ، فقـد أوصلنـي إلـى حيـث الطريـق المنحـرف بيـن مشـاعر صادقـة وأخـرى زائفـة بعـد أن تشـابهت علـيَّ الأسـماء، هـي أقـرب لأن تُعـرف بـي وتنطـق بهويتـي، أتعبنـي التركيـز فـي معرفـة هويـة مـن أرسـل إلـي بباقـة الـورد هـذه، ولكـنّ منظرهـا حـرك فـي بعضـاً مـن الشـعور بالتفـرد وإن كانـت حالتـي تائهـة كسـفينة توقفـت بالقـرب مـن مرفـأ أحـلام مُشـتتة، خامرنـي وجـه فأمضـي معـه فـي تأكيـد هويـة هـذا الشـخص، فتأخذنـي الذاكـرة نحـو صـورة لهـا طريقـان الأول شـعور بالألفـة والثقـة بمـا أملـك فتأتـي تصرفاتـي تلقائيـة، والثانـي باتجـاه الماضـي وصـورة الأحيـاء القديمـة بـكل حكاياتهـا عـن المـكان وعـن التسلسـل الزمنـي لذاكـرة إنسـان أُشـتق اسـمه مـن النسـيان فـلا تقـود صاحبهـا إلا نحـو التـردد والتخبـط.

كان الوافـد الجديـد مسـتيقظاً لكنّـه مسـتمر فـي صمتـه وكأن الأحـداث مـن حولـه لا تهمـه، مسـتغرقاً فـي تفكيـر عميـق، يداعـب أفـكاراً مسـتعملة مستنسـخة تحملهـا مجلـة تبـدو وكأنهـا مجلـة لأطفـال، لا أفـكار جديـدة فيهـا، لـم يتحـدث معـي قـطّ، وإن كانـت تعابيـر وجهـه تنـم عـن الكـدر الـذي أعانيـه ولربمـا كانـت نتيجـة مرضـه ولهـذا كنـت أشـفق عليـه وأبتسـم فـي وجهـه كل مـرة علـه ينطـق بشـيء، الرجـل المسـن لا يتـرك فرصـة إلا ويمـارس فيهـا طقوسـه ليبـدأ بالغنـاء لنكتشـف أن هنـاك ممرضـة قادمـة..

طلبـت منـي الممرضـة الانتظـار حتـى تنتهـي مـن ترتيـب السـرير فطلبـت منهـا بلغـة الإشـارة أن تُوقـف الكرسـي المتحـرك إلـى جانـب الرجـل المسـن..

قلت له مبتسماً وقد بدت ملامحه جافة قليلاً:

«هل تشعر بأنك أفضل حالاً؟»

- لا شيء أفضل من هذا اليوم، لقد زارك اليوم شاب ووضع باقة من الورود على الطاولة هناك.
- رأيتها، وكيف كان شكله؟
- أطول منك قليلا ووجهه نحيف وأسمر.
- لم أتعرف إلى الاسم.
- لم يكتب اسمه على الباقة؟
- كتب اسمه الأول فقط، ولم يكتب اسمي.
- قد تكون لمريض آخر.
- ربما، لم يرسل لي أحد وروداً من قبل.
- أتعلم أنه شعور جميل عندما تراها بين يديك وأنت هنا.
- بالفعل..
- هو الإحساس بالوجود يا ولدي..
- تبدو سعيداً اليوم؟
- لقد قرر الأطباء خروجي من هنا..
- جميل.
- وخروج من الحياة أيضاً.
- ألهذا الحد أحببت المكان؟
- لا.

- لِمَ هو خروج من الحياة إذن؟
- لم يتبق لي من العمر أكثر مما مضى.
- ولِمَ هذا التشاؤم، مما كنت تشتكي؟
- وهل يخبرونك بما تشتكي؟
- ولكنهم سمحوا لك بالخروج.
- تقصد الخروج من الحياة.
- لم أفهم لماذا تساورك هذه الأفكار..
- ليس لديّ وقت كثير لأعيشه، حالتي اكُتشفت اليوم، وقد اخبروني بكل شيء، هو ذلك المرض اللعين الذي لا ينفع معه سوى علاج تدعيمي وبقائي هنا لن يغير من الأمر شيئاً، إنها مسألة وقت وستنتهي رحلتي.

لم أستطع في هذه اللحظة أن أفكك ما يستعصي علي فهمه، إذ شعرت بالكلمات تغص في حنجرتي، أصابتني الحيرة وأنا أبحث عن كلمة مناسبة كي أرد بها على هذا الرجل المسن، تكلمت فتلعثمت دون أن أرى تغيراً أو حتى تأثراً من الرجل المسن فنظراته هي نفسها النظرات، لم تتغير، وكأنه لم يسمع من الأطباء خبراً مزعجاً كالذي سمع..

- الأعمار بيد الله يا رجل.
- ونعم بالله..
- هل ضايقك «الخبر»؟

- لا، لـم يكـن مزعجـاً.. الحيـاة يـا بنـي كرجـل تقـدم نحونـا، قاطعـاً نصـف الطريـق فـي اتجاهنـا، لكنـه تابـع مسـيرته وحـده!
- الحمد الله على كل حال.
- كـم تبقَّـى مـن الوقـت لأعيـش، سـنة، شـهر، سـاعة.. سـاعتان فلـمَ أحـرم نفسـي مـن متعـة الحيـاة فـي الحيـاة..
- ألهذا كنت تُغنّي؟
- لقـد تحـررت مـن كل شـيء فالحيـاة لا تعنـي لـي شـيئاً علـى الإطـلاق، وميـزة مرضـي أنّـه لا ينقـل العـدوى إلـى أحـد.
- المهم أن تسترد صحّتك.

كانـت جملتـي الأخيـرة بمثابـة السـهم القاتـل، فـلا مجـال للشـفاء مـن هـذا المـرض القاتـل، لا أشـك أبـداً فـي أن الحـزنَ آتٍ لكـن هـذا الرجـل استمر ينظـر إلـيَّ بطريقـة لا توحـي وكأن زلازل الأرض كلهـا تسـكُن فـي محارتـه، ولا بوجـه مُمتقـع حزيـن ملـيء بالألغـاز، هـذا الرجـل لـم تلـح فيـه إشـارة إلـى الفهـم، قلـت لـه بعـد أن غـاب رده علـى جملتـي الأخيـرة: «ومـاذا سـتفعل الآن؟»

-آه! ماذا أفعل الآن؟

وفـي هـذه الأثنـاء انفتـح البـاب بهـدوء ودخلـت الممرّضـة مـن جديـد ليـرد بصـوت غايـة فـي الحماسـة «أغنّـي.. سـلام عليهـا مـا.. أحبـت سـلامنا»

- «سلامنا»..

مشـاعر هـذا الشـيخ لا تتغيـر برغـم عمـره وتدهـور صحتـه لـم يـرَه أحـد

غاضباً خلال المدة التي قضاها هنا في هذه الغرفة، ودعته بعد أن فشلت في مهمتي وهي الاهتداء إلى الكلمات التي تعبر عما أشعر به بدقة..

كنا في الغرفة معاً ومعنا طرف ثالث امتطى صهوةَ السأم مبكراً، لا يتحدث ولا يشارك الآخرين وكأنه يحمل هماً يتجاوز به هموم البشر..

وبينما كانت الممرّضة ترتب الوسادات بغضب، وتشد الملاءات بعنف، تفعل هذا وكأنها في معركة مع الوقت، كما كانت معركتي مع الحياة، الكل هنا يسارع لتطبيق ما تم تدوينه على الورق، كتيبة من الأطباء تأتي، هم الأكثر فهماً من غيرهم ووجود الممرضات أشبه بخطابات السياسي المعسولة، هذه المجموعة وحدها هي من تقرر وهي من تفعل ليكون التطبيق على المرضى، فهذا علاج أُوقف بعد يومين لنتائجه السيئة وذاك علاج يؤثر في الكبد، وأنا أراقب من بعيد ففي مثل هذه الحالات يبقى كل من كان بمثل سني أقل من مستوى هذا الطاقم العبقري عندما يعمل ويسابق الوقت، كل ما أستطيع توفيره في هذه المعركة هو أرض لهذه المعركة وانتظار النتيجة ولا شيء غير ذلك..

عدت إلى حيث حدودي وقد انتهت الممرضة تماماً من عملها ولكنها كانت تحمل حقنة في يدها وهذا يعني سحب عينة أخرى وقد جاءت في وقت على غير المعتاد، فوجدتها فرصة في الغوص أكثر في الذات وتحسين لغتي الانجليزية ومن أجل الهرب أيضاً من منظر الحقنة المخيف، لتخرج كلماتي بحماسة مفتعلة:

«هاو ار يو».

لترد علي بصوت منفعل:

«ام نوت ان قود مود توداي»

لـم أفهـم مـا كانـت تعنيـه بكلامهـا ولكنـي أعـرف جملـة سـحرية تنقذنـي فـي مثـل هـذه المواقـف:

«سوري، بت اي ديد نوت اندرستاند وات يو ار سيد»

ردت بصوت أكثر انفعالية:

«ويل، جاست مايند يور اون بزنس ذين! ستوب ويستنق ماي تايم»

توقـف لسـاني عـن الـكلام فتقوقعـت أكثـر بيـن المـلاءات، لـم أفهـم شـيئاً ممـا قالتـه ولكـن تعابيـر وجههـا أخافتنـي، بـدت منزعجـة وملامـح وجههـا تكشـفها، لا يجـوز لـي أن أسـتخدم جملتـي السـحرية غيـر مـرة، ابتسـمت لهـا بتصنـع حتـى خرجـت حاملـة معهـا وجههـا الجـاف وهـي تجـر عربـة الأجهـزة الطبيـة، لأبقـى كمـا أنـا فـي هـذا المـكان وكأنهـا زنزانـة لا تحكـي إلا عـن علاقـة السـجان بالسـجين..

تأكـد جهلـي فـي تعلـم هـذه اللغـة فقـررت أن لا أتفـوه بـأي كلمـة انجليزيـة مهمـا كلفنـي الأمـر حتـى لا أقـع فـي الموقـف نفسـه مـرة أخـرى، وعندمـا يتحدثـون معـي بهـذه اللغـة فإننـي سـأجيب بإيمـاءة مـن رأسـي وكفـى..

لـم تتوقـف الأحـداث عنـد هـذا الحـد فمـا إن خرجـت الممرضـة حتـى ترجـم لـي الوافـد الجديـد ولأول مـرة يتحـدث فيهـا معنـا بمـا كانـت تقصـده الممرضـة بكلماتهـا، واسـتمر الرجـل الهـرم فـي فعـل المراقبـة

بصمــت منشــغلاً بهمــه، وقــد كانــت عينــاه لا تكفــان عــن الحركــة لالتقــاط الوجـوه، ولاصطيـاد الكلمـات علـى الرغـم مـن حالتـه الصحيـة، يـرى فـي الحيـاة مـا هـو ظاهـر، وأنـا غـارق تمامـاً فـي تفاصيـل ثانويـة، قالـوا لـي زيفـاً إن فـي التقاطهـا أساسـاً يقـوم عليـه كل نجـاح.

فــي مكانــي، يلتهمنــي اليــأس بحــذر، فلــم تكــن حواراتــي عاديــة أبــداً وخصوصــاً تداولتــه مــع الرجــل المســن، ويكفــي أن موضوعــه هــو المــوت، وهنـا لا يُنظـر إلـيَّ إلا كإنسـان مريـض، فمـن أيـن للرجـل المسـن بهـذه الـروح المتجـددة، ومـا هـذا المقـدار الهائـل الـذي يملكـه مـن التفـاؤل، يبـدو أنهـا شـيء مـن صلابـة الماضـي، فمـن كانـوا فـي مثـل سـنه لا بـد أنهـم تنقلـوا مـع القبيلـة فـي الصحـارى، وعانـوا الجـوع وقسـاوة الجـدب فـي رحلـة البحـث عـن الـكلأ.

عــدة تســاؤلات لــم تمنعهــا محــاولات الرجــل المســن ألا يظهــر أمامــي اضطرابـه، كنـت أفكـر كثيـراً فـي الأجوبـة ومنهـا مـا كنـت أسـمعه كثيـراً مـن المقربيـن لـي: إن مـن فقـد الصحـة فقـد كل شـيء ومـن ملكهـا ملـك كل شـيء، وكأن أغلـب المقـولات تتحطـم علـى يـد هـذا الرجـل المسـن، فمـع تقدمـه فـي العمـر أصبـح أكثـر إدراكاً لنفسـه وأكثـر إحساسـاً بالرضـا حتـى وهـو يتكلـم عـن المـوت، مـا مدى حقيقة أن البشـر يعشـقون الحريـة ويطلبون العدل والمسـاواة؟

أيـن العـدل فـي حـق هـذا الرجـل الهـرم فـلا أحـد يـزوره، وحتمـاً إن لـه أبنـاء وزوجـة وعائلـة وقبيلـة ومجموعـة مـن الأصدقـاء، أيـن هـم؟..

ومـع هـذا هـو يمـلأ الآفـاق سـعادة ويحمـل بداخلـه تعاسـة الإنسـان

فـي كونـه وحيـداً، كانـت كلماتـه الأخيـرة ثقيلـة علـيَّ كرطوبـة صيـف فـي مدينـة تقـع علـى السـاحل.

جـاءت مصابيـح الليـل وكأنهـا فـي هـذا اليـوم متأخـرة، فحلـت مراكبهـا المخمليـة مـن أقاصـي الغيـاب تجـاذب السـكون وكأن الأفـق دفنهـا فلـم يبـرز منهـا بيـن الغيـوم سـوى القليـل، حالـة جديـدة مـن حـالات التأمـل هـي فـي هـذا اليـوم أشـبه بمفتـاح الشـعور بعـد أن تمكنـت منـي لفحـة الكآبـة ليخنقنـي الصمـت فـي مطـاردة عنيفـة لصـور تأتـي ولا تأتـي مـن الذاكـرة ومـا مـن سـبيل إلـى الرجـوع حتـى وإن كان إلـى ذلـك الطريـق الوحيـد فـي تلمـس ماضـي الحاضـر..

إن فكـرت بطريقـة حاضـر الحاضـر فهـو فـي حـدود رؤيـة، ومـن كان فـي مثـل سـني تُحـرم عليـه الرؤيـة ولا تُقبـل لـه ذات بعـد أن غـاص فـي مسـاحات مـن السـعي المفـرط لاحتـرام المسـافة الفاصلـة بيـن الأنـا الصرفـة وغايتهـا، كـي لا يثـور علـى الوقـت فتغتالـه سـلطة الأقـارب ومـن هـم أكبـر منـه سـناً، إن فكـرت بطريقـة حاضـر المسـتقبل فأنـا فـي حـدود توقـع وهـو مـا لا أجيـده هنـا، لا يمكـن أن أكـون فـي لحظـة ذلـك العالِـم بخفايـا الاسـتقراء كفكـرة، ولا بالنتيجـة حقيقـة مـن بعـد تجربـة، لكنّـي وعلـى صغـر سـني تفوقـت علـى عـدد كبيـر مـن النـاس ممـن يملكـون سـاعات يدويـة، فـلا أحـد منهـم يمكنـه إدراك الوقـت بالحـواس مثلـي..

أخاطب ذاتي كمن يريد أن يحميها من نفسه:

« كيف لا يشعرون بما أشعر به؟»

لـم أكـن حينئـذ أعلـم بحقيقـة الواقـع فـي رفـض فكـرة أن الـذات تتفلّـت

مـن موضـوع فتجـد نفسـها مدفوعـة نحـو الشـعور بالتوجيـه القسـري، وهـذا مـا كنـت أفعلـه هنـا..

هـي حالـة أشـبه بتحسـس الزمـان فـي حضـرة المـكان، معيـاري كان الهـدوء والصخـب، مـع ذات تمثلهـا الأنـا ونافـذة صغيـرة تمثـل لـي غايـة كونهـا تحـدد لـي مـا أريـد استكشـافه، وفـي هـذه اللحظـة، بقـي وقـتٌ طويـلٌ كـي تسـطع شـمس الحيـاة، فأحسسـت بشـعور يعاكـس هـذا الوصـف، كمـا لـو لـم يكـن بريـق أمـل سـيدخل علـيَّ مـن تلـك النافـذة، فيتحسـس واقـع الأشـياء بطريقـة مختلفـة، أعلـم أنـه سـيحيط بـكل المتشـابهات فيصبغهـا بلـون مختلـف لكنهـا فـي النهايـة ستنحسـر شـيئاً فشـيئاً لتصبـح أضيـق مـن ظـل رمـح مـع نهايـة كل يـوم.

ثمـة حكايـات كثيـرة تبـدو وكأنهـا شـال عريـض قديـم الطـراز لا يمكـن لهـا أن تُكتـب بمعـزل عـن الواقـع وهـو مـا كنـت أسـأل عنـه لأجـد بعدئـذٍ التعبيـر المناسـب فـي محـاورة الواقـع كخلاصـة مصفـاة مـن بعـض تفاصيلهـا الثانويـة تكمـن فـي معرفـة الحقيقـة فـي أن هنـاك بصيصـاً مـن أمـل يسـتوعب مختلـف مظاهـر الوجـود. وحتـى الموسـيقى التـي أسـمعها باتـت منحوتـة فـي وجـوه تبـدو لـي صلبـة جامـدة وكأنهـا «ملـك المـوت»، كأنّهـا أعيـن تراقـب تأتـي مؤطـرة بإطـار مُقنّـع، تبـرز ملامحهـا المخيفـة أكثـر كلمـا اشـتد الصـوت وحتـى تنصـرف، لتوغـل الأشـياء مـن حولـي بيـن عطـف وقسـوة مطوَّقـة عنقـي بإجابـات وبتسـاؤلات كلّ مـا كان الصـوت خافتـاً وأجـشّ، كغمغمـة مختصـرة لا تُسـمع ولا يُفهـم لهـا معنـى، حتـى وصلـت بـي الحـال وقـد فككـت قيـود المعرفـة ومزّقـت غلالهـا بتسـاؤل:

كيف لي أن أفهم الموت؟

شعرت برغبة في المعرفة هنا مع حالتي الحماسة والكآبة، وبرغبة حقيقية بأن أصدم رأسي بالجدار كي أعيد إليه شيئاً من الواقع، فلا أشعر إلا وكأن تياراً يكهربني فيرمي بي في حفرة كبيرة قذرة بعين كل من احتار في ما عليه أن يختار، فعاشق أرض السهول المترامية وأرض القمح والصوف، يُسر بأي أرض تهب عليها رياح فيستقبلها بلغته الأولية فلا تكون أعجب الأشياء سوى مساحات لا يمكن له تذكرها، فيظل صامتاً، متأملاً لغة الأشياء من حوله لعلها تحمل لغة ثانوية ولكنّها هي أيضاً تلاشت في أمكنة بعيدة، ليبقى الظلام سيد هذا المكان وحارسه، ليل يأتي بالأوقات التي لا تُسمع فيها أصوات على الإطلاق..

أحداث اليوم انتهت وهي في المستوى نفسه من الألم مع حالة انتظار النوم فكان الأرق يرد بحدة وبصوت أجش أنه في هذه الليلة اشد، عقدة أخرى ففي هذا الوقت لا أحتاج إلى النوم بقدر حاجتي إلى التفكير بعمق في هذا التسلسل من المواقف والأحداث، فمن يهرب من تساؤلات تكشفه تصرفات، وقد يلتهمه اليأس بحذر، بجواري رجل مسن يحتضر، وسلطة أعلى لمن تقوم بعملها، فتنتصر، وما بينهم، وافد جديد في مكانه مستقر، وفي الخارج عالم خطر، عالم مسكون بحبّ العظمة، لا يجيد قراءة القهر..

الفصل الخامس

عانقت حالة السأم مبكراً وما من شيء يحملني مجدداً على التأفف، مع أنه في الفترة الأخيرة زاد عدد الزوار قليلاً عما كان في السابق، وهو ما أعطى فسحة من الأمل، يبدو أن الأخبار بدأت تنتشر هنا وهناك، وجوه لم أعهدها من قبل تتحدث معي مباشرة، وبدا الاهتمام بي واضحاً حتى مع أدق التفاصيل الحياتية، مسار آخر مختلف..

قد أكون في سن لا يمكن لي أن أعرف أن لهذه المشاعر أهمية، بل كنت في مرحلة أسوأ فلم أكن أعلم من أين تصدر؟

الذكاء العاطفي لا يقوم بشيء سوى بسرد الحكايات كذاكرة سيدة عجوز، وما هو انعكاس لحكاياتها إنما هو نماذج صامتة تستنطق الحجر بحثاً عن مادة محببة مع حرية التجوال في خبايا موتها الرحيم، كذاكرة هذه السيدة العجوز أتنقل وأنا في مكاني بين محطات، فمرة أشعر بحقيقة أنه لم تكن تلك الفاعلية الذاتية تملك القدرة على إحداث آثار مرغوب فيها، ومرة يحدث أن أغيب عمّا أنا عالق به فتجتاحني المثابرة في بذل جهد ذهني، شيئاً فشيئاً حتى سرني أن أكون في الغرفة رقم

سبعة فقد أقبل عليَّ بعض الرفاق، وباتت الوفرة في عوالم الأشخاص في وجوه تبتسم لي في أحيان وتمارس صمتها في أحيان أخرى، سرني أن أكون مع طاقم تمريض شرق آسيوي وعربي، يستطيع بحكم المهنة أن يميّز طريقه مع من أنهكه المرض، وسرني أن أكون مقيداً بحزمة من الأجهزة الطبية تتلقفها لغة جديدة تنطق بها أفواه جافة لمجموعة من الفنيين المهرة، هكذا بدا لي الأمر تحت تأثير الأدوية المخدرة، لأقضي وقتي كله وكأنه مسار متعرج دون ان يكون لي في الساحة دليل، بدا وكأن الفرد فينا يساعد الآخر في رحلة شق الطريق إلى حياة إنسانيّة والتحرر من استحواذ الجسد على الحرية، وفي المساء ينزوي كل واحد فينا في مكانه متوسداً خبايا نفس، وليبتعد بأسرارها الدفينة إلى عالم لا مرئي، إلى حيث البحر الواسع لا النهر كي يتنقل مع خيال لا يعرف سوى القلة في الأشياء.

حاولت مراراً أن أستغل ما جرى لي بأن أطلب من أبي المتسامح ولأعلن له أولى رغباتي ولم أكن أعلم بأن أبي كان يراوغني بذكاء، لا يريد أن يحقق من مطالبي شيئاً ولكنه مستمر في تقديم الوعود لي فحملت حلمي معي كطفل صغير..

صورة لا أستطيع نسيانها..

كنت أحملها معي في كل مكان وزمان، أضعها إلى جانبي وكأنها علبة دواء، كانت هي رغبتي الحقيقية في تملك شيء ولا أعلم لماذا

كانـت هـذه الرغبـة شـديدة فـي نفسـي، لقـد رأى الجميـع فـي عينـي تلـك الرغبـة بعـد أن تكلمـت بإسـهاب عـن مواصفاتهـا وعـن هيكلهـا الداخلـي والخارجـي، ولا شـيء فـي الحيـاة ألـذّ مـن طعـم الرغبـة..

«أبي سيشتري هذه السيارة لي»

أقولها لأشباح لا وجود لهم..

ومـع الأيـام تـزداد آلامـي، ومـع الأوهـام تسـقط أحلامـي، ومـا أعنفُهـا، فملامـح الأطبـاء باتـت هـي نفسـها مرتبكـة، يأتـون إلـيَّ بحركـة أسـرع وبتفاعـل أكبـر، وكأن فـي الأفـق حالـة ترقـب ولطالمـا أرعبتنـي، فقـد كانـوا أكثـر عـدداً يقضـون وقتـاً أطـول وهـم يتناقشـون حولـي..

كان أحدهـم يأتـي بملامـح صلبـة، طولـه فـارع وإن كان جـل مـا يفعلـه أقـرب إلـى السـخرية، فهـو لا يقـوم إلا بفعـل واحـد وهـو أن يرسـم فـي جسـدي خطـاً، ثـم يخـرج ليأتـي مـن الغـد ويرسـم خطـاً آخـراً، وأنـا أنظـر إليـه بصمـت فيقابلنـي بوجـه غـارق فـي التفكيـر وكأنـه شـخص ينطـوي علـى غِـلّ فانطلقـت فـي نفسـي فكـرة أنـه حتمـاً يبحـث عـن شـيء. هـذا العمـلاق المتأمـل يأتـي كل يـوم ليتابـع عملـه دون أن ينتظـر تعليقـاً مـن احـد حتـى تحـول جسـدي المنهـك إلـى خطـوط تعلوهـا خطـوط، حتـى ملـه ومـل أفعالـه أبـي ليطـرده فـي موقـف لا ينسـى، وكـردة فعـل لحالتـي وقـد بانـت انتكاسـتها، كان المشـهد محرجـاً بالنسـبة إلـى الطبيـب وإلـى مـن كان حاضـراً ليخـرج غاضبـاً ومعـه مجموعـة الأقـلام ولـم أنـس نظراتـه الحارقـة وكأن الآخريـن هنـا قـد أهانـوا العلـم.

خرج وكأنه يقول إنه من غير اللائق، والجائز أن تتوزع المعرفة كما كان في عصور متأخرة، الكتب لطبقة النبلاء ولرجال الدين، أما العامة فلا، ستوقع بهم هذه الكتب في شر مُحتمل إن هم حصلوا على معرفة.

حمل قلمه ورحل، وبقيت متأملاً أرى بعضاً من القرارات التي ترسم مصيري ما تزال عالقة في الهواء، حمل قلمه ورحل وقد أصبح جسدي المتهالك لوحة لطالب في المرحلة المتوسطة تُرسم فيها الدلالات بلون واحد..

حين وقعت عيناي على من تبقى منهم رأيت نظرة هذا العملاق الغاضب نفسها في البقية ولم تكن حركاتهم الواثقة وهم يتناقشون دلالة على أنهم يفعلون شيئاً فما زالت غزوات الحمى تهاجمني من وقت إلى آخر وقد مر على حالتي أسبوعان دون تغيير..

بدأت حالتي الصحية تأخذ منحًى خطراً وقد كان أبي في قمة ألمه وهو ينظر إليَّ حزيناً متألماً وكان الأطباء دوماً على خلاف دائم في تفسير ما يجري وقد طالت بهم الأيام دون جدوى، وكانوا على اختلاف في كيفية العلاج حتى انتهت حالتي بغيبوبة..

«دخل الآن الفتى الصغير في غيبوبة، فغاب عن نظره كل شيء، لا يرى أحداً ولا يتكلم مع احد، ليتحرك العالم من حوله دون أن يشعر بشيء، هي حالة اللاشعور بحقيقتها المرة..»

غرق في حالة إغماء، سبات عميق وليس له شيء من عوالم

الأشياء سوى الظلمة والعدم، غائب والعالم يتحرك بدونه، لا يرى أحداً ولا يسمع صوتاً ولا يتكلّم، لا يلتقي أرواحاً أخرى أكانت طيّبة أم شريرة.

اللامتوقع قد يعني الهروب من الوقائع واللجوء إلى الأمان في ما هو وراء الخوف عله يأتي بأبعاد أخرى مسربلة بالغموض، ومن يملك القدرة على ملاحقة سنواته الغارقة في أعماق النسيان، يستطع شرح ما لم يُشرح من قبل بطريقته الحالمة، هكذا وبكل بساطة أُعلن موت جسد ما زال يتنفس الحياة!

غرق في العتمة وكأنه يسمع أحدهم وهو يقول وقد بدا صوته بعيداً وكتوماً، كأنه مغطى بلحاف: «إنه يتأرجح على حبل الحياة».. فأحس في كل الوجوه أنهم أيقنوا أنها نهايته وحتماً سيقع..

أماطت الحياة اللثام عن وجهها من جديد وراحت تناديه باسمه حتى سقطت في الأرض صورة، يراها قطعة من ورق لكن دفئها يملأُه الامتنان لماض قريب، حيث صلابة المسافرين وقوت الجائعين، فبَعثتْ قشعريرة في داخله لتفور نشوة لرؤية انحناءات الضوء، ولتفيؤ الظلال في الخارج وهي تميل بخفة متناهية، ولو قليلاً..

من يعرف الفتى جيداً يعرف أن هذا المكان لا يناسبه، فقد أسقطت كل أفكاره عن الوجود، وليس في الأمر مبالغة ما إذا نطق وقال: «هذا الجسد استحوذ تماماً على حريتي»..

جسد متهالك على سرير ابيض لا يُسمع منه شيء ولا هو يسمع

مـن الآخريـن، همهمـة الأصـوات مـن حولـه يسـمعها كل مـن يأتـي لزيارتـه مـع صـوت حفيـف الأوراق بيـن يـدي الممرضـة، اقـل مـن دقيقـة كانـت هـي الوقـت المسـموح لمـن يريـد المـرور ويلقـي بنظـرة أخيـرة علـى هـذا الجسـد قبـل الرحيـل بحسـب قوانيـن المستشـفى.

«دخـل الفتـى فـي غيبوبـة وكأن حالـة مـن الـلا شـعور قـد انطلقـت تـواً مـن ذات صغيـرة لتضعـه فـي صـدام دائـم مـع كل المحـاولات اليائسـة وهـي لا تبحـث إلا عـن اسـترداد بعـض منهـا حتـى وجدهـا فـي النهايـة وقـد ذابـت فـي علبـة ألـوان تفنـن برسـمها مجموعـة مـن الرفـاق، قبـل أن يغـرق فـي غيبوبتـه قسـراً، عزلـة لـم تكـن باختيـاره، وإن كان فـي العالـم الواقعـي مجموعـة أخـرى مـن الرفـاق قـد طلبـت رؤيتـه بإرادتهـا، هـذه الغيبوبـة لذيـذة جـداً، فـلا علـم له بـأي قلـب وعينيـن كانـت تحيـة الـروح للمشـرحة لكنّهـا بالتأكيـد أشـبه بتجربـة وجوديـة تبـدل حيـاة مـن ينخـرط فيهـا، وكل مـا كان يشـعر بـه قبـلاً أنـه قـد أتعبـه السـرير الأبيـض كثيـراً حتـى بقـي وحـده مـن يتنفـس فـي هـذه الغرفـة وبقيـة الأشـياء جامـدة صامتـة لا حيـاة فيهـا.

أفـكار المرضـى كالروائـح اللاذعـة غيـر قابلـة للنطـق بهـا وفـي الـكلام دلالـة علـى شـيء مـا، شـيء مـن خاصيـة الإنسـان مفقـود، أفـكار تقتحـم رأس المريـض فـي وحدتـه وليتهـا كانـت لـه قطبـاً موجبـاً يعالـج سـلبيته، بـل علـى العكـس مـن ذلـك ومـع هـذا يحـاول مـن أصابـه سـهم المـرض عبثـاً البحـث عـن حيلـة لـه فـي الـكلام علـه يُشـعر الآخريـن بوجـوده فـلا يجـد سـوى هذيـان

المراقبـة فيشـتكي عندئـذ مـن أن الجميـع يعـرف كل أفـكاره، أصـوات فـي الهذيـان لكنّهـا صـوت ضميـر.

بـدأت تـواً رحلـة جديـدة فـي التحـرر مـن هـذا الهذيـان، فأنـا فـي عزلـة لا تقبـل حقيقـة أن جسـدي أنـا مـن حيـث أتكلـم هـو جسـدك الخـاص بـك والـذي أخاطبـه، لا أنـا ولا حتـى مـن كان فـي مثـل حالتـي يعانـي شـتى الأسـقام فتمنحـه الأدويـة مسـاحات مـن التضـاد بيـن شـعور بغثيـان وبيـن نشـوة أخـرى فـي تغييـب ملكـة الإدراك فـلا نخاطـب الذاكـرة بحثـاً عـن كلمـات بـل هـي فـي حـدود الصـورة فـي بدايـة تشـكل جديـد للذاكـرة. صـور لأغطيـة بيضـاء تنتظـر أجسـاداً لا تتحـرك وقـد نُزعـت منهـا «حريـة الـذات»، كل غطـاء يحمـل كميـة مـن القلـق، وصـوراً لملابـس بيضـاء زاهيـة لكنّهـا فـي حيـرة دائمـة حيـال تلمـس القـدرة علـى التناغـم مـع أولئـك الذيـن يتمتعـون بخصـال هـي الأقـرب إلـى النرجسـية وهذيـان شـد الانتبـاه، يسـتنطقون لغـة الأشـياء فـي تجاهـل متعمـد لصورهـم العاريـة خلـف تلـك الأقنعـة، حالـة اللاشـعور هـذه حقيقيـة فهـي فعـل خـاص بمـن بقـي مقيـداً فـي مكانـه دون حـراك ليمضـي حامـلاً معـه ذاكـرة فـي غيـر الطريـق التـي سـار عليهـا منـذ أن كان طفـلاً، ولتنتهـي بـه كل الحكايـات أن يبقـى تابعـاً لخيـوط الحيـاة المتقلبـة، يحملهـا معـه فتثقـل كاهلـه دون أن يشـعر بـه احـد حتـى أصبـح العالـم خانقـاً ليسـقط فـي حفـرة عميقـة معتمـة فيهـا مـن الغمـوض مـا هـو أكبـر مـن مجـرد وجـود، كل هـذه الأحـداث تسـببت بإحـداث تشـويش لغيـاب الأنـا وظهـور النحـن مـن حـول هـذا الإنسـان ليتقـرر مصيـره»..

هـذا الفتـى أعُطـي اسـماً منـذ ولادتـه فعُـرف بـه أمـام الجميـع، وهـو «عسـاف» لا احـد فـي القريـة يحمـل هـذا الاسـم وقـد كان لاسـمه حكايـة أخبـروه بهـا وهـي أن والـده كان يـزور المدينـة كثيـراً وكان يلتقـي صديقـاً لـه تشـارك معـه فـي التجـارة دون أن يخـون هـذا الصاحـب الشـراكة مـع حـالات الغيـاب المتكـررة مـن والـد هـذا الصبـي بحكـم التزامـه الدائـم بالمـكان فـي القريـة، بـدا صغيـراً فـي تجارتـه وسـرعان مـا تحقـق لـه مـا يريـد، ومـا إن جـاء عسـاف حتـى أعطـاه الأب اسـماً يحمـل الاسـم نفسـه للرجـل الأميـن، ولـم يكـن لـه خيـار، ليحملـه بـدوره وعلـى رأسـه مطرقـة الأمانـة.

الطفـل الـذي تشـكل بـه عسـاف، كان هادئـاً مـع الغيـر غاضبـاً علـى نفسـه، يسـتهويه الغضـب بصمـت بقـدر مـا ينسـيه نفسـه كشـخص أميـن، يسـتحق الثقـة، كان والـده مـن كبـار رجـال القريـة، يحترمـه أهـل القريـة وليـس كبيـر القـوم مـن يحمـل الحقـد، فـورث منـه علـى الرغـم مـن انشـغاله، بعـض الصفـات التـي ورثهـا الأب بـدوره عـن أجـداده، تقاليـد يُعمـل بهـا وتـدار بهـا القضايـا فـي القريـة وتحـاك حولهـا المسـائل الاجتماعيـة . يشـبه أبـاه وقـد لا يشـبهه، فقـد كان الأب فرحـاً بالحيـاة فقـط عندمـا يجتمـع بأهـل القريـة، يطلـق ضحكاتـه العاليـة والمتكـررة، ليعـود إلـى جديتـه فـي العمـل، كان الأب يجـد فـي عملـه لتوفيـر مسـاحة كريمـة للعيـش لبقيـة العائلـة، ولكـن عسـاف ورث منـه ومـن المجتمـع صفـات مكتسـبة، فقـد تعلـم ممـن كانـوا حولـه كثيـراً مـن الصلابـة والقسـوة، وعـاش طفولـة بيـن أشـجار النخيـل وحقـول الـذرة وبيوتهـا الطينيـة، وقـد كان فنـاء دارهـم كبيـراً جـدّاً، وفيهـا

تنويعة من الأشجار، يرى الجبال شامخة من فناء الدار وكأنها الشموخ في أهلها مع البساطة في المنظر، يقفون في العراء القاسي، الملتهب ولا يطلبون شيئاً للرفاهية ولا تشدهم مهازل الاستمتاع بعيوب الآخرين ولا حتى بذكر مساوئهم أمام الجميع للتندر والتنكر، لم يكن دور القائد الموجه والمعلم محدوداً في أشخاص لهم كل الاحترام من البقية، الجميع هنا يقوم بهذا الدور في تناغم مستمر لا يقطعه سوء تصرف من أحد أو جهل، يفعلون كل هذا وهم في نظر الآخرين مجموعة من الأميين.

شكل الخماسي المكون من خالد وسعد ومحمد وصالح وسيف مجموعة الأصدقاء في القرية، كانوا يتكلمون بانسيابية وطيبة ابن القرية، ولطالما جاءت إجاباتهم مختصرة عن كل تساؤل وتبدو عليها الغرابة عندما يتلقفها الأكبر سناً، وفي أحيان مضحكة دليل على سرعة البديهة التي توقع عساف في حرج وتضعه في خانة الانتباه عندما يُطلب منه شيء وهم يلعبون معاً منذ أن كانوا أطفالاً..

خالد، المتذمر من كل شيء والرافض لكل شيء، يثير نوعاً من الاشمئزاز وكثيراً من المتاعب، يصغر عساف حجماً لكنّه كان مميزا بشعره الذي يميل إلى اللون الأشقر وبتينك العينين الجاحظتين الواسعتين مما يوقعه في سخرية الأولاد، يقولون إن عائلة قدمت من مكان بعيد واستقرت في هذا المكان ولا يعرف أحد كيف شاءت الأقدار أن تصل بها إلى هذا المكان البعيد، تزوج والده من هذه العائلة

فـكان خالـد الابـن امتـداداً لسـلالة هـذه العائلـة، حمـل جينـات هـذه العائلـة وحمـل معهـا أيضـاً سـخرية الأولاد..

سـعد، والـذي يحمـل جينـات صحـراء الربـع الخالـي الأصليـة، وعلـى عكـس البيئـة الصحراويـة كانـت شـخصيته الصامتـة الهادئـة وكأن مسـحة مـن الحـزن تطـوف علـى قسـمات وجهـه التـي تـرى فيهـا عندمـا يبتسـم أسـنان بهـا حفـر، يميـل وجهـه القمحـي إلـى السـواد، وفـي أُمسـيات الصيـف تحـرق الحجـارة قدميـه الحافيتيـن فـلا يهتـم، يأتـي ويذهـب دون أن يشـعر بـه أحـد، يجتهـد بـأن يكـون فعـالاً مـع هـذه المجموعـة، وفـي كل مـرة يفشـل، دارهـم كانـت ملاصقـة لـدار عسـاف، وهنـا ارتبـط بـه عسـاف كثنائـي فلـم تفارقـه مسـحة الحـزن المفعمـة بالاستسـلام.

محمـد، الولـد النحيـف بوجهـه الأسـمر، أجعـد الشـعر، يطـل بشـكله المخيـف مـع أنـه يتبـع ابـن عمـه صالـح أينمـا ذهـب، وكانـا فـي وضـع يعطـي الأفضليـة بعـد أن كوّنـا فريقـاً معـاً، صالـح الـذي لا يفتـح فمـه إلا ويقـول إن عنـده سـرّاً، أسـراره الصغيـرة باتـت علـى كل لسـان.

سـيف، لا يجـوز وصفـه فـي كلمـات، حـاول عسـاف كثيـراً تحجيمـه لكنـه بقـى كبيـراً فـي اعيـن الآخريـن، ولا يعـرف عسـاف هـذا السـر فـي تفـوق سـيف الدائـم، فمـا بيـن الصديـق والرفيـق كان سـيف قابعـاً فـي مخيلـة عسـاف ولطالمـا أتعبـه ثنـاء النـاس عليـه، كان حـاداً كالسـيف يقطـع علـى عسـاف كل تواصـل مـن شـأنه ان يُحـدث نشـوة ولـو قليلـة فـي تقديـر الـذات، ولـم تتشـكل هـذه الصـورة عنـه فـي مخيلتـه صدفـة وإنمـا بعـد رحلـة مـن العمـر معـه، كان

عســـاف يســـمع الثناء عليه كثيراً حتى صار عـــدواً له، مع أن تصرفات ســـيف مع عســـاف تلقائية ولا توجـــد علامـــات أو دلالات توحي بمعـــاداة بينهم، ما حصل هو أن عســـاف شـــعر ضمنياً أنه يخافه وبلا شـــعور وجد أن المنافســـة مـــع هذا الفتى قد تســـببت له بالقلق المســـتمر، ليبقى ســـيف بـــلا تصنيف، ليس بالرفيق بالنســـبة إلى عســـاف عندما يتعلـــق الأمر بالرفـــاق فالحياة في قريـــة كانت مشـــاركة في كل شـــيء وهو لم يشـــاركه ســـوى في مـــا يقال عنـــه، وليـــس بالصديق فقـــد كانـــا صغيرين علـــى فهـــم وإدراك معنى هذه الكلمـــة، لكنه يبقى الفتـــى المتفوق دوماً فـــي القرية كلها، كبار الســـن كانوا يحترمونـــه جداً، وحده ســـيف مـــن يتلقى المديح مـــن الجميع.

مـرة غضـب عسـاف بشـدة بعـد أن مـلّ حديـث والـده المتكـرر عـن سـيف وإطـراؤه الدائـم لـه، فـكان الـرد أن صفعـه الأب دون رحمـة علـى نبـرة الصـوت العاليـة، نـال أول صفعـة فـي حياتـه لمجـرد أنـه يرفـض سـيف داخليـاً، ليضعـه أمـام عينـه كعـدو يمطـره كل حيـن بعلامـات التعجـب والإقـلال مـن شـأنه، عـرف عسـاف عـن سـيف كل شـيء، متـى ولـد وكيـف ترعـرع حتـى أصبـح بهـذا الحجـم المخيـف..

كان عسـاف يومئـذ طفـلاً حزينـاً وغاضبـاً لأن أبـاه لا يمـل وهـو يمتـدح هـذا الفتـى، ولـم يكـن عامـر يهتـم بمـا يُقـال عـن سـيف..

هـو مـن يـوزّع عليهـم الأدوار، وعندمـا يضيـق ذرعـاً باللعبـة يرتـب لهـم غيرهـا ولا يُـرد لـه كلام، علـى الرغـم مـن أنـه فـي سـن صغيـرة مـات والـده، مـات وهـو لا يملـك مـن الدنيـا سـوى أرض جـرداء تركهـا دون أن يهتـم بهـا

لولعـه بتجـارة الأغنـام، أمـا أمـه فقـد كانـت أميـة كمـا هـي الحـال لبقيـة النسـاء، ومـع هـذا هـو مسـتمر فـي الحيـاة يحمـل ابتسـامته معـه ولا يهتـم بضيـق الأسـرة المالـي سـوى أنـه فـي أيـام لا ينتظـم مـع بقيـة الأصدقـاء فـي المدرسـة، يتغيـب كثيـراً ومـع هـذا ينجـح بتفـوق ويلقـى إشـادة كبيـرة مـن المدرسـين، الذيـن كانـوا يثنـون علـى جهـده دون ان يسـمع عسـاف منهـم مـا كان يتحصـل عليـه سـيف مـراراً، ولطالمـا سـهر عسـاف الليالـي واسـتعان مـن اجـل ذلـك بقـوى خارجيـة مـن عامـر وفاطمـة فلـم تنجـح محاولاتـه.

كانـت طفولـة عسـاف مـع هـذه الأسـماء وفـي هـذه الأجـواء وبتنقلـه الدائـم مـا بيـن وفـرة مـن عالـم الأشـياء وقلـة مـن عوالـم الأشـخاص دون الخوض فـي عالـم الأفـكار، فقـد كانـت لهجتـه عاديـة جـداً، تميـل إلـى ان تكـون جبليـة ثقيلـة بدائيـة، فقيـرة بالمعانـي كمـن يزحـف علـى ركبتيـه ومرفقيـه ويتجاهـل قدميـه، هـذه الصـور لـم تفـارق وجهـه وكأن بفعـل هـذه الأيـادي اقتحمتـه جميـع الألـوان فـي آن لتُحـدث فعلتهـا.

فقـد تلـوَّن عسـاف بلـون اسـتثنائي رُسـم بفكـر الآخـر، الـذي يـرى كل شـيء مـن خلالـه دون أن يـراه..

رُسم فكان كما هو، ممتلئاً بالفراغ..

أنتهـت لوحتـه ليطالعهـا مـرة ومرتيـن فيعيـد قـراءة نفسـه مـن جديـد، علـه يتعـرف نفسـه أكثـر، يحـاول ترتيـب أوراقـه ليفصـل مـا بيـن الألـوان التـي تكـون فـي الغالـب مختلفـة بعضهـا عـن بعـض، وفـي كل مـرة يختلـي بهـا بنفسـه تكثُـر التسـاؤلات لتخـرج منـه بصـوت متقطـع باهـت:

«هل أشبه اللون الأحمر؟

ذلك اللون الذي يأتي في مقدمة الألوان لغموضه فهو يذكره بالحروب التي يسمع عنها وتلك التي لم يسمع كالثورة البلشفية، وفي نقلة أخرى إلى الطرف المضاد يذكره هذا اللون بلون الحب عندما يتمثل بوردة يراها في قريته، أو بمعزوفة لتشايكوفسكي وهو العارف بهذا اللحن وكأن هذا الموسيقار يرد بها على العلم الأحمر، هذا اللون لا يعرف الحقيقة فهو يأتي هنا أو هناك وكأنه يتنزه في الصباح عارياً وفي المساء متستراً هل أشبه اللون الأخضر؟

وهو لون الأرض حين تُعطي من خيراتها، أو هي ورقة خضراء نابضة العروق تعكس أشعة الشمس فتعطيه الحياة، أو هو لون يحاكي الانطلاق والمرور دون مضايقة ومزاحمة من الألوان وبالذات من اللون الأحمر الغامض..

هل أشبه اللون الأصفر؟ وهو ما بين وبين، ذلك اللون القابع في منطقة التردد بين لونين هما الأحمر والأخضر، أو هو التابع لأحده كما كان السوفسطائيون في عصورهم يفعلون..

هل أشبه اللون البني؟ الذي يذكر بمحيط القرية وبالبيوت المتراصة دون فناء وتلك المسطحات من الأتربة التي لا ترضى أن تستقر مع حركة الناس لتثير موجة من الغبار في كل مرة تغيب فيها الفوضى ويحل الاستقرار، كل شيء يتجسد بالألوان لا بالأفعال ولا حتى بالكلمات، وما أكثر الذين بددوا أيامهم في الانتظار..

يتتبع عساف خلسة نفسه فيراها تتجول داخل علبة ألوان..

كان فـي القريـة عـدة أبـواب جميعهـا متشـابهة اللـون، يخـرج منهـا الأهالـي بكثيـر مـن الشـجاعة والمسـؤولية، فينطلقـون نحـو أزقـة القريـة وبسـاتينها مـن كل صـوب.

هنـاك بـاب يطـل منـه سيف، وبـاب يطـل منـه خالـد، وبـاب يطـل منـه صالـح، وبـاب مختلـف لا يشـبه بقيـة الأبـواب تطـل منـه فتـاة، كانـت فتـاة، جـاءت بهـا الأقـدار علـى نحـو غيـر متوقـع، لهـا بشـرة بيضـاء كالبلسـم يشـفي، وهـذا كل مـا كان عسـاف يـراه مـن مكانـه، تطـل كل يـوم علـى اسـتحياء، والجـو فـي الخـارج غـارق فـي النـور وفـي الحركـة، مـن تراقـب السـاحة خلـف هـذا البـاب هـي حتمـاً تبحـث عـن شـيء، ولِـمَ لا يكـون هـو؟

اكتشـف وجودهـا دون أن ينتبـه لـه احـد، فـكاد ينطلـق مـن هـول المفاجـأة قائـلاً: «أوريـكا، أوريـكا»، فهـذه الفتـاة لـم تعـد صغيـرة لتسـتمتع باللعـب مـع الفتيـات فـي لعبهـن «لسـبع الحجـر» أو «أم الخطـوطِ» وذلـك فـي سـاحات قريبـة أمـام المنـازل، تقـف لتسـترق النظـر فـي عجـل نحـو بقيـة الأطفـال والأولاد، وكذلـك كان عسـاف، لـم يكـن حينئـذ طفـلاً كمـا كان يُنظـر إلـيَّ مـن الكبـار، هـم مـن يقـررون وهـم مـن يفعلـون دون اعتـراض مـن احـد، وتلـك كانـت مشـكلتهم وحدهـم..

هـذا البـاب بلونـه الخشـبي، خـرج مـن رحـم اللـون البنـي وكـم أرهقـه، فهـو يذكـره دومـاً بشـيء، تلمـس لمعنـى ليـس كبقيـة المعانـي اليائسـة البائسـة، محـاكاة لعيـن أنثـى، تراقبـه علـى الـدوام فـي كل يـوم ولا يراهـا تمـل فعـل ذلـك..

تكرر المشهد كثيراً، بعد صلاة العصر يتجمعون في مساحة كبيرة للعب كرة القدم، وعساف يختار دوماً مركز الحراسة ويطلب منهم في حماسة أن يلعبوا شوطي المباراة دون تغيير في الملعب كما كانت قوانين اللعبة تقول، وما إن تصل إليه الكرة حتى يرميها بعيداً في الجزء الآخر من الملعب ليسرق بعض النظرات تجاه الباب الخشبي، فيسقط في أحيان في مجال الرؤية منظر لعجوز منهمكة في حلب الماعز، تحد من خروج الفاتنة أحياناً، ما إن تظهر العجوز حتى تتملكه الحماسة أن يساعدها كي تفرغ من آخر ضرع وتغادر المكان بينما كان الصبية يتزاحمون في كرّ وفرّ من اليمين وإلى اليسار، احدهم يصرخ في وجهه قائلاً: «عمّ تبحث» فيكون الرد بصوت لا يريد الإجابة ليكتفي بإشارات الجسد في حركة سريعة لجعلهم ينصرفون عنه!

هي ساعة فقط وينفض الجمع ليذهب كل منهم في حماسة وبشكل لا إرادي إلى داره خوفاً من الغضب على متعة غير محرمة، سيف يعود أولاً لقرب بيته من ساحة اللعب، محمد وصالح وخالد بيوتهم في الجانب المقابل من القرية وكانوا وحدهم من يملكون دراجات هوائية، بينما كان عساف يعود إلى الدار مشياً على الأقدام، متحاشياً ان يصطدم بسعد ابن جاره الذي يسلك الطريق نفسه، يسلك ابعد الطرق حتى يكون الوقت في مصلحته ومصلحة خيال نشط مرتبط بجزء بسيط من الواقع، فلقد اكتملت عنده صورة بقية الجسد فكانت تمثل «أنثى حقيقية»..

يبحث عنه سعد ويهرب منه لكثرة كلامه، يتكلم كثيراً ولا يريد من أحد أن يقاطعه وفي حضور المجموعة لا ينطق لسانه أبدً..

من تراقبه كل يوم، جاءته في المنام مراراً ليتخيل معها صورته في ذلك الفارس الذي اقتحم روايات الفروسية العربية لينحني لي عنترة العبسي وأبو زيد الهلالي..

لم يكن حينئذ يعلم بشيء اسمه الحب ولكنها كانت تصرفات لا إرادية قد حدثت في حينها لتُحدث ثورة الحب لقلب صُنع بتعمد من القسوة وفيه من الصلابة ما قد يلُغي هذا الشعور وقد يقتلعه من جذوره.

جاءته في المنام، إنه الجمال الذي أذهل عساف في صورة فمال إليه وافتتن به دون مقاومة، فبقي ذكرها خالداً في ذاكرته أينما داعب خياله، وفي كل حالاته: مستيقظاً، نائماً، بين كتبه المدرسية، في وجه معلميه، هي دوماً تلاحقه، هيام يتخيله ليبتعد به عن الواقع حتى يصطدم به من جديد حين يُفاجئه والده، هكذا كانت حياته تصويراً وتصعيداً في عالم الأشخاص مع من كانوا حوله في الاتجاه نفسه، ومع تلك الطلبات التي تقتحم عالمه الخاص يرجع إلى وسادته المنهكة تماماً ويبقى اسمها «وسادة» لينحني لها ولم ينحن العبسي، والهلالي «للآخر» قط..

بسلوك تكمن فيه روح شريرة كانت تنتابه تخيلات، فيراقبها مثلما كانت هي تراقب، ليمر شعاع وجهها عندما يشرق كالطيف بارقاً في

ذهنـه، تظهـر لـه كمـرآة تعكـس منظـر السـماء الأزرق الصافـي، وفـي الأرض صـراخ الصبيـة منـه..

وفـي اليـوم التالـي كانـت ملامحهـم تشـير إلـى أنـه لا أحـد يريـده معـه فـي مجموعتـه، وكاد يطلـب منهـم أن يخـرج إلا أنـه فـي آخـر لحظـة طلبـه سـيف لأن يلعـب مـع مجموعتـه وهـو الـذي لا يُـرد لـه طلـب، فأخـذ موقعـه المناسـب وبـدأت معهـا عمليـة المراقبـة ومعهـا سـرعان مـا تحولـت الأشـياء إلى أخـرى عصيـة علـى التسـمية، يـوم مـن بدايتـه كان حافـلاً بالاحتمـالات والأسـئلة والبحـث، علـى أكثـر مـن مسـتوى، اكتشـف عسـاف وعـن طريـق نظراتهـا التـي تذهـب بعيـداً عنـه بأنـه ليـس ذلـك الفتـى المطلـوب، فقـد كانـت تراقـب سـيف المنشـغل تمامـاً بالتلـذذ خلـف مطـاردة كـرة جلديـة، عيناهـا لـم تكـن تبحثـان إلا عـن سـيف، وسـيف لا يهتـم سـوى بصبـي يركلـه بقسـوة فتنفـرج أسـاريره وكان هـو أكثـر مـن كان يعاتبـه علـى حالـة الشـرود، فـزاد عنـاد عسـاف أكثـر وكأنـه يقـول فـي نفسـه: «هـذه الفتـاة لا تعلـم أن سـيف مـا زال فـي بحـر الطفولـة غارقـاً» فكانـت نظرتهـا الأخيـرة الـرد الحاسـم منهـا علـى عسـاف فقـد كانـت تتبـع سـيف بنظراتهـا بشـكل أبطـأ حتـى اختفـى، بابهـا بالفعـل كان موصـداً وقـد ضـاع منـه المفتـاح، ومرآتهـا عكسـت بالفعـل أشـياء معقـدة جـداً لتحـدث فـي داخلـه شـعوراً مسـتثاراً غامضـاً بالدهشـة..

وصـل عسـاف إلـى البيـت وعينـاه ذابلتـان تنظـران نحـو الأرض، نحـو مسـاحة ضيقـة فـلا احـد يـراه إطلاقـاً لتظـل جميـع الأبـواب ذات اللـون الخشـبي ذكـرى مزعجـة لـه..

صاحبـة المـرآة اسـمها «نـوره» وقـد عـرف ذلـك عندمـا ذكـر والـده فـي ذات يـوم أنهـم سـيرحلون عـن القريـة إلـى حيـث المدينـة الكبيـرة.

فكـر قليـلاً بعـد أن سـمع الخبـر : هـل سـيتألم سـيف عندمـا يكتشـف الأمـر، هـل سـينطلق فـي الطرقـات، أيصـرخ ألمـاً، أيتثنـى فزعـاً أو تـراه مسـتمراً فـي فضـاء ازرق عريـض لا تعنيـه الأماكـن الضيقـة التـي هـي مـن شـأن الحـب، ومـن أفعالـه ليُكمـل أغنيـة الحيـاة أو هـو العاشـق القاتـل فيسـر لمرآهـا تتلـوى عذابـاً بحبهـا لـه..

أصبـح سـيف عـدو عسـاف الأول ولـن يقبـل تفوقـه عليـه بـأي شـكل مـن الأشـكال، غشـاوته تُصيـب عينـيّ عسـاف باسـتمرار ويـزداد الالتهـاب بعـد فركهـا واسـترجاع بعـض مـن مخـزون الذاكـرة..

ومـا الحـل مـع مـن يجـاري الجميـع فـي كل شـيء، فـي اللعـب وفـي الـكلام، يجيـد اللعـب فـي كل شـيء سـواء أكانـت «الغميمـا» أم «الدسيسـه» أم حتـى المطارحـة ، لا يسـتطع أحـد أن يطرحـه أرضـاً أو أن يتغلـب عليـه، صوتـه العالـي وقوتـه البدنيـة همـا قسـوة فـي النهايـة ولكنهمـا يقابـلان بالثنـاء مـن الآخريـن..

فـي مُحاولـة لإصـلاحِ الحـالِ بـدأ عسـاف أولـى مُحاولاتـه، وليـس علـى المضطـر أن يختـار، ففـي المناسـبات الكبيـرة يكـون حضـور سـيف واضحـاً وبـارزاً مـن بيـن أقرانـه ممـا يلقـى ترحيـب الكبـار ليسـتمر الثنـاء وينـال المديـح وكأن بقيـة المجموعـة تفاصيـل فـي الحيـاة ثانويـة جـداً يصعـب رؤيتهـا.

قـرر عسـاف أن يجـرب آخـر حظوظـه مـع هـذا السـيف، فـلا بـد أن يبعده

عـن هـذا المجـال وليقحمـه فـي شـيء علـه يسـترد بهـذا الفعـل كرامتـه وليثبـت للجميـع أنـه الأفضـل، فكـر فـي حـل جديـد فـكان فـي قبـول مشـاركتهم فـي مـا كانـوا يفعلونـه عندمـا يجتمعـون كل مسـاء، كانـوا يلتقـون بعيـداً عـن عيـن الرقيـب فـي مـكان موحـش يحتـاج إلـى بعـض الجـرأة لمن يقـرر الذهـاب، كانت المشـكلة الأولـى مـع والـده، لابـد مـن أن ينتظـر تلـك السـاعة التـي ينـام فيهـا أولاً ومـن ثـم الانسـلال بخفيـة دون إصدار صـوت وهـو فـي حكـم المسـتحيل، لـم يفعلهـا عامـر مـن قبـل، ولهـذا لـم ينضـم عسـاف إليهـم مـع تكـرار دعواتهـم خوفـاً مـن كسـر هـذه القواعـد النيتروجينيـة المتينـة والمرتبطـة بعضهـا ببعـض لتكـون حمـض العـادات والتقاليـد، الآن وجـب كسـرها بعـد تأجيـل طويـل.

سـأل بصـوت منخفـض بعـد انقضـاء صـلاة العشـاء عـن وصـف للمـكان، فتأتـي الإجابـة مـن خالـد بصـوت منخفـض مرتبـك « عنـد مزرعـة أبـو حسـين» وقـد أشـار إليـه بيديـن مرتعشـتين فـي حركـة واضحـة تجـاه المـكان فـي أطراف القريـة..

انتظـر عسـاف سـاعة نـوم والـده التـي لـم تتأخـر كثيـراً بعـد عودتـه منهـكاً مـن المزرعـة..

ويتجـاوب معـه عامـر بعـد أن أسـهب لـه فـي الشـرح فـي وقـت لـم تغـادر ضحـكات عامـر المتتاليـة علـى كلامـه، انطلـق إلـى حيـث المـكان المتفق عليـه فـي منطقـة تسـمى عنـد كبـار السـن «خـارج النظـام»، وكانـت تلـك أول مـرة يخـرج فيهـا مـن الـدار فـي هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل، انطلـق

مليئاً بالحماسة حيث الأفق المفتوح وكان الطريق صامتاً وموحشاً ما بين غابات النخيل، لا يستطيع ان يرى إلا بصعوبة وما زالت المسافة بعيدة جداً نحو أسفل القرية حيث حقول القمح والشعير وعلى الجانب الآخر أشجار النخيل وقد اختلفت تماماً عن صورتها في الصباح، فكر قليلاً في تجاهله سعد ابن الجيران، لو أنه انتظر قليلاً ليذهبا معاً، على أقل تقدير لقطعا الطريق معاً دون خوف، تردد قليلاً وفي داخله تساؤل محير: كيف تأتي سعد هذه الجرأة في أن يقطع هذه المسافة وحده كل ليلة..

حاول الرجوع فتذكر سيف..

صيحة أخرى تأتي من العمق الروحاني لعساف تقول «لا مجال للتراجع الآن»..

كانت هذه أولى حالات السأم في حياته فما كان يشعر به هو أنه في قبضة «سيف»..

واصل المسير متصنعاً الفخر بنفسه، ففي هذه اللحظة بالذات لابد وأن يبتكر مواقع هجوم، ليدخل سيف إلى نظامه لا ليهرب، فرمى الخوف خلفه وأكمل المسير برجولة مصطنعة تتلاعب به خارج حدّ الوعي، كان يوماً في صباحه قائظاً. ولكنه الليل الآن وقد حلّ بشيء من النسيم في ظاهره وفي باطنه توجس طفل صغير من عواقب هذه المحاولة، فعين الرقيب ساهرة وعندما ترى لا تؤمن عواقبها من جميع الاتجاهات، رمى كل هذا خلفه وسار مباشرة نحو مزرعة أبي حسين، فساعة ذلك المتغطرس قد دنت.

وصل أخيراً وقد وجدهم يمارسون ألعابهم ولهوهم البريء متمردين من الداخل ضد قناعات الكبار ورجال القرية الذين ينظرون إلى مثل هذا التصرف على أنه منكر فيقفون دائماً بحزم ضد ممارسة هذا النوع البريء من اللهو..

صاح بصوت عال: «السلام عليكم»

تعالت أصواتهم: «وعليك السلام..»

- - وأخيراً يا عساف.

- - وأخيراً.

خرجت منه هذه الكلمة بارتباك ليرد مرة أخرى سعد وقد زال عنه الهدوء الحالم وحل مكانها نظرة ساخرة وكأن معجزة قد حدثت في أن يولد ثانية: «قالوا لي إنك ستأتي اليوم ولم أصدقهم ومع هذا انتظرتك أمام البيت أكثر من عشر دقائق ولم تظهر.»

تجاهله ولكن لم يتكلم أحد فأحس بواجب الرد عليه بعد أن كانت كل الأنظار تتجه نحوه..

- لقد كنت متردداً ففي مثل هذا الوقت أكون نائماً..

تعالت الضحكات من كل صوب دون أن يعلم عساف لماذا؟

رد محمد بسخرية واستفزاز ولم يكن عساف يراه جيداً من شدة الظلام: «إن أردت تستطيع النوم هنا»

فتعالت الضحكات مرة أخرى..

لـم يشـاهد سـيف بينهـم وقـد تـرك غيابـه أكثـر مـن علامـة اسـتفهام ليسـأل عنـه : أيـن سـيف؟

- لقد رأيتهُ اليوم.
- وهل طلبت منه أن يأتي؟
- طلبت منه.
- وماذا أجاب؟
- قال حسناً.

ليأتـي جـواب مـن أحدهـم: «إنـه لا يسـتطيع ان يتـرك أمـه المريضـة وحيـدة فـي الـدار».

- ولكنه يلعب معنا كل يوم ويترك أمه!
- لأن بيته أمام الساحة، ويستطيع أن يتدبر أمره لو حدث شيء.
- هو حتماً يستطيع تدبير أمره..
- وماذا تلعبون؟
- «عظيم ساري»
- في هذا الوقت!
- جربها ولن تندم، فما زال الليل طويلاً أمامنا.
- لا، لا أستطيع.

ولم لا.

نظـر عسـاف إليهـم وهـو فـي حالـة تعجُّـب، وقـال: «سـتفوتني صـلاة الفجـر».

تعالـت الضحـكات مـن كل جانـب حتـى مـن سـعد، مـن كان عسـاف يحسـبه أخـرس لا يتكلـم.

- لقد اتفقنا على السهر حتى الفجر..
- انه خائف من المطوع عندما يأتي للصلاة متأخراً؟
- لو علم أبي لقتلني..
- قـل لهـم بأنـك صليـت وفـي جـوارك جـدار المسـجد وعـن يمينـك بـدوي عابـر سـبيل..
- إن كنت لا تريد أن تلعب عظيم ساري، فلنسبح..

وقد أشار خالد بيده ناحية إحدى آبار الشرب..

- ولكنهم يشربون منها!

ضحـك الجميـع وكأن عسـاف ارتكـب حماقـة كبـرى فقـد كانـت تصرفاتـه فـي المجمـل توحـي بجبـن، وفـي هـذه الأثنـاء سـمع الجميـع صـوت سـعد وقـد تجـرّد مـن أغلـب ملابسـه: «بسـم اللـه» ليلحـق بـه الجميـع يسـبحون عـراة فـي بئـر واحـدة وبقـي عسـاف ثابتـاً فـي مكانـه، هـذه المجموعـة لا تعـرف الخـوف أبـداً ولا يوجـد منهـم أحـد فـي بيـت أهلـه فـي مثـل هـذا الوقـت الموحـش مـن الليـل، سـوى سـيف ومـع ذلـك هـم يدافعـون عنـه..

تـرك عسـاف المـكان وصـوت سـعد يتعالـى وهـو يقطـع الأشـواط جيئـة وذهابـاً، ينظـر إلـى عسـاف بشـيء مـن الرضـا عـن نفسـه، عـاد عسـاف أدراجـه مـن حيـث أتـى فـلا فرصـة لـه أمـام مـن هـم اقـل مـن سـيف فكيـف سـيكون حالـه لـو كان سـيف معهـم، وفـي الطريـق عـاد الظـلام الدامـس إليـه مـن جديد،

كانت عيناه تراقبان في فزع قدوم احد من أهل القرية، والأصوات من خلفه بدأت تتناقص حدتها.

هذه القرية وتلك المياه كلها بلون الغرق، غرق موحش في هذا اليوم إن نجا منها فلابد وأن يتبعه طوفان سيف ولا مجال هنا للنجاة، من كان في مثل حالة سيف لا يخاف الغرق ولا حتى العطش، بل هو قادر على أن يقفز إلى أعماق بئر وليغرق في مائها، عنده قدرة هائلة تبقي على تنفسه ثابتاً حتى وإن اشتكت رئتاه من حالة الارتباك، لأنه يريد المغامرة ليس إلا، ويكفيه أن سعد نفسه تمرد على رائحة العرق كي يعيد إلى جسده شيئاً من الحياة وهو غارق في بركة ماء يشرب منها الناس.

كيف كان له أن يفهم حينها، أن غرق المرء في العمق في جوهره حالات إنسانية قيودها أساطير محكية، هم يخافون الجن، ويعانون مطاردة الأشباح، ولا تنفعهم حتى حكاياتهم تحت ضوء القمر وحتى يطلع الصباح وهم يستلقون على ظهورهم ويحدّقون إلى القمر ومع هذا فهم يكابرون.

جاءه الفرج أخيراً بعد قرار الرحيل من والده بعد أن استفاد الوالد من قيمة أرض قد اشتراها له صديقه المقرب قبل ثلاثين عاماً، وفي أثناء ترتيب أمور السفر فجع جميع من في القرية بنبأ وفاة أم سيف، هذه الحادثة جعلت من أهالي القرية في حركة متواصلة، وكان عساف منذ سمع النبأ في حالة ارتباك، فأقيمت صلاة الجنازة في مسجد القرية

وبعد الصلاة اصطفّ الناس في المقبرة يؤدّون الواجب، وتزاحمت العباءات السود والعمائم البيض في الدار، كانوا يملأون المكان في حالة من الارتباك وحالات من الحزن نالت من سيف الذي كان في حالة من الضعف والإعياء وهو من كان يعتبر نفسه راضياً عن ذاته وعن الآخرين في مواقف سابقة، يبدو اليوم وكأنه مصدوم بما حدث، كان عساف يراقبه بصمت وقد جلس في صدر المجلس يتحدث بصوت مكتوم لكبار رجال القرية، لم يكن الفقد دخيلاً على حياة سيف، لقد عرفه من قبل، وفي اللحظة نفسها التي كان عساف فيها ملزماً بخدمة الزوار بأمر من كبار السن ومن والده بالذات فر سعد هارباً من بين الجموع مما وضع عساف في موقع يصعب معه التأقلم بشكل جيد مع المستجدات، خالد سئم حالة التعب بعد مرور عشر دقائق فانصرف بعيداً، ولم يبقَ بجانب عساف سوى محمد وصالح وقد بذلا جهداً كبيراً دون أن يسمعا كلمة شكر على ما قاما به من عمل، فالأنظار كلها تبحث عن سيف والضيوف يملأون البيت بينما عساف يركض هنا وهناك في محاولة يائسة لملء الأفواه بالقهوة العربية، ليستمرالجميع في الشرب دون توقف، الفرد في هذا المكان في لحظة صمت لايفتح فمه إلا للشرب فقط!

ومع نهاية اليوم الثالث بدأ التعب يأخذ دورته الطبيعية حتى غادر صالح ومن بعده محمد في وقت مبكر، وبقي عساف وحده..

الوجوه في هذا المكان مع أنها نفسها ولكنها اليوم مختلفة، فقد

كانت جافة لا تتحرك في أي اتجاه وإن كانت اقرب إلى الجدية منها إلى الفرح مع صمت رهيب من الجميع وكأن حالة العزاء أشبه بعقاب على الكل، ثلاثة أيام وعساف على هذه الحال، مفتت كالغبار، لم يلتفت إليه احد وكأنه واجب عليه فعله بالإكراه، وقف في العزاء طوال ثلاثة أيام متواصلة، صافح الكثير بيد في حين كانت الأخرى منشغلة بحمل واجب الضيافة، فبقي وحيداً واقفاً منتصب القامة في مجلس مليء صامت والأنظار تتبعه في كل خطوة حتى وقع المحظور فقام بارتكاب خطأ فادح عندما سكب بعضاً من القهوة على شيخ كبير، وأية فاجعة حلت هنا، فلم يكن الشيخ الكبير قادراًعلى التقاط فنجان القهوة الساخن فأفلته في الهواء لتنساب القهوة على ملابسه وعلى الأرض، ليقوم الجميع بالصراخ في عساف ويأتي رجل ليأخذ «دلة» القهوة المشؤومة منه وهو يعاتب بكلام أشبه بثرثرة ولكنها كانت إشارة منهم إلى عساف بالخروج من هنا..

خرج من هذا المكان لينتظر عقاباً آخر من والده، فحبس نفسه في الغرفة ولتمضي ساعات من الانتظار، وقد فات الأوان فليس بإمكانه الهرب، سوف يأتي والده ليخرجه من هنا، ولكنه لم يأتِ ولم يتكلم معه قطّ، لا متذمراً أو حتى شاكراً!

ومع من لايزال على قيد الحياة، أو من آل إلى الانتهاء ودعته القرية لينطلق بعد أن غادرت العائلة المنزل الصغير الذي ألفوه طويلاً إلى «الرياض»، تظاهر في بداية الطريق بأنه يتأمل النخلات الباسقة

حتـى لاتُغتصـب فرحتـه بذكـرى «العـزاء» فمـا حـدث لـم يكـن سـوى جـرح يضـاف إلـى بقيـة الجـروح.

رحـل عـن هـذا المـكان وفـي جعبتـه ذكـرى بقيـت حيـة لتبقـى مجموعـة الأفـكار التـي شـكلته وصاغتـه مـع هـؤلاء متشـابهة إلـى حـد لـن تأتـي باختـلاف في المسـتقبل»..

الفصل السادس

عند الغروب وبعد أن انحدرت الشمس على حافة الأفق فتحت عيني بصعوبة كمن ينوءُ بحمل جسد منهك، لأرى منظر الأشياء من حولي وهي ثابتة وعوالم من أشخاص في حالة حركة، كانت الأجهزة الطبية تُحكم سيطرتها عليَّ، وبأصواتها تتكئ بثبات كما لو كانت معزوفة يسمعها نيتشه لفاغنر، تأتي وتذهب بتناغم، لذّة خافتة في الحياة لا يُسبر غورها سوى ألم، لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا بعيد عن هذا العالم، تأتي وجوه وتخرج من عندي وجوه ولم ينتبه لي أحد حتى عدت مجدداً للنوم..

سمعت صوتاً ينادي ويقول: « عساف، عساف»

حاولت أن أتكلم معه، فعجز لساني عن النطق وكأن رأسي يرتد إلى الوراء ليتضاعف الذعر في قلبي، مجموعة أشياء بدت غريبة جداً في هذا المحيط فقد كانت فوق رأسي مروحة تدور بسرعة عالية ولا أرى إلا قطعة من جسد ممسوخة وشبه عارية، وأمامي وجه يحاول التعريف بنفسه، وجه أعرفه جيداً وهو نفسه من كان يتحدث إليَّ، إنه الرجل الهرم، احترت بما أفعله أولاً:

أأبدأ بتغطية جسد زُرع بداخله مجموعة أسلاك..

أأبدأ بالسلام على هذا الرجل والحيرة تلقي بثقلها عليَّ..

أأبدأ بالسؤال عمّ حل بي وكم من الوقت مر عليَّ في هذا المكان؟

انتابتني الشكوك مع تداخل الأصوات في أن يكون كل شيء حقيقياً من حولي ومع هذا حاولت عبثاً تغطية الجسد بأي شيء قريب فلم أستطع فقد كنت مكبلاً بمجموعة أخرى من الأجهزة، حاولت عبثاً استنطاق الذاكرة بكلمات لأرد بها على الرجل الهرم وهو يمُدُّ إليَّ يَدَه فأحرك رأسي قليلاً من مكانه لأمد له بيدي فتأكد لي بأني على الحد الفاصل بين صوت لا يسمعه أحد وشفاه تتحرك بعبث، لم أعد أجرؤ لا على النطق، ولا على الحركة ومع هذا فقد كان الرجل الهرم سعيداً فرحاً بي فتكشف في عينيه حجم مصيبتي فلا يعرف المرض جيداً إلا من شعر بوميض خفي من إضاءة التأمل، غادر الرجل الهرم الغرفة دون أن يسمع مني شيئاً وكنت أراه جيداً من خلف الزجاج الموجود أمامي، تحدث إلى ممرضة وسرعان ما دخلت علي وقد انتابتها هي الأخرى حالة من الذهول!

لقد كانت رائحة الموت كريهة، وما إن تكلم معي الرجل الهرم حتى تذكرت صورة لحوارنا عن الموت، أخبرني بأنه علم بحالتي من طاقم التمريض ولم يصدق ما سمعه منهم ليأتي لزيارتي، ولكنه فوجئ بما رآه فلم أكن في غيبوبة كما قيل له، لم يُخفِ هذا الرجل الهرم تأثره عندما فتحت عيني لأول مرة بصعوبة، تمنيت لحظتئذ أن تكون عائلتي هنا، لكن هذا الرجل الطيب تحدث معي كما لو كان يتحدث لابنه..

«حمـداً للـه علـى سـلامتك لقـد تغيـرت كثيـرًا.. إنـك تشـبه الهيـكل العظمـي!»

نظرت إلى نفسي مرة ثانية ووجدت أن ما قاله الرجل الهرم صحيح..

كتبت له على الورقة سريعاً:

«أين أنا الآن؟»

- فـي غرفـة الطـوارئ وسـتخرج بـإذن اللـه قريبـاً، لقـد سـألت عنـك فـي الجنـاح، فقالـوا لـي إنـك هنـا..

فكتبت له مرة أخرى:

«ما الذي حدث لي؟»

وفـي هـذه اللحظـة دخـل عامـر بزيـه العسـكري الغرفـة، ولمـا وقعـت عينـاي علـى عينيـه قابلنـي بوجـه مبتسـم وجسـد كاد يتراقـص فرحـاً غيـر مبـال بزيـه العسـكري، وبنظـرات النـاس مـن حولـه..

في لحظة اغرورقت عيناه بالدموع، ليحتضنني قائلاً بصوت عالٍ:

«حمداً لله على سلامتك، لقد كنت في غيبوبة وخفنا كثيراً عليك»

ليسـأله الرجـل الهـرم سـريعاً عـن المـدة فقـال عامـر إنهـا أخـذت معـه خمسـة أيـام، فقلـت فـي نفسـي: خمسـة أيـام كاملـة وأنـا مغيـب عـن هـذا العالـم، مـا الـذي حـدث لهـذا العالـم فـي غيابـي؟

شـرح الرجـل الهـرم لعامـر أنـه لا قـدرة لـي علـى الـكلام، فذهبـا معـاً ليتحققـا مـن ذلـك عـن طريـق الممرضـة وليطلبـا الطبيـب بسـرعة ومـا إن قـدم

الطبيـب حتـى طمـأن الجميـع بـأن حالتـي سـتعود للاسـتقرار وأن الصـوت سـيعود لـي خـلال يوميـن تدريجـاً..

أخـذت ورقـة لأكتـب فيهـا لعامـر فـي محاولـة لالتقـاط بعـض مـن لغـة الأشـياء الثانويـة، وأشـرت إليـه بـأن يقرأهـا:

- حسـناً، سـأقرأها الآن: « مـا زلـت هنـا علـى هـذا السـرير ولسـت واقفـاً أمـام ثكنـة عسـكرية»

كانـت علامـات تعجـب تعلـو ملامـح عامـر ولكنـه ابتسـم لـي سـريعاً وقـال: «الحمـد للـه الحمـد للـه»

كتبت له مرة أخرى «ولن أكون نكرة في المستقبل»

- لا، ومـن قـال هـذا الـكلام عنـك، أنـت عسـاف بـن سـالم ولـك اسـم ووجـود وعليـك مـن الآن أن تكـون مرئيـاً.. أريـدك الآن أن ترتـاح قليـلاً وسـأعود إليـك بعـد سـاعة، فأمـي فـي شـوق إلـى رؤيتـك..

كان عامـر واثقـاً وهـو يتكلـم بهـذه العبـارات وعلـى مـا يبـدو أنـه نسـي تمامـاً أنـه مـن قـال لـي هـذه الكلمـة، وكانـت ذاكرتـي علـى حالهـا لـم تنـس شـيئاً مـن الماضـي فمـا زلـت أتذكـر أشـياء بانـت لـي بمجـرد رؤيتـي عامـر والرجـل الهـرم، فتناولـت الورقـة فـي حماسـة مـن جديـد لأكتـب للرجـل المسـن:

«كيف حالتك الصحية الآن»

ليرد بصوت فرح : « ما زلت على قيد الحياة يا ولدي»

وقف عامر بعيداً مبتسماً ولم يعلق، خوفاً من أن تخونه لغة العيون مرة أخرى، لا يكاد يصدق ما يراه بعينيه..

أحسست بشعور غريب وأنا أرى عامر يتكلم معي بهذا اللطف، وكذلك نحو الرجل الهرم المريض الذي تحمل عناء مرضه كي يزورني.. الأشياء في الغرفة لم تكن كتلك في الغرفة السابقة، فأمامي جدار زجاجي أرى من خلاله ورشة عمل، مجموعة من الأطباء وطاقم التمريض، تأتي الممرضة كل خمس عشرة دقيقة وكأنها تنفض الغبار عن أثاث غاب عنه أهله سنوات، تساءلت عم إذا كان كل ما حدث لي مجرد حلم وكيف لي أن أتحقق بعد أن كانت روحي غائبة عن الوعي، والجسد الذي أحمله بات هزيلاً، لقد كان منهكاً تماماً ولا مجال هنا لأن تنفث رائحة العزلة والسكينة ببقايا الستر، فقد كانت تُغطى عورتي كما يفعلون مع الأطفال، هالني المنظر وأنا أرى نفسي بهذا الشكل المخيف، وقد كان والدي بالمثل، لم يرقه المنظر، ومع كثرة الزيارات طلب منهم أن يُغطى جسدي بأي قطعة تكون، أقله في وقت الزيارة، فرُفض طلبه بحجة أن حالتي لا تسمح أبداً ولو لفترة موقتة ولهذا كان فوق رأسي مروحة هواء على الدوام، لابد وأن يبقى هذا الجسد بارداً حتى لا تتدهور صحتي من جديد، وكان سر الغيبوبة أن بعض وظائف الكبد قد تعطلت عن العمل بسبب نوع من الأدوية أو هكذا فهمت ممن كانوا حولي.

كانت أمي تخشى أن يصيبني أي مكروه فلم تنقطع زياراتها بوجه

يئـن حزنـاً فـي كل مـرة، وكـم كانـت فكـرة الاحتمـال مؤلمـة لهـا بـأن تنتكـس حالتـي مـرة أخـرى، تستشـعر الألـم حتـى فـي وقـت النجـاة، وزنـي بـات فـي تناقـص مخيـف حتـى أصبحـت هيـكلاً عظميـاً يرعـب مـن يـراه، حالتـي أحدثـت نوعـاً مـن التعاطـف ومـن القلـق حيـال هـذه النهايـة المبكـرة..

«بعـد البـلاء يكـون الثنـاء».. لتـزداد الزيـارات وليأتـي الجميـع بعـد أن كان الأهـل هـم فقـط مـن يقومـون بزيارتـي، وجـوه غيـر تلـك الوجـوه وكلمـات غيـر الكلمـات، مفرداتهـا لا تحمـل سـوى لغـة الحـب والخيـر والجمـال فـي كل شـيء، والابتسـامة هـي وحدهـا حاضـرة، شـيئاً فشـيئاً حتـى تلاشـت تمامـاً حالـة السـأم وكأنـه لغـز مـن الألغـاز، فهـذه الوجـوه التـي يُخطـئ ويعيـد الحسـاب مـن يحـاول أن يحصـي عددهـا، أعـداد كبيـرة تأتـي وإحساسـها أرهـف، يقـرأون مـا أكتبـه باسـتمرار، كنـت مسـتمعاً مسـتمتعاً فـي أغلـب الوقـت دون وعـي بحقيقـة مـا حـل بـي ولكنـه الحـب عندمـا يتضـح معنـاه مـن لغـة العيـون، شـيئاً فشـيئاً حتـى طـردت الذاكـرة مأسـاة كانـت كامنـة ولـم تعـد جرحـاً ينـزف فـي نفسـية مريـض، وبـات المحيـط مـن حولـي لأنـاس طيبيـن تكتـظ بهـم ممـرات المستشـفى، وسـر هـذا العـدد الهائـل مـن النـاس أن موظفـاً فـي المستشـفى قـام بإبـلاغ أهلـي بسـوء حالتـي الصحيـة وأنهـا مسـألة وقـت حتـى أغـادر الحيـاة، أبلغهـم ولا يعلـم أحـد بمـا كان يفكـر هـذا الموظـف حينئـذ. دوت فرقعـة بسـببه فأطاحـت حقـي فـي الحيـاة، أحـدث بتصرفـه حالـة مـن العـزاء لفتـى لـم يكمـل العشـرين مـن عمـره ولتعلـن حالـة العـزاء وهـو مـازال حيـاً، إذ لـم يكـن تصرفـه هنـا إنسـانياً فمـن العسـير أن

أتصور ما هي الغاية من سرد المبالغات ومن التسلية والعبث عندما تروى المآسي بمزاج رائق دون استقصاء غاية الحياة..

ساهم هذا الخبر آنذاك في مضاعفة حالات القلق والتوتر والعجز، اليأس والخمول والأرق وفقدان الشهية لعائلتي..

مرت الأيام وفي مرورها تقبلت فكرة أنه ما قد مضى، مضى. وها أنا الآن في حضرة مكان أحادي العواطف، لا مجال للعودة مرة أخرى إلى ما كنت عليه وإن هيأت لي شيئاً يشبه تلك الحركة الطبيعية للعقل في النزول من الأفكار إلى الأحداث، ومن الأنواع إلى الأفراد، فالأصل في الفكرة إما أن تكون في كلمات وإما في صورة، وفي العادة ما تكون جوفاء لمن كان بمثل عمري، لتبقى تجربة تخفي المزيد من الإثارة، فبدأت بسماع القصص وهي تتوالى من عائلتي اليائسة بعد أن أحكم عليها الحزن المفعم بالبكاء، في المنزل قالوا بأن وجه أمي اصفر وأصابها الذبول، وغارت عيناها بالدموع فلم يتوقف بكاؤها، ولم تكن حال أختي فاطمة يبتعد كثيراً عن حال أمي فقد كانت في السنة النهائية من المرحلة الثانوية، وهو وقت التحصيل بالنسبة إليها لنيل أعلى الدرجات كي تستثمر بها تعب السنين بالتخصص المناسب، كانت حاضرة في وقت الامتحانات دون أن تقرأ شيئاً، كل المؤشرات كانت توحي لها بالقصور المعرفي ولطالما كانت متفوقة في دراستها فقررت أن تعيد هذه السنة الدراسية مرة أخرى لنيل ما كانت تطمح إليه ولكنها نجحت بمعدل متدن جداً لا يسمح لها بدخول الجامعة،

ليالٍ وهي تتذكر فيها ملامح وجه أخيها الصغير فلم تستطع أن تمسك بكتاب فكانت صدمة أخرى بالنسبة إليها، حدث ما حدث وقد عاندها التركيز في وقت الحصاد وكانت أكثر المتضررين بالحادثة، وعلى الرغم من هذا لم تنطقْ بكلمة ولم تشتكِ من تقصيرها الذي تعزوه إلى ما حدث لي، وفي زياراتها لي لم تكن امرأة مأخوذة بسرّ أنوثتها وكأنها هي من تشتكي علة.

أما عامر فقد كان وقتئذٍ ملتزماً بدورة عسكرية يخرج يومين في الأسبوع فيأتي مباشرة إلى المستشفى ليقضي ساعات معي، ولطالما أستقر به في جواري صامتاً بزيه العسكري دون أن يفكر في الذهاب إلى المنزل ليرتاح ولو قليلاً، كانت أمي تتكلم عن أفعال عامر بسعادة كبيرة، ليبقى والدي صامداً يستقبل الاتصالات من كل حدب وصوب بعد أن جاءه الخبر بشكل رسمي:

«إن صحته في تدهور ولا نستطيع فعل شيء لإنقاذه»..

عادت صحتي للتحسن من جديد وعاد الصوت تدريجاً، وكان الطبيب في قمة سعادته، ولكن خروجي من المستشفى تأخر بطلب من الأطباء طالبين مني الصبر، مللت هذا المكان بعد أن مضى عليَّ شهران فيه، وتكفي أنها تجربة في ملامسة ما يخافه الجميع. هذا المكان ليس فيه إلا سرير واحد، وكم تاقت نفسي إلى أن تتشمس في العراء..

تذكرت كيف كان السكون حاضراً وأنا كمن أحس في تلك الأيام الشاقة بثورة على الجمود، لا أذكر من جهاز التلفزة إلا مسلسلاً يحكي

صراعـاً بيـن البشـر لأكتشـف فـي النهايـة أنهـم مـن عائلـة واحـدة، فتذكـرت عائلتـي وبكاءهـا علـيَّ فاسـتفزتني هـذه القصـة كثيـراً..

مـر يومـان ليطلـب الدكتـور منـي قبـل أن يعطينـي إذنـاً بالخـروج مـن المستشـفى أن يأخذنـي فـي مهمـة جديـدة لعـرض حالتـي أمـام عـدد مـن الحضـور فقـط ليشـاهدوا هـذا الجسـد المنهـك بعـد أن عـادت إليـه الحيـاة، وكانـت محاولاتهـم جـادة لأن أكـون فـي تلـك اللحظـة واقفـاً بـكل عافيتـي كـي يسـتمتع الطبيـب بعملـه ويزهـو بنفسـه، وافقـت علـى هـذا العـرض ولـو طلـب منـي أكثـر مـن ذلـك لمـا رفضـت، فمـن السـهل جـداً دفـع شـاب مثلـي لتقديـم تنـازلات فـي مقابـل مـا يريـد.

تحقـق للطبيـب مـا أراد، وفـي يـوم المحاضـرة قيـل لـي كـن جاهـزاً ولـن نتأخـر، خمـس دقائـق فقـط نحتـاج إليهـا منـك وتخـرج بعدهـا لتعـود إلـى الغرفـة مـن جديـد، وعندمـا حـان الوقـت كان الكرسـي المتحـرك جاهـزاً وأمامـي طبيـب مسـاعد جـاء بنفسـه لينقلنـي، وصلـت إلـى بـاب القاعـة، فطلبـوا منـي أن أنـزل مـن علـى الكرسـي، أخذتنـي الحماسـة معهـم فوقفـت فرحـاً ومـا إن دخلـت حتـى بادلنـي الحضـور نظـرات تـكاد تخترقنـي والطبيـب المسـؤول عـن حالتـي فـي حالـة مـن النشـوة يتكلـم بلغتـه الإنجليزيـة، حتـى جـاءت لحظـة ضجـت بهـا القاعـة ضحـكاً، لا أعلـم السـر فـي ذلـك ولكنِّـي ضحكـت معهـم ويبـدو أن الأمـر شـيء يتعلـق بـي، لـم أهتـم كثيـراً بمـا حـدث فقـد حـان وقـت الخـروج مـن هنـا، وكانـت فرحتـي عظيمـة حيـن سـمُح لـي أخيـراً بالخـروج مـن هـذا المـكان بعـد معانـاة كادت تقضـي علـيَّ..

وفـي موقـف آخـر أحـدث بداخلـي سـعادة كبيـرة لا توصـف نحـو هـذه الالتفاتـة الجميلـة مـن موظفـي المستشـفى فـي يـوم خروجـي، فقـد قـدم لـي هـذا الطاقـم هديـة لسـلامتي وكأنهـم أيقنـوا بأنـه لا مَفَـرَّ لـي مـن المـوت، عندهـا غمرنـي الشـعور بالراحـة والاطمئنـان إلـى حقيقـة الإنسـان فـي محبتـه وتواصلـه مـع بنـي جنسـه..

جـاء عامـر بزيـه التقليـدي هــذه المـرة ومعــه قائمــة مــن الأدويــة صرفـت مـن أجلـي، واحـد أعرفـه منهـا جيـداً فهـو مصـدر الغثيـان الدائـم. حانـت لحظـة المغـادرة بعـد أن عاودتنـي سـلامتي لأسـتقبل مباشـرة شـعور مـن لكمتـه شـمس بعـد فتـرة مـن الظـلام الكامـل وانعـدام الرؤيـة، أغمضـت عينـي مـن الوهـج ونظـرت إلـى السـاعة الالكترونيـة فـي سـيارة عامـر: هـي الثامنـة إلّا عشـر دقائـق ولا أعلـم مـا سـيكون حـال هـذه الشـمس فـي الظهيـرة، ومـع هـذا كان الطريـق يعنـي لـي شـيئاً، والمدينـة تعنـي لـي أشـياء فمـا تـزال متينـة البنيـان، بدكاكينهـا ومتاجرهـا، المبانـي والمسـاجد، المطاعـم والأسـواق، أتابـع بشـغف ملامـح العابريـن وكـم كانـت مجموعـة البشـر تلـوح فـي عينـي كجمـال نجمـة تتـلألأ نـوراً، وفـي منتصـف الطريـق غبـت عـن متابعـة الأشـياء لأفتـح هديتـي فوجدتهـا «سـاعة» وكـم كانـت جميلـة، تذكـرت معهـا الوقـت وحـالات الملـل وكيـف كانـت الدقائـق أشـبه بسـاعات، أعجبـت عامـر عندمـا تفحصهـا وهـو يقـود سـيارته فـي حالـة تهـور كادت تفسـد حالتـي مـع السـلام الداخلـي، مـرر السـاعة لـي ليكمـل مشـواره بالتجـوال فـي محيـط أوسـع ليشـمل بعـض الأماكـن المتناثـرة علـى جانبـي الطريـق، فـي شـيء أشـبه

بالنقلة الحضارية، أُعجبت بمنظر الباعة المتجولين وبأصواتهم العالية وهي تبحث لها عن رزق باستماتة، وبمساومات النساء للباعة، فوضى بشريّة تأتي مجتمعة وقد دبت في اثنتين، الروح والجسد لكل فرد. رأيت طفلاً يستجدي مالاً فبحثت في جيبي عن أي مبلغ من المال حتى لا أكون سبباً في جوعه فاكتشفت أن محفظتي خاوية، طلبت من عامر أن يعطيني بعض المال ولكنه تقدم بالسيارة قبل أن أتكلم معه بعد أن تحول لون الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر، فابتعد الطفل متحسراً دون أن يحصل على شيء، والأكثر إيلاماً أنه رآني متحمساً لأن أعطيه.

وصلنا إلى المنزل فشاهدت فرحة أخرى في أعين الجميع، حدقت أمي إلى وجهي كثيراً وكم عشقت منها هذه النظرة، تتفحصني بهدوء، وقد ذُهلت وهي تراني لأول مرة أسابق الخطى إليها بعد شهرين من الغياب الحركي، وقفت أمامها دون أن تنطق لي بشيء وفي عينيها لمعة دون أن تسقط منها دمعة، كلمات محبوسة وقطرات أخرى تتجمع دون أن تسقط ويبدو أنها تركت مع الوقت أثراً عميقاً في خدّيها، تحمست لسماع صوتها حتى صارت عيناي رطبتين ليخبرني حدسي بسر الرسالة: «هي الحياة يا ولدي حين تنطفئُ بغيابك وحين تُغرّدُ بحضورك».

أنا الآن أرى بوضوح وكأن تلك العوالم في الماضي مسكونة بالأرواح القلقة، فتغيرت بفعلها رؤيتي تجاه الأشياء من حولي التي كنت لا أعيرها أي انتباه، فاحتلت حيزاً بارزاً من الرؤية، فهي في

حياتـي وملكـي، ولا تسـتحق أن تجسـد ملامحهـا لـي شـيئاً مـن القلـق لأنهـا تسـتند إلـى روح جديـدة الآن لـم تألفهـا روح سـابقة، المسـألة الآن هـي أننـي أرى أن عوالـم مـن الفـرح قـد حلـت مـكان عوالـم السـأم، ومـا أعيشـه الآن هـو عالـم يصلـح للإنسـان ولنمـو إنسـانيته، رحلـة الجسـد المرهـق بشـتى الأسـقام انتهـت ولا أشـعر فـي هـذه اللحظـة إلا بالسـعادة وكأن طاقـة جديـدة تفجّـرت فـيَّ بغتـة..

تناولـت الطعـام مـع أسـرتي ولأول مـرة بعـد غيـاب، وقـد كان متنوعـاً شـهياً، فتذكـرت حالتـي عندمـا أفقـت مـن غيبوبتـي الطويلـة وقـد عـلا جسـمي الهـزال والضعـف، كنـت أتنـاول طعامـاً هـو نفسـه علـى الـدوام لا يتغيـر حسـاءً وأرزًّا مسـلوقاً، أمـا الآن فأنـا مـن قائمـة مـن يعيـش ليـأكل، وكـم لهـذا الإحسـاس مـن متعـة خاصـة، لـم أعلـم أن التمتـع بـالأكل قـد يضفـي علـى الحيـاة جوانـب مـن الترقـب مـن أجـل نيـل لـذة خفيـة، ومـا إن وصلـت إلـى غرفتـي حتـى تكشـفت لـي بحـدود أكبـر وبتفاصيـل أكثـر، لأسـتمتع بمراقبـة الأشـياء وكأنهـا ملكـة جديـدة تسـمعني صوتـاً يقـول مـع أن الغرفـة خاويـة: «سـلام عليهـا مـا أحبـت سـلامنا»..

بكل ألم وحرقة تذكرت الرجل الهرم ولا أعلم حقاً ما قد سيحل به..

خرجـت مـن هـذه التجربـة بـوزن لا يـكاد يصـل إلـى خمسـة وثلاثيـن كيلوغرامـاً فقـط، فقـد كان الجلـد ملتصقـاً بالعظـام مباشـرة، وكأنـه هيـكل عظمـي نُـزع منـه اللحـم وبقـي الجلـد، وقـد سـبب لـي شـيئاً مـن الإحـراج

عند الجلوس وعند الوقوف وفي كل حركة يقوم بها حتى تناولت «الفيتامينات» التي ساعدتني كثيراً بالإضافة إلى كمية الدهون اليومية في المناسبات الاجتماعية التي أقيمت احتفالا بي وبعودتي إلى الحياة سالماً، وما إن أقيمت هذه المناسبات الاجتماعية فرحاً بسلامتي والتي وإن بدأت حتى لم يعرف والدي كيف له أن يوقفها، الجميع يريد المشاركة في هذه الفرحة، ولكنّها أعادتني مع تلك الفيتامينات سريعاً دون أن تقف عند وزن طبيعي أحمل به جسدي لأنتقل إلى البدانة في وقت قصير وقد أثار ذلك انتباه الجميع.

العينان كانتا في تسابق محموم مع الخد حتى اختفتا تماماً وبقي الخد وحده في بروز مستمر حتى بانت ملامح السمنة التي أراها في عيون الآخرين وقد اعترتها تعابير الدهشة لرؤيتي بهذا الشكل، وكذلك في المرآة عندما أنظر إلى صورتي التي تغيرت كثيراً.

خرجت من هذه التجربة بوجه منتفخ وبقلب صاف ومحب للجميع، حتى وصلت إلى اقتناع بأن الطيبة هي أساس كل فرد، تغطيها أحياناً مساحات من الأتربة من السهل إزالتها بمجرد مرور ريح أو نسمة هواء صافية..

تجربة.. خرجت منها بحقيقة الاستجابة لدافع لاشعوري يلقي بي في محبة أُظهرها دون خجل، ولطالما أوقعتني في حرج.

هي تجربة.. خرجت منها باقتناع، أوقعتني دوامتها في دائرة المسالم دوماً في علاقتي الأسرية، ومع الأصدقاء، ففي أول يوم لي في المدرسة، كانت اللغة والتمثلات حاضرة بقوة، فبمجرد أن دخلت

مـن البـاب الكبيـر، حتـى فوجئـت بعـدد الطلبـة وقـد قدمـوا للسـلام علـيَّ تحديـداً وكأننـي تلـك الشـخصية التـي أينمـا ذهبـت احتشـدت مـن حولهـا الجماهيـر، هـذه مجموعـة تسـأل عـن حالتـي وأخـرى تريـد أن تطمئـن إلـيَّ وهنـاك مـن يزاحـم الجمـوع ليعبـر عـن مشـاعره، ولـم تنتـه عنـد هـذا الحـد تفاصيـل الحكايـة فقـد وصلـت الإثـارة إلـى بعـض المدرسـين فأصبحـوا يتكلمـون معـي بعفويـة، الجميـع فـي حالـة سـؤال دائـم عـن حالتـي بشـكل علنـي، سـألني مـدرس ثـم آخـر وأصغـى إلـي باقـي الطلبـة بخشـوع، كنـت فـي السـابق الطالـب الخجـول مـن ينظـر هـو بنفسـه إلـى كلماتـه وكأنهـا أداة تأزيـم، حررتنـي التلقائيـة قليـلاً بعـد أن كشـفت قناعهـا فـي حقيقـة أننـي أتصـرف تجـاه الآخريـن لا بحسـب مـا هـم عليـه، بـل بحسـب مـا أفكـر أنـا فيـه، بحثـت فـي وسـط الزحـام عـن شـيء فـي محاولـة للوصـول إلـى مـن أرسـل إلـي باقـة الـورد، فاكتشـفت أن هنـاك مجموعـة كبيـرة قامـت بزيارتـي، منهـم مـن قـدم بسـيارة أجـرة، وهنـاك مـن طلـب مـن والـده أن يأخـذه إلـى المستشـفى، ومجموعـات أخـرى تتفـق فيمـا بينهـا فـي المدرسـة علـى زيارتـي، فـي كل يـوم أسـمع حكايـات لا تـدور إلا فـي فلكـي..

سـلمت أخيـراً بـأن باقـة الـورد جاءتنـي عـن طريـق الخطـأ، ويكفينـي أنهـا تركـت فـي نفسـي فرحـة لا تقـدر بثمـن فـي حينهـا.

وكباقـة الـورد وصفـاً بـدأت بتقبـل هـذه الأفـكار الجديـدة ومـا أكثـر الابتسـامات مـن حولـي إشـراقاً، أسـتقبلها كل صبـاح وكأنهـا شـمس حيـاة..

بدأت حالتي تتحسن شيئاً فشيئاً حتى شفيت تماماً..

فبقيـت ذكـرى حفـرت فـي قلبـي حبـاً كبيـراً يسـع العالـم برمتـه وكيـف

لا يكـون وهـذا العالـم قـدم لـي لوحـة رسـمها الحالمـون فـي مدنهـم الفاضلـة، فقـد اسـتمرت هـذه النظـرة فـي أعينهـم وكأنهـا إعـلان محبـة فـي قلوبهـم، لتتجنبنـي كل مشـكلة تحـدث فظللـت حالمـاً أنظـر بشـرود إلـى تلـك التصرفـات المشـينة التـي أراهـا كل يـوم فأنظـر إليهـا باسـتغراب وكأننـي المسـتثنى الوحيـد فـي هـذا العالـم الكبيـر بحسـب مـا كنـت أفكـر فيـه وبحسـب مـا أسـتنتجه مـن تصرفـات، كنـت بعيـداً عـن هـذه المشـاكل بسـبب أنـي صديـق للجميـع لا أعـداء لـي..

عـدت إلـى المدرسـة مـن جديـد بعـد أن ضاعـت علـيَّ سـنة دراسـية كاملـة بسـبب غيـاب الشـهرين، فتوجـب علـي إعـادة السـنة الدراسـية مـن جديـد، ولـم تكـن حالتـي أفضـل مـن أختـي فاطمـة التـي خسـرت هـي الأخـرى فرصـة القبـول فـي الجامعـات لتدنـي معدلهـا وهـذا يعنـي لهـا انتهـاء الحلـم، وحتـى مـع مـرور الوقـت لـم تعـزُ فشـلها إلـى مرضـي..

وفـي هـذه الأثنـاء تخـرج عامـر فـي كليتـه العسـكرية برتبـة ضابـط فـي السـنة نفسـها، فعـاد الاسـتقرار إلـى العائلـة مـن جديـد التي كانـت فرحـة بإنجاز ابنهـا المتفـوق دائمـاً، بعـد أن سـعدت بابنهـا الآخـر المريـض وقـد تعافـى، ليقـرر عامـر بعدهـا الـزواج، فتنطلـق فـي بيتنـا موجـة جديـدة مـن الأفـراح.

ومـع قـرب موعـد زواج عامـر، كنـت المكلـف بالطقـوس الترحيبيـة كافـة للضيـوف، الأجـواء فـي حينهـا ربيعيـة نـادرة وكأنهـا تحتفـل معنـا بعامـر، ليأتـي يـوم الـزواج ويبـدأ العمـل وقـد هيـأ عامـر نفسـه جيـداً، ليأتـي الـدور بعـد ذلـك علـى فاطمـة بعـد أن تقـدم لهـا عريـس وتزوجـت هـي الأخـرى لتنتقـل

إلـى منطقـة بعيـده فقلـت زياراتهـا لنـا، وقـد كان زواجهـا بعـد زواج عامـر بسـنة، رحلـت وتركـت هـي الأخـرى فراغـاً فـي البيـت، ومـع هـذه الأحـداث وجـدت نفسـي مسـؤولاً عـن كل شـيء يتعلـق بـإدارة المنـزل فـي غيـاب والـدي وحتـى فـي حضـوره، وكأن والـدي يتعمـد ذلـك كـي يشـعرني بحجـم المسـؤولية، اشـترى لـي سـيارة تناسـب شـخصيتي، إلـى حـد مـا صغيـرة، لتشـاركني فـي كل التفاصيـل الثانويـة ويكفـي أنهـا تتنقـل بـي مـع الموسـيقى التـي أختارهـا أنـا بنفسـي بعـد أن كان عامـر رافضـاً سـماع أي شـيء لـه علاقـة بالمعـازف، لـم يكـن متدينـاً إلـى حـد التشـدد ولكنـه بالفطـرة يكرههـا..

كنـت مدفوعـاً بدهشـة اكتشـاف المحتـوى وكأن الصـوت الداخلـي يقـول لـي: «إمـلأ حياتـك بالبهجـة وشـاركهم فـي هـذه العـادات الجميلـة، فمـا هـي إلا تعبيـر لمجتمـع وإن كان قليـل الأفـراد عـن سـر خفـي داخلـي»..

استشـعرت حقيقـة أن الحيـاة مشـاركة مـن الجميـع، هـي أقـرب لأن تكون تقاليـد ورثهـا الآبـاء عـن الأجـداد تعبيـراً عـن الكـرم ومشـاركة للأفـراح وكأنـه تأصيـل لمعنـى تواصـل الفـرد مـع المجتمـع، وكـم مـن الفلاسـفة والفنانيـن يسـعون إلـى السـمو بالإنسـان وقـد خـرج أحدهـم مـن هـذه الأعـوام السـبعة عشـر بتجربـة المـوت والألـم والخـوف مـن المجهـول لينطلـق بـه الحـدس انفعـالًا وحماسـة تبقيـه علـى الـدوام تحـت دائـرة التصـوّر بصـورة تختلـف عمّـا هـو موجـود فـي أفكارهـم..

بـأي صـورة يمكـن للعاقـل أن يفسـر منظـر ذلـك الطبيـب الواثـق بنفسـه بعـد أن تدهـورت حالتـي بسـببه؟

فاللغـة معـه صارمـة لا تقبـل حتـى تدخـل مـن هـو فـي غيـر محيطـه علّـه يفسـر لـي موقـع الخلـل مـع هـذه الأخطـاء الطبيـة..

بـأي صـورة يمكـن للعاقـل أن يفسـر لـي ولـو قليـلاً هـذا التنقـل الحـاد فـي تلمـس المعنـى فـي الحيـاة؟

وإن أبقيـت علـى أحـد مـن الرفـاق فـي مسـاحات الفهـم لـن يكـون تفسـيره مـا أشـعر أنـا بـه نفسـه، فهـذا التحـول اللامحسـوس فـي المشـاعر لفتـى يافـع يبـدو وكأنـه قـادم مـن عالـم آخـر غيـر العالـم الـذي كانـوا هـم فيـه..

تحملنـي بعـض البقايـا لتجربـة سـابقة نحـو الشـعور بشـيء وخصوصـاً عندمـا أكـون جالسـاً وحـدي فـي إحـدى الزوايـا وكأن هـذه البقايـا عالقـة بالذات تحضـر متـى مـا توافـر لهـا شـرطان، الأول فـي كآبـة الفجـر والثانـي مـع ادامـة النظـر، أخاطـب نفسـي بمـا هـو بـاق فـي ذاكـرة مرهقـة تمامـاً فيتبيـن لـي أن تطـوراً مثـل هـذا يخيـف فـي تحولـه الحـاد وكأنهـا تجربـة فـي التنويـم المغناطيسـي وقـد نوّمـت بهـا ومـا إن اسـتيقظت حتـى تغيّـر حولـي كل شـيء، لـم أفكـر فـي المـوت مطلقـاً ولـم أشـعر بحالـة الخـوف فـي حالـة تحـدّ لهـذه المفـردة المخيفـة ولكنّـي سـقطت فـي فـخ السـأم وكأن السـأم أشـد مـرارة علـى الإنسـان مـن أن يستشـعر خطـر المـوت، فمـن أصعـب الأشـياء أن تمـوت فـي الإنسـان رغبـه فـي الحيـاة..

قـد لا يحتـاج الأمـر إلـى تفسـير بقـدر مـا هـي تصرفـات العالـم الخارجـي مـن حولـي ووقعهـا علـيَّ، فمـن تحـرر مـن قيـود السـأم وجـد نفسـه الآن متنعمـاً بتجربـة الحالـم بـكل تفاصيلـه الطوباويـة، يتهلّـل وينبسـط

لرؤيتـه كلّ وجـه، عندمـا يتكلـم يجـد مـن يسـمع لـه وفـي ملامحـه ابتسـامة رضـى، قـد تكـون لهـذه النظـرة مـن الحـب والعطـف التـي لا توجـد فـي الإنسـانية فجـأة بقـدر مـا تُسـقى علـى أرض مجدبـة حـل فيهـا المـرض لتعـود لهـا الحيـاة مجـدداً، حينهـا تُسـقى بسـواعد مـن ذهـب، فتتكشـف حقيقـة ذلـك السـر الخفـي..

وهـذه السـواعد جـاءت لتنتشـلني ممّـا كنـت فيـه بـكل الحـب والعطـف لتحلـق بـي عاليـاً نحـو عالـم لا يعـرف سـوى الحـب، هـذه التجربـة لا يمكـن أن تأتـي بهـذه المشـاعر صدفـة، هـي شـديدة الوضـوح والمغـزى، إذ تضيـف بعـداً إنسـانياً بشـكل اسـتثنائي، فقـد اسـتمرت العيـون تومـئ بهـذا التعبيـر فـي مجالـي أينمـا حللـت، لتكتسـب ذاتـي مجـدداً مسـحة بيضـاء لا حمـراء تثيـر روح الثـأر ولا سـوداء تثيـر رغبـة فـي الخـوف مـن شـيء مـا، هـذا اللـون الجديـد المكتسـب لا يمكـن للعيـن أن تخطـئ فـي قراءتهـا واسـتنتاج المعنـى فـي دلالالتهـا تعبيـراً عـن الأصالـة فـي المجتمـع.

ومـع مـرور الوقـت استسـلمت تمامـاً للشـعور بالحنيـن الـذي أثارتـه هـذه الأحـداث فـي وقـت لـم يعـد مـن سـائل يسـأل عـن حالتـي لتصبـح حكايتـي ماضيـاً لا يُذكـر. قدمـت لـي الحيـاة صـورة جديـدة ومميـزة عنهـا كمـا قـدم تشايكوفسـكي فـي كسـارة البنـدق آلـة موسـيقية جديـدة لبيانـو صغيـر اسـتبدل أوتـاره بصفائـح معدنيـة لتعطـي صوتـاً مميـزاً وجميـلاً..

الفصل السابع

كانت حياتي تتحرك بسرعة دون اعتبار لكل حركة أقوم بها، فمهما بدت بسيطة هي أقرب للتناغم مع الذاكرة وهي تتنقل بي بين عاطفة وإحساس، بين حلم وذكرى، بين عادة وتكرار، بين مخيلة وإدراك حتى توقفت بي عند محطة أخرى جديدة تبدو وكأنها مسار إلزامي، جاءتني بعد أن قبلت في الجامعة، فتخصصت في علم الاجتماع، لأدخل أسوار هذه المدينة المعرفية بكل حماسة على الرغم من غيابي أسبوعاً كاملاً ولهذا الغياب القسري حجته فقد أخبرني أحدهم بأنه لن تكون هناك محاضرات لانشغال الجميع بالتسجيل وبإعطاء الجداول للطلبة، ومع هذا كنت ممتلئاً بالأمل لقرب الخوض في هذه التجربة، ففيها كما يقولون مساحة كي أفكّر، وما يسعني هنا إلا لأكون للفكر أقرب.

في المحاضرة الأولى جاء الدكتور فهد وقد عرفت اسمه من أحد الطلبة، يبدو أنه يتمتع بشخصية فريدة وعجيبة، كان يشرح بتفاعل مع الطلاب عن الواقع المجتمعي ونشأة علم الاجتماع، عن القيم المجتمعية، والبناء المجتمعي، جال بنا في الثورة الصناعية وكيف أنها هدمت النظام القديم، ليحط رحاله مع الثورة الفرنسية، وعما وصفه

بالمـأزق المجتمعـي شـديد الوطـأة فـي القـرن التاسـع عشـر، وكيـف كان لهـذه الأزمـة مـن مسـاهمة فـي نشـأة علـم الاجتمـاع، كان الدكتـور فهـد يتكلـم دون أن تكـون أمامـه ورقـة، يسـتحضر ذاكرتـه بطريقـة آسـرة حتـى انتهـى الوقـت ولـم يشـعر أحـد مـن الطلبـة بالوقـت، لينصـرف بعـد أن ودع الجميـع بابتسـامة هـي الابتسـامة نفسـها عندمـا دخـل علينـا بهـا فـي البدايـة..

انتهـى وقـت الاسـتمتاع وحـان الوقـت لمحاضـرة الدكتـور عبداللـه وخلافـاً للدكتـور فهـد كانـت ملامحـه تتكشـف بوجـه جـاف ليبـدأ بالـدرس وقـد نسـي أو تناسـى متعمـداً أن يرحـب بنـا، ولا أعلـم لمـاذا كل هـذا الصمـت والسـكون الذي عـم أرجـاء المـكان، لـم تمـض دقائـق وهـو يتفحـص الوجـوه واحـداً تلـو الآخـر ورائحـة دهـن العـود تتبعـه، حتـى وقـف أمامـي وأخـذ ينظـر إلـي باسـتعلاء شـديد ليباغتنـي بسـؤال:

- لِمَ غبت عن محاضرتي الأسبوع الماضي؟

بقيت متسمراً في مكاني وقد رُبط لساني فلم أنطق..

ليرفـع صوتـه عاليـاً طالبـاً منـي الحديـث، تلعثمـت بكلماتـي محـاولاً أن أشـرح لـه مـا حـدث معـي فتداخلـت الجمـل بعضهـا ببعـض، لـم يوقفنـي ليسـتفهم منـي الإجابـة بـل هددنـي بالحرمـان مـن هـذه المـادة وأنفاسـه الكريهـة تـكاد تحـرق وجهـي، لينصـرف عنـي بعدهـا فلـم أر سـوى عمامتـه وهـي تهتـز مـن حالـة الرعـب التـي حلـت بـي..

لـم يشـرح لنـا شـيئاً فقـد كان مشـغولاً فـي توجيـه أسـئلة لا علاقـة لهـا بعلـم الاجتمـاع حتـى خـرج، نظـرت إلـى يمينـي ثـم إلـى يسـاري فـي محاولـة

لاستنطاق أحدهم لتفسير هذه التصرفات فكانت الأصوات من حولي مبحوحة، خافتة، والنظرات خابية، لينطق أحدهم بصوت مسموع: «سألت عن هذا الدكتور فقيل لي إن محاضراته عقاب من السماء»..

كان الوصف دقيقاً، وفي أعماقي بداية تململ وكأن الظلال من بعيد توحي بالشك والخوف مجدداً ليشتد بي القلق والوجوم، فاستمرت معي هذه العادة السيئة في كتم أنفاسي في حضوره ولكنه في كل مرة يبادرني بسؤال قبل أن يبدأ بالشرح فشعرت أكثر بالقلق من هذا الرجل ومن تقصده لي، فلا يمكن له أن يستجيب إلا بالسخرية، لتتعالى الضحكات في القاعة وكأنني «الترمومتر» الحقيقي لقياس مصدر السعادة هنا!

وفي محاضرة له توجه على غير العادة إلى طالب آخر يشبهني في كل شيء وربما أسوأ، سأله عن «تعريف علم الاجتماع»؟

صمت الطالب وقد احمر وجهه بشكل ملحوظ ولم يقل شيئاً ليرد عليه الدكتور بسؤال آخر وكأَنْ لم يكن الأمر مزعجاً بالنسبة إليه..

- ما علاقة القهوة بعلم الاجتماع؟

تعالت الضحكات في القاعة واستمر صمت الطالب وكأنه يؤدي تمارين رياضة اليوغا ونظره إلى الأرض ولكن الدكتور هنا لم يبتسم بسخرية كما هي عادته وإنما طلب منه بأدب أن يجلس وأن ينتبه لما سيقوله..

ساد صمت قصير، ربما حاول الدكتور أن يعيد ضبط ذاكرته ليقول

لنـا شـيئاً، وقـد هربـت منـه الأنظـار لعلهـا تُفلـح فـي أن لا تقـع فـي مصيـدة هـذا المتسـلط القنـاص، حتـى سُـمع صوتـه مـن جديـد وقـد جـاء بنبـرة أعلـى:

«حـدد فرويـد الأنـا فـي «أنانـا الاجتماعـي».. وبالتالـي يصبـح تحديـد مـكان الأنـا علاقـات بيـن أشـخاص، الفـرد منكـم لـن يتطـور إلا باحتكاكـه بالواقـع الاجتماعـي وهـذا يحيلنـا إلـى الكائـن البشـري الآخـر، مـن المؤكـد أنكـم تملكـون مخيلـة ولا أعلـم مـا بداخلهـا وهـذه المخيلـة يجـب ان تنـأى بصاحبهـا عـن ملاحقـة كل مـا هـو سـائد مـن ثقافـة سـلبية ليتسـنى لصاحبهـا أن يلقـي علـى الموضـوع نظـرة جديـدة..

نـأى عـن الشـيء أي بعـد عنـه مـن حيـث المـكان أو الوقـت أو الطبيعـة، لا أريـد منكـم إجابـات تدفعهـا مخيلـة عاجـزة عـن التحـرر مـن الظـروف الشـخصية.. أنتـم هنـا تتواصلـون بلغـة وهـذه اللغـة قابعـة فـي مسـتودع الذاكـرة وبمـا فيهـا مـن أفـكار تخـرج كلماتكـم، حالـة مـن الضحـك علـى سـؤال القهـوة يكشـف لـي ضعفكـم فـي التفسـير وفـي التحليـل والقـدرة علـى فهـم هـذا التخصـص، فالقهـوة ليسـت مجـرد شـراب أو منبـه فـكل اثنيـن مهتميـن باللقـاء والحـوار تجمعهمـا قهـوة، وقـد يكـون علامـة فارقـة فـي روتيـن السـلوك الشـخصي، قـد تكـون سـعياً مباشـراً لتنـاول شـيء يحفـز الدمـاغ تحـت وطـأة سـاعات العمـل الطويلـة..

مـن الآن أقـول لكـم بـأن محاضراتـي كلهـا سـتكون تفاعليـة ومـن لا يعجبـه فلينسـحب مـن الآن، لـن أقبـل بالصمـت إجابـة، لابـد أن تتكلـم هنـا، وألا تخـاف مـن أن تقـع فـي الخطـأ فجميعكـم فـي مرحلـة بنـاء، علـم

الاجتماع معنّي بدراسة الحياة الاجتماعية والجماعات والمجتمعات الإنسانية، هو مشروع شديد التعقيد لأن موضوعه الأساسي هو سلوككم أنتم ككائنات اجتماعية»

طالبنا بأن نلتزم بالحضور وبالتركيز الكامل ولا يعلم الطالب فينا أي تركيز يقصد فلم تكن هناك كتب أو «مذكرة» نقرأ من خلالها المنهج المقرر، أحسست مجدداً وكأنني التائه الوحيد في هذا المكان، أسأل عن أشياء سخيفة فلا أجد لها إجابة، ومنهم أستاذ المعرفة من قبل فكرة أن الحزم هو الأساس الذي يقوم عليه التعليم، ما إن تظهر صورته أمامي حتى تجف الدماء في عروقي..

من قاعة إلى قاعة يتجدد الأمل مع الدكتور فهد، وحده من ينقلني إلى الوفرة في العلوم، أدخل القاعة في محاضراته فأجده قد سبق الجميع يقلب في العادة كتاباً وعلى الطاولة مجموعة أخرى من الكتب، أبتسم له لأنطلق في حماسة فأبحث لي عن مكان في الصف الأول، تذكرت كلماته وكأنها لا تحتاج إلى تدوين، هي تتغلغل داخل العقل بعناية فتعرف طريقها في معرفة تراكمية يحتاج إليها الطالب في رحلة البحث له عن ذات في أفضل مكان يفترض فيه التعلم، قال لنا ذات مرة:

«هذا العلم وُلد من عذابات المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر، دوركايم يرى في العلم مكاناً آخر عما هو معروف عنه في العلوم الإنسانية فهو يعتبر المقارنة التاريخية نوعاً من التجريب، وكأنه يقول

إن هـذا العلـم هـو فـي صميـم العلـوم التطبيقيـة لا شـكلاً مـن أشـكال الحـس المشـترك الـذي يتواصـل معـه، ويبقـى أن علـم الاجتمـاع حقـل متفجـر فـي الفـرد وفـي المعرفـة العاديـة، الفـرد هـو الموضـوع الحامـل لعلـم الاجتمـاع، ويمكـن شـرح تلـك التطـورات الحاصلـة فـي مجتمعاتنـا التـي صـارت أكثـر فأكثـر فردانيـة فـي محاضـرات قادمـة، وسـأعطيكم نبـذة عـن علـم الاجتمـاع الاقتصـادي وعلـم الاجتمـاع البيولوجـي وعلـم الاجتمـاع اللسـاني»..

كانت المواضيع محفزة لرغبة جادة في التعلم أكثر..

كان يخـرج عـن الموضـوع المـراد شـرحه وكان الطلبـة يسـتمتعون أكثـر بهـذا الخـروج عـن النـص، قـال لنـا مـرة وقـد أخذتـه الحماسـة أكثـر:

« هـذا الموضـوع يتجـاوز حـدود مادتنـا اليـوم ولكـن لا ضيـر فـي أن أتكلـم قليـلاً فـي قضايـا فرعيـة لكنّهـا مهمـة فـي علـم الاجتمـاع، وأهميتهـا تأتـي مـع السـياقات الاجتماعيـة التـي تُسـير سـلوكنا وتتحكـم فيـه، فنحـن نمتلـك ونصنـع شـخصيتنا الفرديـة وعلـم الاجتمـاع يتقصّـى الترابـط بيـن مـا يفعلـه بنـا المجتمـع مـن جهـة ومـا نفعلـه بأنفسـنا مـن جهـة أخـرى، إن تقديـر الـذات الإنسـانية هـم إنسـاني، يتميـز بـه الإنسـان عـن الحيـوان ولهـذا قـد يقتـل الإنسـان أخـاه الإنسـان عندمـا تُسـلب هـذه الغريـزة منـه، لـن تجـد هـذا الصـراع عنـد الحيوانـات فـي الغالـب، ومـع كثـرة الحـروب تطـورت التقنيـة وتطـورت العلـوم علـى حسـاب تطـور الفنـون والتقـدم الاجتماعـي، كانـت القيـم محـل جـدل لا ينتهـي بيـن الفلاسـفة وفـي عقـول المفكريـن، ابتـداءً مـن الشـرق القديـم فـي بـلاد مصـر والعـراق وفـارس، ومـع اليونانييـن حتـى

وصلت إلى التفكير العقلاني مع ديكارت فجاءت بعدها محاولات جادة لإبعاد الأنا من الذات المتفلسفة التي تحمل في معنى ذات الفيلسوف قيمة للتفكير، أنت تفكر فلِمَ أهتم أنا، جاء كانط وقد غاب عنه النسق الفلسفي ليجده متكاملاً عند تلميذه النجيب فيخته المتعصب للعرق الالماني والذي ما لبث أن هاجم أستاذه ليشرب من الكأس نفسها ومن تلميذه المتفوق شيلنج ليبعد الأضواء عنه بعد فترة، وقد احتاج شيلنج إلى مساعدة من تلميذه الأكبر سناً هيغل، فكان له ما أراد وغاب فيخته عن المشهد الفلسفي لكنه بقي في ذاكرة الهائمين بانتماء قومي، ولتبقى الساحة بين شيلنج وهيغل فكانت النتيجة أن غاب أيضاً شيلنج وبقي هيغل وحيداً في الساحة حتى وفاته، خرج بفلسفة التاريخ وفيها أن التاريخ يصحح مساره بنفسه حتى ينتهي عند أعلى نقطة تتحقق بها الإنسانية، وصل بنا هذا التاريخ المهول إلى القيم إلى تساؤلات منها أيهما يسبق الآخر، مفهوم الحرية أم مفهوما العدالة والمساواة، إشكالية الفلسفة مع حقوق الإنسان في كل بقعة من الأرض تقريباً، هي إشكالية ليبرالية رأسمالية ترفع شعار الحرية أولاً ضد اشتراكية شيوعية ترفع شعار العدل والمساواة على حساب الحرية، ذهب الاتحاد السوفياتي فبقيت الصين في وجه أميركا والغرب بعدالة وتنمية اقتصادية جاءت على حساب الحرية للفرد، هذه الإشكالية مستمرة في التنظير الفلسفي وهي مسألة في البراغماتية وأساس في الفلسفة الوجودية»

في هذه اللحظة كنت في فضول لأن أوقف الدكتور أثناء الشرح

كـي أسـأله، فتذكـرت أنـه قـد كثُـرت علـي الأسـماء، لأفضـل الصمـت لتبقـى تسـاؤلاتي فـي الذاكـرة ومعهـا تصميـم علـى أن أبحـث عنهـا فـي مصـادر أخـرى.

لـم أفهـم سـوى القليـل ولكـن هـذا الدكتـور يعجبنـي فغالبـاً مـا تكـون كلماتـه بـذوراً ينثرهـا بعنايـة علـى سـطح التفكيـر لتجـد مـن يعتنـي بهـا ويسـقيها، أُعجبـت بهـذا الرجـل وآمنـت بفكـره وفـي الأفـق رغبـة منـه أكيـدة فـي التواصـل معنـا، فقـد قـال لنـا مـرة : «لا تقلقـوا ففـي أي لحظـة تشـعُرونَ فيهـا أنَّكـمْ لا تفهمـون شـيئاً بمقدوركُـمْ أن توقفونـي وتسـألوني»

وفـي صبـاح اليـوم التالـي كانـت محاضـرة الدكتورعبداللـه هـي الأولـى، فابتـدأ شـيء مـا خفيـاً بإظهـار علامـات اضطـراب نفسـية، كنـت اسـمع أصواتـاً وكان ينتابنـي شـعور بأننـي سـأجن ومـا إن دخـل عليهـم، حتـى نـادى اسـمي وكأن عسـاف قـادم مـن سـماء أخـرى!

ولكـن فـي هـذه المـرة تكلمـت مـع تزايـد الضغـط والوجـع بمـا رسـخ بذاكرتـي مـن محاضرتـه السـابقة ولـم يـرد علـي سـوى بهـذه الجملـة: «ركـز يـا عسـاف»..

عـرف اسـمي مـن بيـن المجموعـة ولا أعلـم لمـاذا أنـا بالـذات، لكنّنـي نجـوت مـن عقـاب لفظـي يبـدع فيـه هـذا الرجـل..

ومـا إن خـرج الدكتـور حتـى التفـت إلـيَّ طالـب كان عـن يمينـي وكأنـه يراقـب التفاصيـل الصغيـرة فـي كل يـوم، قائـلاً:

«اليوم براءة»..

اكتفيت بتمرير ابتسامة له..

أنا على اقتناع الآن بأن أحدهم يحاول مراقبة أفكاري وقيادتي من الداخل، صرت عرضة لنوبات هذيان المراقبة لينتهي الأمر بي بعدم القدرة على التركيز، وحل هذه العقدة عند من يقولون عنه إنه قد تخرج في جامعة السوربون وله أعمال بحثية ومتمكن في معرفته لهذا هو هنا لحل هذه العقدة وإن كنت لا أحب أن يفاجئني أحد وقد تصل تصرفاتي إلى حد الانفعال وهو السر الخفي الذي اكتشفته متأخراً في هذه الجامعة، لم أقرأ شيئاً عن محاضرته السابقة ولكني أحسست بشيء من الرهبة وأنا أشاهد معالم هذا الوجه القبيح عن قرب فكانت معرفتي للحدس أقرب، لقد كان عقلي حدسياً أكثر منه استدلالياً وهذا التحول مقبول طالما أن دراستي في حدود المحيط الإنساني، الملاحظة والوصف والحدس أسرار جاءت بها تجربة حياتية سابقة..

مع كل هذا التنفس الهائل للحياة اقتربت الاختبارات النهائية وعلي إنهاء ما قد بدأته هنا، لكن حدث ما لم أكن أتوقعه، معاناة مع ألم المعدة، فوتت علي حضور ثلاثة اختبارات، ومع حالة الارتباك لغيابي المفاجئ، كانت الحصيلة فيما تبقى في أسوأ صورة ممكنة بعد أن كان جزء مني يعاني والجزء الآخر يتأمل وقع هذه المعاناة، جزء منه كان يزحف وجزء على وشك أن يقوم بالفعل نفسه في رحلة التقدم، تحملت الألم دون أن أذهب إلى المستشفى وهو خطأ مني لا يغتفر فقد رفض الدكتور عبدالله ومعه دكتور آخر ولم تقبل له إعادة لما فاتني، بحثت عن وساطات تنقذني من هذا الموقف فذهبت كل محاولاتي مع زبد الماء، حاولت مع الدكتور فهد ثم العميد، من دون نتيجة..

الفصل الثامن

أذكر تفاصيل هذا اليوم تحديداً، فهو يوم إعلان النتائج النهائية في الجامعة وقد استغرق معي الوقت ساعة أو ساعتين داخل مقهى عابر، جلست فيه لرغبتي في معانقة هذه اللحظة في التأمل، لم أعد أشعر بالوقت مع أن إحساس المكان يبعث على البرودة في الداخل وفي الخارج حرارة شهر أغسطس الحارقة، أجاهد نفسي مرة في محاولة الفهم بلغة أخرى كي أحصل على مرادي من القهوة ومرة في عبث ألتف وأنا أحد الناطقين بلغة الضاد بالواقع الجديد مع هذا التسلسل من الحقائق التي قلما كانت صديقة لأحد..

ركبت سيارتي وكأنها هي الأخرى تستجيب لإشارات ما، فجهاز التكييف تعطل فجأة وتلك المرآة إلى جانبي مكسورة، انطلقت نحو الجامعة وفي الطريق كنت أجهد نفسي لإزالة شعور آخر مختلف في محاولة يائسة لتجاوز أعمق نحو الوصول إلى حالات شفاء فعلية عوضاً عن مراقبة بداية ظهور الأعراض، لا أريد من هذه الأشياء أن تتسرب إلى عقلي خلسة فتنطبق على تنبؤاتي في استنطاق حاضر المستقبل، فأن تكون مزدوج اللسان فأنت معني أولاً بإنتاج معنى بين لغتين، وأن

تكـون مـزدوج العقـل فأنـت أقـرب لحالـة فصـام وضحيـة لمجموعـة أفـكار داخليـة..

وصلـت إلـى الجامعـة وأخـذت أمشـي باتجـاه مبنـى العلـوم الاجتماعيـة ومـا إن رأيـت النتائج حتـى تأكـد لـي حدسـي فقـد كانـت محبطـة لدرجـة أننـي لا أسـتطيع أن أدخـل فـي دائـرة الأمـان كـي أبقـى مسـتمراً فـي الجامعـة، ومـع هـذا اتخـذت قـراراً حاسـماً بـأن أبقـى مناضـلاً فـي سـبيل العلـم، لا مانـع مـن خـوض جولـة أخـرى تتدلـى علـى خيـط عنكبـوت لأرى بنفسـي النتيجـة النهائيـة فـي السـقوط..

لـم ألمـح أحـداً ممـن أعرفهـم فـي المـكان فانسـحبت سـريعاً وأي روح تلـك التـي أحتـاج إليهـا لأكـون فـي حالـة أفضـل، ركبـت سـيارتي ورحلـت وبفعل الحـرارة بـت أفكـر بطريقـة أخـرى في حلـول، لِمَ لا يكـون لعـدم قدرتـي علـى اتخـاذ قـرار هـو فـي الأصـل قلـق غيـر طبيعـي طالمـا أن كل حريـة أمارسـها يفتـرض أن تكـون فـي النهايـة فعـلاً، وكل فعـل هـو اختيـار، ومـا الاختيـار فـي حقيقتـه إلا قـرار ولطالمـا كان صاحـب هـذا الفعـل الطبيعـي قلقـاً..

ظهـرت ملامـح كل هـذه الجاذبيـة فـي العلـوم، وفـي الأدب، وكل الفنـون وكأنهـا شـكل مـن أشـكال الحكايـات لا تعطـي جوابـاً واضحـاً، هـي مُثـل مجـرّدة تفـرض علـيَّ سـلطة الحقيقـة لا أكثـر، وفـي عوالـم الأشـخاص لـم يعـد لـي فـي هـذه الدائـرة مـن رفـاق حقيقييـن، مـع أنـي تعرفـت هنـا إلـى

كثيـر مـن الرفقـة دون أن يكـون هـذا دافعـاً لتقريـب وجهـات النظـر فـي كل نقـاش فقـد كانـت كلماتهـم تخـرج علـى شـكل زلات لسـان وأكاذيـب، ألسـنتهم لا تكـف عـن الشـتيمة والصـراخ كـي يعبـروا عـن آرائهـم وهـي فـي الغالـب تكـرار لمـا قالـوه بالأمـس، وكأنهـم جـاؤوا لتأريـث كل مـا هـو سـائد وتعميمـه علـى أنـه هـو الحـق ولا شـيء غيـره..

لـم أنـس موقفـاً حـدث أمامـي فـي سـاحة الجامعـة فـي وقـت كان بيـن المحاضـرات وقـد مـر بجانبـي شـاب مـن منطقـة الجنـوب اسـمه مـروان حيـث القريـة وطيبـة أهلهـا، وكان مـن طبعـه التواصـل مـع الآخريـن بطريقـة مقـززة ولـم أكـن أراه إلا وفـي يـده سـيجارة، غـاب فتـرة ليسـت بالقصيـرة واعتقـد الجميـع أنـه قـد مـر بظـروف أسـرية قاهـرة جعلتـه يحـذف هـذا الفصـل الدراسـي، لكنـه عـاد فـي يـوم ليلتقـي أصحابـه بعـد غيـاب، فجـاءت كلماتـه ناطقـة بتـرك كل شـيء الآن واللحـاق بركـب الحيـاة الخالـدة فـي حيـاة أخـرى، كنـت أسـمعه يقـول :

«نحـن الآن فـي زمـن المعـارك وهديـر المدافـع فالحيـاة لا تجـري بسـلام، الكفـرة يترصـدون لأخـوة لنـا فـي كل مـكان»..

بـدأت رحلـة الإصـلاح منـه فـي تقـوى اللـه وأن الجهـاد حـق وأمـور كثيـرة أيقنـت معهـا أن هـذا الرجـل قـد تحـول فكريـاً فقـد كان الشـكل ظاهـراً فـي البدايـة ولكـن ليـس بالدليـل الكامـل، رحـل دون أن يسـمع منّـا كلمـة توافقـه أو تخالفـه فـي مـا ذهـب إليـه..

التزمت الصمت وبداخلي أكثر من سؤال، نظرت إلى من كان يسمع حديثه بنظرة أسى وألم، وكان مثلي في حيرة لكنّه كسرها بقوله:

«التدخين ضرره بدني ولا يضر إلا صاحبه، أما التشدد والغلو في الفكرة فضرره عقلي قد لا يضر صاحبه وحده طالما أنه اقتنع بل يصل إلى غيره، من أفسد عقل مروان هو في مكان خفي ينعم بكل مقومات الحياة الكريمة»..

أجبته بتسليم وكأني لا اكترث لهذا الحديث أو ذاك..

لكنّ هذا الموقف ترك في أعماقي أكثر من علامة استفهام، فكل سنوات عمري تدور حول مركز ثقل معرفي لا يدور إلا في فلك الحقيقة والسلطة، ومن له إمكانية صياغة الحقائق يملك السلطة في التعبير عنها كما يريد ولا يهم إن كنّا نحن العوام نرى أنه يملك حقاً نبوغاً أو موهبة.

في هذا المكان حدثت حوادث كثيرة وتجارب مفاجئة كان لها أثر كبير في صياغة طرائق تفكير جديدة، مستخدماً طرائق تقليدية مألوفة في عنفوان الشباب، هذه الثورة أثارت في نفسي شيئاً أعمق من مجرد بحث عن لغة الأشياء بعيداً عن صفتها الأولية، فما إن تتحول الكلمات المنطقية إلى الزيف والخداع حتى تصبح في مكان أقل من لغة أولية لتشكل مشكلة في التفسير، وفي هذه الحالة الصعبة جداً من له أن يجرؤ على ممارسة ما يقال عن القوة في الإرادة.

هنا وفي هذا المكان كان يتجول مروان كما كان غيره يفعل فينطقون بأفعال البشر كي تُنسج حكاياتهم في محاولة للملمة شخوصها

فـلا تكـون إلا نمطـاً ثابتـاً لحبـكات مرنـة تتمـدد بالتفاعـل السـلبي، دون أن تتقلـص.

مـا زال الطريـق أمامـي طويـلاً ولا حاجـة لـي إلـى الاسـتمرار، فعلـيَّ أولاً، أن أنظـر إلـى نفسـي باعتبـاري المتأمـل الوحيـد فـي سـلوك الآخريـن، وكل تصـرف أراه علـى الأرض مـا هـو إلا إربـاك فـي حـدود ذرة واحـدة مـن مقـدرة البشـر المعرفيـة، إن قسـتها بالعمـل التراكمـي فحـدودي فـي تجربـة حياتيـة لا توحـي بهـذا المقـدار الهائـل مـن التعقيـد فـي التواصـل مـع الآخريـن، ولا بوجود هـذه الصراعـات بيـن البشـر الذيـن هـم فـي النهايـة يمثلـون المجتمـع، هنـا أدرس هـذا المجتمـع مـن أجـل أن أعيـش الحيـاة فيهـا بصـورة أفضـل، ولهـذا زادت حيرتـي مـع هـذا التخصـص فكلمـا تعمقـت أكثـر، باتـت حـدود التشـاؤم أكبـر، ومـع هـذا يأتـي صـوت التفـاؤل قائـلاً:

«إنهم يقسون عليك فلا تنسحب، الحياة سليلة الملاحم الإنسانية»

صـوت أعرفـه وأميـزه ولـه وقـع خـاص فـي نفسـي ولكـن فـي هـذه المـرة يُسـمع بنكهـة مختلفـة علـى النفـس، فمـا زلـت أجيـش بعاطفـة حالمـة سـبق للزمـان وللمـكان أن تغنيـا بهـا، تشـبه نغمـات النـاي ذلـك الصـوت اللامتوقـع الأخـاذ والقـادم مـن الغرفـة رقـم سـبعة، تطـرب معـه كل تلـك القلـوب المـلأى بالحـب مـن كانـت تعطـي ولا تأخـذ لـم تعـد موجـودة الآن، وفـي الانتظـار كـي تشـرق مـرة أخـرى بصورتهـا الحقيقيـة كـي يشـرق معهـا كل وجـه فـي تناغـم، فأنعـم بكلمـات لا تكـدر صفـوي، فـي الانتظـار

لحياة عندما تعطي فإنها تعطي الكثير، ورب قليل يغني عن كثير، وكلمة تغني عن خطبة، هي موجودة فعلاً ولو لم أعشها كتجربة لما سلمت بحقيقة هذه المثالية الحالمة، لا أريد أن أقع في خانة المرض مرة أخرى كي تعود إليّ من جديد.

مرت الأيام وأنا غارق في دوامة التفكير بين حالتين متناقضتين، وعليَّ أن أختار بين الروايتين، أيهما أكثر صدقاً، وبما أنها كانت تجربة معيشة تبعت الرواية الأصدق، لم أقرر بعد ترك الجامعة فأنا مستمر في عنادي وإن أحسست برغبة حقيقية في مغادرة كل الوجوه التي تدرس علم الاجتماع فهي لا تشعر بشيء، تفضّل إنفاق مالها على الطعام وعلى الثياب ذات العلامة التجارية، ورائحة السجائر تعبث بهم وبالمكان، قبيحو المظهر على الرغم من هيئة النظافة في ملابسهم، مللت المكان، فبدا الوضعُ كما لو كان التوتر هو المسيطر، هذا الشعور تسبب لي بحرية أكبر تأتي بعكس ما هو متوقع، أحسست بنبض قلب جديد لحياة أجمل خارج هذا المحيط، فشعرت بروح تفيض بفرح غامر، خُيِّل إليَّ أن المدينة هي القرية، والقرية هي نفسها المدينة، فهي مدينة وأهلها كأهل القرى فمن بين الجبال التي هي المباني الضخمة تطل هذه المدينة القرية بشموخ أهلها وبساطتهم، لا تشدهم مهازل الاستمتاع بعيوب الآخرين ولا بذكر مساوئهم، هم ملح هذه الأرض، لم يجرؤ أحد قطّ على القول بأن هذا العالم موجود فقط على الورق ويستحيل تطبيقه واقعاً ملموساً لأن في الفعل باختصار تلقائية، رأيت

هـذا وأكثـر، مـن النـاس بروعتهـم، ومـن الطبيعـة بجمالهـا وخضرتهـا، فـي محيط جديد يسحر الألباب، لا توجد لدي مساحة من أي لون عدا الأبيض في داخل قلب مثخن بالتجربة، لم أنتظر أملاً قد سُرق مني عمداً داخل أسوار الجامعة، فكان هذا المسار يختلف بالنسبة إلي عما كنت عليه في السابق ولا مجال في الاستمرار معه، عين أخرى لا ترى طريقاً لها إلا نحو التمسك بتجربة سابقة بأي طريقة ممكنة، لأستمر في رحلتي دون توقف، ووقودي قناعات أخرى جديدة نحو رحلة التمرد على الذات، ولأعلن عن قراري النهائي ترك الجامعة بشكل حاسم مع نهاية اختبارات الترم الثاني بعد أن جاءت محبطة..

أرى في نفسي أنها قد وصلت إلى مرحلة النضج الانفعالي فأحببت نفسي وأعُجبت بذاتي بشكل يفوق المعتاد لأرتد عن المسار برغبة مني لا بتوجيه قسري يأتيني من أحد، أنا من يقرر وأنا من سيتحمل وكم كنت سعيداً بهذا القرار، سأتبع من وصف الإنسان بأن لا علاقة له بالنسيان، فالذات ذاتي وقد حان لها ألا تخضع للمألوف مهما تكن النتيجة، وكأن في هذا الشعور بداية جديدة لأن تمنحني الحياة بعضاً من القيمة للأشياء، هذا ما كنت أفكر فيه حينها وهذا بالضبط ما حدث معي بعدما كُشف قناع الحياة الذي يصعب معه لشاب في مقتبل العمر التعايش معه إلا بالهرب في كل مرة، فكان الهرب من عالم الذكور لأكتشف غياب الأنثى في حياتي، يقولون ذكر بلا أنثى كسمكة من دون ماء، أو هي أشبه بحالة جوع عاطفي أخضعتني لأن أقتات

مـن طبـق الغـزل، لـم تكـن هنـاك أنثـى تشـغلني سـوى ذكريـات يائسـة لتلـك التـي عشـتها فـي طفولتـي، ذكـرى نـورة حاضـرة بقـوة فهـي مـن عكسـت لـي بمرآتهـا صورتـي الحقيقيـة، ومـا زلـت أحتفـظ لهـا بـكل التفاصيـل كمـا لـو كانـت قطعـة مـن البرونـز قـام بنحتهـا أعظـم النحاتيـن فـي ذاكرتـي، وليتـه انشـغل بعمـل آخـر..

جاءتنـي هـذه الأفـكار فهربـت مـن القسـوة بحثـاً عـن الليونـة، مـن الخشـونة كـي أنعـم بالنعومـة، فبقيـت متسـمراً فـي مكانـي أتذكـر وأتخيـل وقـد جرنـي الحنيـن إلـى الحـب، حالـة مـن الجنـون، مـن العبـث، وقليـل مـن السـأم يقـف بينـي وبيـن مقـدرة الخيـال علـى أن تنتعـش أكثـر، فقـد بلغـت مـن العمـر أربعـة وعشـرين عامـاً..

أربعـة وعشـرون ربيعـاً ولـم يكـن الربيـع حاضـراً، ولـم يكـن للحـب فرصـة أخـرى للظهـور حتـى ظهـرت لـي هـذه «الياسـمين» لأولـد ثانيـة فـي فضـاءات أرحـب، لهـا مـن اسـمها نصيـب يوحـي بفصـل الربيـع، فكـرت فيهـا باستسـلام أليـم، أوجدهـا مـن العـدم خيـال خصـب فمثلهـا فـي صـورة الأنثـى الكاملـة التـي لا تقبـل سـوى الكمـال، الصدفـة وحدهـا مـن دفعتنـي لشـراء كتابهـا، ففـي حالـة مـن حـالات السـأم تذكـرت سـلمان ومجموعـة الكتـب فقـررت مباشـرة أن أذهـب إلـى المكتبـة فـي محاولـة لكسـر هـذا الحاجـز بالقـراءة، ومـا إن وصلـت حتـى وجدتهـا تفتـح أبوابهـا فـي الحـال، كان هنـاك عـدد كبيـر مـن النـاس ينتظـرون أميـن المكتبـة، ولـم يكـن معـي سـوى مبلـغ قليـل مـن المـال، أردت مـن أميـن المكتبـة أن يقتـرح علـي اسـم أي كتـاب

علـه يخرجنـي مـن حالـة الفـراغ، لـم أسـتطع أن أحادثـه مـع عـدد كهـذا مـن القـراء فـي المكتبـة، هـم لا يتوزعـون حـول الأرفـف بـل هـم ملتفـون فـي محيطـه، يخاطبونـه بصـوت جهـوري ويتكلمـون معـه ولا يوجـد فـي المكتبـة سـواه، فذهبـت إلـى إحـدى الزوايـا فـكان الاسـم بـارزاً لكتـاب لونـه أحمـر يختلـف عـن بقيـة الكتـب وعنوانـه ربيـع الفصـول والاسـم لياسـمين علـي، فاجتاحتنـي حماسـة رغبـة لا تقـاوم فـي أخـذ الكتـاب دون ان أتصفحـه بعـد أن شـاهدت سـعره وكان مناسـباً، وفـي مقهـى قريـب كانـت البدايـة مـع هـذه الكاتبـة لتمتـد إلـى ممارسـة للقـراءة فـي كل يـوم مـع صفحـات هـذا الكتـاب، توقـد جَمْـرُ أفكارهـا فأحرقتنـي بنـار الفضـول، كان الكتـاب فـي مائـة وثمانيـن صفحـة تقريبـاً والمفتـرض أن يكـون سـهل القـراءة لـي ولكنـي لسـت مـن هـواة هـذا العالـم فـي القـراءة فلـم أقـرأ سـوى تلـك الكتـب التـي أتتنـي هديـة مـن صاحبـي سـلمان الذيـن يطلقـون عليـه فـي المدرسـة «دودة الكتـب»، ليسـتغرق هـذا الكتـاب معـي أسـبوعاً كامـلاً وقـد أُعجبـت بمـا تحتويـه هـذه الكاتبـة مـن مخيلـة ليعاودنـي الحنيـن فـي كل مـرة إلـى قراءتـه حتـى حفظـت كل كلمـة موجـودة ورسـمت للمؤلفـة صـورة مثاليـة تشـبه حروفهـا، وكلمـا تعمقـت أكثـر فـي الكتـاب بقيـت مفتونـاً معهـا بإغـواء ظاهـر فـي الكتابـة وآخـر خفـي يحكـي كل التفاصيـل فـي إغـواء الأنثـى، بحثـت لهـا عـن عنـوان فـي موقـع إلكترونـي عـن أي شـيء فـي الانترنـت ولـم أجـد، فبقـي كتابهـا إلـى جانبـي أتصفحـه فـي كل ليلـة ولا أعلـم سـر الاهتمـام بهـا، حتـى تذكـرت مـا قـد أخبرنـي بـه زميـل فـي الجامعـة عـن موقـع تفاعلـي اجتماعـي أسـتطيع

أن أتواصل مع من أريد، أنشأت لي حساباً فيه باسم «تشايكوفسكي» ولتبدأ رحلة البحث عن الياسمين، لم يكن في ذهني سوى اسمها، فبحثت عنها، ولهول الصدمة كان اسمها موجوداً فأرسلت إليها طلباً بقبول صداقتي قبل أن أُعرِّفَ بنفسي في هذا الموقع فكل ما وضعته كان اسماً لموسيقي حالم، لا شعورياً اخترت هذا الاسم، ولا أعلم سر هذا التقنع، فقد كانت كل الأسماء الأخرى توحي بشيء من المصداقية ومن الوضوح..

بدأت رحلتي مع هذا الموقع بتحميل أجمل المعزوفات وكأنها إشارة إلى التناغم مع الاسم الذي جاء تلقائياً، كانت البداية مع معزوفة الأميرة النائمة ولكسارة البندق فبحيرة البجع، الكتابة هنا آسرة وأنا لا أملك أدواتها، وكأن الكلمات تتنقل في جنون بين حالة وحالة، فلا تخفي أسراراً يتقنع بها البشر لالتماس عذرها عند تجاوز حدود الذات..

يوم ثم يومان ولم يصل منها رد..

لتمتد قدمي كجذر في هذه الأرض الافتراضية، وبها ثمة دوائر تبقي الإنسان في حالة من التيه أشبه بدوار البحر، بات الحب عندي أمراً يتصل بالغرابة، بالعاطفة، لا بالإرادة، أحب لأني أريد الحب فقررت أن أستمر بخيالي في مرحلة توظيف لهذه الملكة في ليلة عاصفة وحالمة في الوقت نفسه، فقلت لها:

«هذه الأشياء من حولي تقيم علي الحد تأملاً فيك، حتى وإن

كانت تأخذ مني على قدر ما كانت تعطيني بحذر، بعضها بلا كتلة لكنّه كمن غُرس في الأرض ثقلاً، ليملأ المكان بأحلام تسايرها ذاكرة، فيعزف بصمته لكِ لحناً بنكهة المطر، ولأنّكِ حاضرةٌ فيهم، أقرأُكِ الآن لأعشق، لعلَّ عقدتي تنحل، أقرأُكِ كثيراً حتى توسّلتُ إلى كل قلب صارخاً: سأعترف لكم يا سادة يا كرام بأن لي عينين بهما أقرأ، ويدين أمتص بهما الفكرة فأكتب لكم: هذه الأنثى لوجودها أرتعب، وعند حضورها أنصرف، فأحترق»..

وفي اليقظة لحظات آسرة مع صفحات من كتاب ربيع الفصول، في كل يوم أنعم بلحظة صفاء، حتى تعلقت باسم ياسمين، وما إن أتذكر رفضها لطلب القبول على موقع التعارف الشهير، حتى استمر بشراهة دون أن أهتم..

فتحت صفحتي مرة ومرتين وثلاث مرات ولم يأتِ من ملكة البجع الجديدة أيّ رد حتى الآن، فكتبت لها رسالة أخرى طويلة وأنيقة بنظري، كتبتها بحرية وجرأة ولم أنتبه لنقاط الضعف في شخصيتي، كتبتها بمحض إرادتي، كتبتها في لحظة صفاء، هذه الطقوس تعلمتها من أخي عامر، لأختم رسالتي بطلب قبول «الصداقة» ومن ثم وبضغطة زر واحدة تم الإرسال دون الحاجة إلى طابع أو حتى الذهاب إلى مكتب البريد..

أتخيلها ولا أراها، ومع هذا أهواها، وفي الخفاء أرعى ذلك الحب، فهي قد أصبحت فتاتي ولابد لي أن أرعاها، ليبقى الخيال في

الإطـار العـام «حُلـم»، يهيـئ لـي بطبيعـة السـلوك أفضـل الفـرص، لا يحظـى بـه العـارف كسـاكن فـي هـذا العالـم، لا ولا الجاهـل بأولويـة تحقيقـه علـى أرض الواقـع..

كل المحـاولات أتذكرهـا تطـل علـي بصـورة تُجبـر مـن ليـس لـه عقـل علـى تتبـع رغباتـه، أنظـر إلـى صفحتـي الفارغـة تمامـاً، مستسـلماً لقوانيـن هـذا العالـم الافتراضـي، اختـرت مـن بيـن جميـع الأسـماء «تشايكوفسـكي»، ولهـذا الاسـم حكايـة فأنـا العـازف حتـى عـن نفسـي، وعلـى أنغـام بحيـرة البجـع كانـت تتراقـص أمامـي زهـرة ياسـمين وكأنهـا الملكـة، طلبـت منهـا أن تبقـى وألا تخـاف منـي، كـي أتعـرف إليهـا أكثـر، فأنـا وحـدي مـن سـينقذها..

الفصل التاسع

دارت الأيـام بـي بحثـاً عـن أكثـر التعابيـر رقـة للتسـلح بهـا فـي مواجهـة هـذه العوالـم الافتراضيـة، كأننـي مـن جملـة الحضـور فـي مبنـى مسـرح الـلا معقـول، ويبـدو كل شـيء للزائـر أشـد وضوحـاً لأنـه قـد كبـت نفسـه فبقـي سـاكناً لمشـاهدة عـرض لنـص يبحـث عـن ملحمـة السـؤال الأوحـد فـي كشـف نهايـات هـذه اللغـة، تظهـر البطلـة وقـد اكتسـت بالبيـاض لكنّـه رداء فـي نظـر المحافظيـن سيئ الصنـع محـوك مـن خيـوط التمـرد، فكانـت تلـك أولـى محاولاتهـا لأن تكـون علـى غيـر مـا هـي عليـه، لا تريـد مـن حـالات السـكون عنـد الحضـور أن تطـول فمـا زالـت علـى يقيـن بـأن هنـاك فـي الأفـق حلـولاً فـي رغبـة الجسـد، تحـاول وأنـا ومـن معـي مـن الزائريـن خلفهـا نحـاول عبثـاً فـي هـذه العوالـم الافتراضيـة أن نتلمـس شـيئاً مـن سـحر المسـرح بملكـة التخيـل قبـل أن يخيـم الوجـوم علـى وجـوه مـن توافـدوا لمشـاهدة هـذا العـرض. الحضـور وأنـا نعـرف جيـداً مـا لهـذا الخيـال مـن قـوة فـي التمتـع الذاتـي لكشـف مشـاهد فسـيحة فـي فضـاءات التواصـل.

قيـل لـي مـرة بـأن الغلبـة لملكـة الإدراك دائمـاً، ومـع هـذا لـم أتوقـف،

أتخيـل هـذه الياسـمين فأسـتمر فـي مشـهد تمثيلـي يجـري فـي هـذا المـدى الـلا متناهـي..

أسـمعها بفعـل هـذه المخيلـة وهـي تقـول لـي : مـن أنـت يـا هـذا؟ ومـن تكـون لتقتحـم قلعتـي المحصنة ؟

لأجاوبهـا فـي صدري: «أنـا مـن جـاءكِ فجـأة، علـى غفلـةِ الواشـين يشـكو إليـك برِفـقٍ، وأنـا وحـدي مـن جـاء برغبـة، وإن رفلـت كلماتـي فـي فوضـى، فـلا عليـكِ سـوى ترتيبهـا، وهـي لعبتـك المفضلـة حتـى أكـون لـك العاشـق الـذي لـم يُعشـق، والشـاعر الـذي لـم يكتـب قصيدتـه بعـد»..

بـات الأمـس ينفـثُ فـي كل صبـح آهـاتٍ، لينفـض الغبار عـن أثاثـه فيخلق عالمـاً جديـداً لا مـكان فيـه لبشـر، لا مـكان لمـن يُثقـل ذاكرتـي بأحمـال الوجـع، فتمـر علـيَّ ضوضـاء المدينـة جامـدة، منغلقـة، فأغطيهـا أكثـر برائحـة العزلـة والسـكينة. وكـي أتخلـص مـن بعـض القيـود بقيـت علـى هـذه الحالـة أيامـاً، هربـاً مـن عالـم مـن شـأنه أن يبقينـي فـي دائـرة التـأزم المجتمعـي فالتفّـت حولـي أفـكار سـوداء لا أقـوى معهـا أن أسـتوفي حقهـا فـي الـكلام علنـاً، لا منـاص لأيـة رغبـة مفقـودة عنـد الأطفـال وعنـد الشـيوخ مـن الاسـتنجاد بالعزلـة..

مـرت علـيَّ أيـام وأنـا علـى هـذه الحـال، ولكـن الـروح القلقـة لا تهـدأ والإثـارة فيهـا مسـتمرة، بقيـت أيامـاً وأنـا أقـرأ مـا يُكتـب فـي هـذا الموقـع الافتراضـي وكأن فيهـا كمـاً هائـلاً مـن التغيّـرات لا تتـم إلّا بمفعـول الزمـن، هـي مشـاعر سـرعان مـا تنقلـب إلـى أفـكار متـى مـا كفـت عـن مخاطبـة القلـب،

حاولـت أن أكتـب فوجـدت أن كتابتـي خشـنة لا تعبـر إلا عـن لغـة قديمـة، فصـرت أبحـث عـن أسـماء لمتابعتهـا ولهـول المفأجـاة بـرز لـي فـي لحظـة اسـم المهنـدس سـيف ولـه ملامـح فتـى القريـة مـع فـرق أن كل شـيء مـن خـلال الصـورة يوحـي بالجديـد وبغـلاء الثمـن ربمـا كانـت تعكسـها نظارتـه ذات الإطـار الأسـود، وكتاباتـه التـي تبـدو وكأنهـا مفكـرة ثقافيـة متنوعـة تتسـم بالحماسـة للنـاس العادييـن وبخاصـة المسـحوقين، يكـره قـوى المجتمـع الحديـث فارتسـمت صورتـه فـي الماضـي وهـو يصـارع الحيـاة وتصارعـه ولـم تتركـه إلا وقـد أخـذت منـه الأب والأم ..

لقـد وضعـت لاسـمي لقبـاً مسـتعاراً وسـيف وضـع اسـمه بالكامـل ولكـن مسـبوقاً بكلمـة المهنـدس وهـذا يعنـي أنـه عـاد إلـى متابعـة دراسـته، يبـدو مختلفـاً عمّـا كان، أسـئلة جعلتنـي فـي دوامـة الفضـول، أضفتـه كصديـق مـع تسـاؤل عـمّ إذا كان هـو أم لا؟

لـم يسـتمر الوضـع طويـلاً فقـد قبـل بـي كصديـق ومـا إن راسـلته حتـى عـرف بنفسـه فـكان بالفعـل صديـق الطفولـة. كـم كان الأمـر جميـلاً فقائمـة الرفـاق بـدأت بالانحسـار وأحتـاج إلـى رفقـة جديـدة.

كان حديثـه مـع أول مكالمـة يخفـي ذلـك الرعـب الكامـن فـي اعماقـه وهـي آخـر مشـهد فـي ذاكرتـي لسـيف، فصاحـة اللسـان تنبـئ بتطـور غيـر عـادي فـي مسـيرته الحياتيـة، وحتـى كتاباتـه تعلـن اكثـر عـن هـذا التغيـر المفاجـئ. حددنـا مكانـاً نجتمـع فيـه معـاً بعـد هـذه الغيبـة، ليكـون اللقـاء الأول فـي مقهـى يغلـب علـى ديكوراتـه الفخامـة فـي كل شـيء، رقـم

الجلسة ثلاثة وكانت في الأعلى ومن ضمن الجلسات الخاصة، وهي بالطبع أغلى ثمناً وميزانيتي لا تحتمل مثل هذه الأماكن فكل ما كنت أحمله من مال قد لا يكفي لو فكرت بأن أندفع في حماسة لأعلن عن كرمي وصلت إلى الأعلى حيث المكان المحدد فصُدمت بوجود مجموعة كبيرة من الأشخاص وبينهم سيف، لم يخطر لي أن هذا اللقاء وهو الأول سيكون بحضور كل هذه المجموعة، ورغم محاولتي اليائسة ضبط أعصابي ألقيت بالتحية فخرجت مني الكلمات بصوت مرتبك، صافحت الجميع، مأخوذاً بشيء من المفاجأة، قال سيف وهو ينظر إلى مجموعة أصدقائه : «هذا عساف، صديق الطفولة، ومن أطيب الناس قلباً وأكثرهم بساطة»..

على الرغم من كل هذه السنوات الطويلة التي مرّت وكنّا فيها منقطعين واحدنا عن الآخر إلا أنه وصفني بطيبة القلب في أول لقاء يجمعنا وكأنه من النوع الذي يستنزف مشاعره كثيراً، عاطفي ولهذا هو نصير العمال والطبقة المسحوقة مع أنه يرتدي أفخم الماركات وأغلاها ثمناً، أخذ سيف يعدد أسماء الحاضرين ليكون حواره معي مقتضباً أشبه بلغة رسمية، ولا مجال هنا للانفراد معه بحديث مع هذه المجموعة..

كان سيف حاضراً بمنتهى الأناقة يتحدث بهدوء متزن ينظر إليَّ بجدية، ولا ينظر إلى مكان سوى العين، مع أن كلامه كان موجهاً إلى مجموعته المخملية التي أصرّ أن تكون حاضرة في أول لقاء يجمعنا..

هـذا السـيف يعشـق لغـة العيـون فيحاورهـا مسـتمتعاً، وهـو اليـوم أكثـر هـدوءاً واتزانـاً ممـا كان عليـه فـي طفولتـه، ولا أعـرف كيـف امتـدّت لـه الأنامـل حتـى تركتـه صفحـة لا تمزقهـا الريـح، هـو اليـوم يجيـد العـزف علـى سـيمفونية الكلمـة فتكـون النغمـات أكثـر وقعـاً فـي داخلـي، إذا أوجـز أعجـز، وإذا شـاء أطـال، فبـدأت فـي تقبلـه شـيئاً فشـيئاً، دفعنـي الفضـول اكثـر إلـى اسـتقصاء غايـة هـذا الرجـل فـي الحيـاة ولمعرفـة الكثيـر عنـه، ففـي تقلباتـه سـحر..

اكتشـفت أن لسـيف مؤسسـة إعلاميـة فـي الريـاض وأن لـه عالمـاً خاصـاً يحتـاج منـي إلـى التـروي وأخـذ الحيطـة عندمـا أسـتخدم كلماتـي مـع هـذا الرجـل علـى الرغـم مـن جهلـي بمـا يسـتخدمه سـيف مـن مصطلحـات، وقـد زادنـي هـذا الأمـر ارتبـاكاً فـي اللقـاء الأول..

بقيـت متسـمراً فـي مكانـي مـع هـذه المجموعـة التـي لا تمـل الحديـث، وسـيف قـد بـات مثلهـم فهـو يتكلـم كمـا يتكلـم بقيـة أصدقائـه ولكـن بهـدوء وثقـة بالنفـس عجيبـة فـي مواضيـع، لا أعـرف عنهـا شـيئاً، الجميـع كان حاضـراً ومشـاركاً فـي الحديـث وقـد كنـت الحاضـر الغائـب فـي هـذا اللقـاء!

يتحدثـون بطلاقـة دونمـا اضطـراب بـل إنهـم يبتسـمون ولـو كنـت مكانهـم لقضـت علـي هـذه اللغـة وأنـا فـي مكانـي، لا أسـتطيع وصـف سـر هـذا الصمـت فقـد وجـدت نفسـي فجـأة مـا بيـن قـوم يتمتعـون بسـحر اللغـة وفتنـة العبـارة، ويتكلمـون بأناقـة، فصاحـة تبـدو لـي أخّـاذة لتميـز لغتهـم الموسـيقية، حواراتهـم أشـبه بحـوار لغـة غيـر مفهومـه لكنّهـا أنيقـة

وكأن هناك شفرة وما أصعب تفكيكها، باختصار أنا لا أفهمهم، فبقيت كلماتهم في حالة انتشار لا تعرف الانحسار فتتطاير فيما بينهم بينما ظلت غشاوة على عيني تمنع الصورة الحقيقية من التكشف ومن البروز كي أفهم، وجودي معهم يجعلني طرفاً بل شريكاً معهم في الأفكار، وحوارهم يبدو لي من البداية ساخناً فنسي سيف أن يرحب بي أكثر ليذهب بكلامه للجمع وكأنه على منبر، لم تنفعني حالة الشرود التي اقتحمتني جراء حوارهم عن الحضارات وعن الأدب، كان سهلاً على سيف أن ينسى وجودي في وسط هذه المجموعة التي تتخاطب بعضها مع بعض وكأن لا نهاية لمكتنزاتهم المعرفية بمنح الروح طاقة دائرية لا تتوقف.

فوجئت بأحدهم وهو يذكر اسمي: « لكن الأستاذ عساف لم يشاركني في الرأي، ونريد أن نسمع رأيه في هذه المسألة تحديداً»

في هذه اللحظة أفقت من تأملاتي بهزة عنيفة لأرد في حماسة مفتعلة، فجاءت كلماتي مرتبكة وهي تمتدح صناعة الأفلام في أميركا..

وما بين مطرقة المال وسندان الأفكار تعالت الضحكات من الجميع وفي وقت واحد وكأنهم لم يكونوا قبل دقائق مختلفين!

كانوا يتكلمون عن أميركا قبل أن يُذكر اسمي، لم أنتبه لما دار بينهم من حديث باستثناء بعض الكلمات التي لم أفهم مقصدها..

بدا لي المكان كروائح وصور، أصواتاً وأحاسيس وضحكات تتعالى وأنا غارق في متاهة الفراغ الذهني لا يمكنني تلمس معالم

الطريـق فـي تلـك الحـوارات الجـادة التـي لا أحبهـا ولا أرغـب فـي أن أقحـم نفسـي فـي مسـألة الحجـاج التـي تدعمهـا أمثلتهـم، تألمـت فـي صمـت فهـذا الجانـب مـن الحـوار لا يسـتهويني أبـداً وقـد يبقينـي خائبـاً تعسـاً، ولكـن كيـف السـبيل للخـروج مـن هـذه الورطـة متسـائلاً فـي نفسـي: «ألـم يكـن مـن الواجـب علـى صديـق الطفولـة أن يدعونـي إلـى لقـاء خـاص بيننـا دون الحاجـة إلـى كل هـذه المجموعـة، ولمـاذا فكـر بهـذه الطريقـة»..

عـادت ألسـنتهم إلـى الحديـث ولكـن فـي منحنـى آخـر، وقـد كانـت حالـة التركيـز لـديَّ فـي قمتهـا هـذه المـرة فقـد يُذكـر اسـمي مـن جديـد ولهـذا كنـت أسـايرهم فـي مـا يقولونـه بكلمـات مقتضبـة، وكـم تمنيـت لـو أنهـم كانـوا يتكلمـون عـن الموسـيقى تحديـداً، لأعـزف لهـم أنماطـاً نغميـة، يسـتمعون لهـا فيسـتمتعون، أو أسـماء شـخوص ومسـرحيات، أو أنهـم تكلمـوا عـن أفـلام سـينمائية كـي أشـاركهم وكـدت أفعـل بعـد أن طالـت فتـرة الصمـت وخوفـاً مـن أن يتنبـه لـي أحـد.. قـررت الرحيـل والابتعـاد عـن هـذا المـكان وعلـى مـا يبـدو إنهـم سـيقضون سـاعات إِثْـرَ سـاعات فـي هـذا المـكان، نهضـت واقفـاً وتعمَّـدت ألا أنظـر إلـى عينـي أحـدٍ مـن الحضـور سـوى سـيف لأقـول لـه : «دعنـا نـرك مـرة أخـرى».

أمكننـي أن أرى هـذه المـرة مـن سـيف حالـة ذهـول بقـدر مـا أصابـه فلـم أكـن أعـرف أن صوتـي حينئـذ كان عاليـاً إلا بعـد توقـف الجميـع عـن الـكلام

فأحسست أني أسيطر على الموقف تماماً لأول مرة ولا يهم إن كانت بسبب حماقةٍ..

خرجت من هذا المكان بقليل من الزهو فلا حاجة لي بخمسة حمقى حكماء، تجاهلت حتى أن أدفع شيئاً، ويبدو أن نظامهم في الدفع مشاركة..

وصلت إلى مكان اشعر معه بشيء من الراحة فاستلقيت على السرير وتركت لهذه الجولة من الاحداث أن تتلاعب بي كما كانت احداث الغرفة رقم سبعة تفعل، لا أشعر بالراحة إلا حين ألجأ إلى غرفتي، توقعت بأن لا يكون سيف حريصاً على إجراء لقاء آخر معي، فجميع هؤلاء الأشخاص ومعهم سيف يقضون وقتهم في التعبير عن آرائهم وفي الاعتراف بأنهم لا يتقاسمون الرأي نفسه، لا يتسلّونَ بسماع الموسيقى ولا بلعبِ الورق، الحديث غايتهم الأولى وما إن يبدأ لا ينتهي..

تمنيت لو أنني صرخت بهذا الجمع قائلاً:

«ما أجمل الموسيقى، ما أجمل الناي العربي حتى وإن كان ضائعاً بألم الفراق، فالتصالح معها هو تصالح مع اللغة كي لا تتكشف لنا النكبة على أنها فقدان الذكورية العربية فتقمع ذاتها، هذه الألحان مخدر من نوع فاخر يجعل الإنسان في حالة ثبات وهو يرى تساقط الأفكار من حوله كالحجارة علها تلملم تأريخاً متخماً بالهزائم. مع هذه الموسيقى لا نتشبّث عبثاً بأيَّة قشّة ترسو بنا على شاطئ النجاة،

حيث الأمل بصهيل الخيول، وصليل السيوف عندما تأتي بالفرسان لا لأن تُقاتل، بل لتتباهى بجمال الناي وروعة التاريخ، بلغة يفهمها العالم، عفوية، وليدة اللحظة، وحتى لا تكون هستيريا جماعية».

كانت الأحداث أشبه بشك ينهش قلبي، فأنا لم أستطع أن أنسى تلك النظرات في أعين أصدقاء سيف، وجوههم تحملق فيَّ وضحكاتهم تتعالى أكثر فأكثر في جنبات المقهى، لماذا لم ينفرد بي سيف بعيداً عن مجموعته، كل هذه التساؤلات تحطمت عندما اتصل بي سيف مرة أخرى فطلبت منه أن يكون لقاء خاصاً بعيداً عن أصدقائه الجدد، بحجة أني لم أتمكن من معرفة أخباره وأنا في شوق إلى معرفتها، وهو ما تحقق فتقابلنا في مطعم اختاره سيف بنفسه، أخذ حوارنا منحى التجربة الحياتية فكنت حاضراً في ملاحقة قوائم الأصدقاء المشتركة بيننا، مرت ساعة أو أكثر دون أن نشعر بالوقت، حتى وصل محور الحديث إلى نقطة شعرت معها بقشعريرة في بدني، حين سألني عن مستقبلي، ليغضب مني بشكل واضح عندما علم بما حل بي في الجامعة وكيف اتخذت قراراً بهذا الشكل لينطق بجملة لطالما استفزتني: «السلبي والفاشل يعتبران مجرد البقاء على قيد الحياة نجاحاً وقد أقبل عليك العلم فأدبرت عنه».

لأرد عليه بصوت المُستفز: «مهلاً، مهلاً هل تريد افتراسي أنت أيضاً».

في هذه اللحظة بالذات تذكرت تلك الأيام في القرية مع وجود

فـرق بسـيط أنـه الآن لا يوجـد إلا أنـا وهـو. وفـي موقـف متبايـن سـرعان مـا تحـول فيـه موقـف سـيف الحـاد وقـد ظهـر تأثـره عندمـا علـم بمرضـي ليقـدم اعتـذاره عـن عـدم التواصـل أو حتـى السـؤال، مشـاعره المتقلبـة تـدل علـى انصهـار هـذا الرجـل معـي ومـع المجتمـع، لـم يـدرس مـا كنـت أدرسـه فـي علـم الاجتمـاع ولكنـه يفهـم الغايـة مـن هـذا العلـم جيـداً..

عـاد حوارنـا مجـدداً إلـى القريـة فسـألته: «لقـد كنـت أفكـر فيـك كثيـراً، مـا الـذي حـدث لـك بالضبـط بعـد رحيلنـا؟».

«حدثـت أشـياء كثيـرة يـا صديقـي، فبعـد وفـاة أمـي بـدا لـي المـكان مسـكوناً بنـوع مـن الصمـت أو البكـم، ومـا إن هـدأت الأمـور بعـد العـزاء حتـى وجـدت نفسـي فـي رفقـة مـع الصمـت لـم أتكلـم أيامـاً عديـدة مـع أحـد وكنـت أزور قبـر أمـي وأبـي يوميـاً مرتيـن فـي النهـار وفـي الليـل وأنـا أبكـي، وكانـت أختـي علـى الـدوام تسـتغفر ربهّـا وتنـوح، بـدأت مـن حولـي سلسـلة مـن المواسـاة وإقناعـي بـأن مـا حـدث هـو مشيئة اللـه، وأن المـوت حـق علـى ابـن آدم، وبـأن لا أنسـى أننـي رجـل يعتمـد عليـه ولا بـد لـي مـن العمـل لـم أكـن حينئـذ أرفـض العمـل، فقـد كانـت لـي تجربـة سـابقة، لكنـه فـي هـذه المـرة مختلـف، ومـا سـأقدم عليـه يعنـي مسـاحة اكبـر مـن الشـقاء، كانـت الأمـور إلـى حـد مـا معتدلـة بعـد وفـاة أبـي، فهـذه المسـاحات مـن الشـقاء تبددهـا كلمـات أمـي وأختـي، ولكـن بعـد وفـاة أمـي لـم يتبـق لـي سـوى سـارة، وكانـت تتوجـس مـن أي شـيء يجلبـه المسـتقبل لنـا، أصبـح الحـال ضيقـاً قـد

لا يكفـي للضـروري مـن العيـش فكيـف الحـال إذا اشـتّد بنـا هاجـس عـدم الاطمئنـان للمسـتقبل»..

هنـا توقـف سـيف قليـلاً وبقيـت متسـمراً فـي مكانـي فـي الجهـة المقابلة منـه فـي شـوق لمعرفـة بقيـة التفاصيـل، طلبـت منـه أن يكمـل وقـد اسـتجاب بمـودة وتلقائيـة:

«مـرت الأيـام يـا صديقـي وأنـا أبحـث عـن وسـيلة هنـا وهنـاك بمشـاركة مـن سـارة وكانـت بالنسـبة إلـيَّ كل شـيء هـي الأب والأم والأخ أيضـاً، لـم تمنـح نفسـها هـي الأخـرى فرصـة يـوم واحـد للراحـة، فتشـاركنا الهمـوم سـوية، حتـى أن اللغـة فـي حواراتنـا قـد تغيـرت، لقـد تبيّـن لنـا، فـي لحظـة معنـى آخـر فـي الحيـاة لـم يكـن فـي حقيقتـه إلا حرمـان لطفولتنـا، كنّـا نـرى مـن بعيـد الصغـار وهـم يلعبـون ونقـاوم رغباتنـا بالعمـل، كنـت أشـعر برغبـة فـي عمـل شـيء آخـر وهـذه الرغبـة تشـتعل فـي جسـمي، مـن رأسـي إلـى قدمـي، فلـم أشـأ أن أطفئها وهـي فـي بدايـة ثورتهـا، فذهبـت لنفـس الرجـل الـذي عملـت معـه فترة ليسـت بالقصيـرة فـي مزرعتـه، رجـل كبيـر فـي السـن اسـمه أبـو صالـح وكنـت أناديـه بعمـي، لا أعـرف إن كنـت تعرفـه؟»..

- لم يمر علي الاسم مطلقاً.
- نعـم هـو فـي أطـراف القريـة ولا يحتـك كثيـراً بأحـد، منشـغل بنفسـه ومـع القلـة التـي اختارهـا لنفسـه، عرفـت أنـه وحيـد بعـد أن هـرب منـه صالـح وثلاثـة مـن بناتـه تزوجـن فرحلـن عـن القريـة، يعانـي الوحـدة تقريبـاً ولكنـه يحـب المـال بشـكل غريـب فـلا يتوقـف عـن العمـل..

- أستغرب حقيقة كل هذه المشاهد السوداوية في الحياة..
- لم أفهمك هنا..
- ما أقصده هنا هو، لِمَ يتصرفون بهذا الشكل؟
- كنت أفكر في الشيء نفسه، في البدء كان أبو صالح طيباً معي، حتى مرت بنا أيام عصيبة فبدأت أراه غاضباً من أشياء لا تستدعي أن تتحول النظرة في عينيه إلى شر، ومع هذا ساعدته وساعدني كي أتعلم منه أشياء في زراعة القمح والنخيل وبعض الخضروات..
- ولكن مكاسبها المالية بسيطة..

بالفعل، هذا ما استوعبته متأخراً، كان الجميع منشغلاً بنفسه وبرحلة البحث عن لقمة العيش، ومع هذا قررت أن أعود لأزرع أرض والدي الجدباء، وما إن علم أبو صالح بقراري حتى تكرم عليَّ ببعض البذور وفسائل النخيل وأرسلني إلى رجل يساعدني على جلب المياه من داخل هذه الأرض..

- جميل، أراك يا صديقي حينها وقد أخذت بذور القمح وفسائل النخيل معك ولا تدري إن كانت ستحيا وتحييك أو أنها ستقضي عليك .
- هذا ما كنت أشعر به فمن أول يوم وأنا في حالة نشطة ففي ظل هذه الظروف الراهنة لابد أن أسيطر على الطبيعة، أَصْحو في فجر كل يوم تساعدني سارة على تجميع الأغراض وعلى إعداد الفطور وبعدها نذهب إلى المزرعة..

- أعـرف هـذه الأرض جيـداً، لـم تكـن سـوى أرض مجدبـة تخيـف مـن يمـر بهـا فـي وضـح النهـار فكيـف بهـا إذا غابـت الشـمس..
- لـك أن تتخيـل الوقـت المطلـوب لزراعتهـا، يوميـاً مـن بعـد صـلاة الفجـر وحتـى صـلاة المغـرب، عمـل متواصـل لا ينقطـع، ومـع كل نهـار أسـعى فـي زراعـة الأرض لابتغـاء الـرزق، وفـي الليـل أسـكن لإراحـة بدنـي تمامـاً كمـا كنـا أنـا وأنـت نضحـك علـى كبـار رجـال القريـة، فـي هـذا الحقـل يـا صديقـي بـدا لـي كل شـيء أصفـر، شـمس هـي مصـدر نورنـا ونارنـا، جمـال وقبـح فـي آن واحـد، مسـاحات الأرض هـي الأخـرى تلونـت بلـون أصفـر، ووجهـي الـذي جعلتـه الشـمس والريـح ذا لـون واحـد لأعـود منهـكاً إلـى البيـت فتقابلنـي سـارة بالطعـام، طبـق واحـد ووجبـة واحـدة فـي اليـوم، كنّـا نقتصـد فـي اسـتهلاكنا..

نظـرت إلـى سـيف وقلـت لـه مقاطعـاً: أنظـر إلـى مـا قـد تناولنـاه مـن طعـام ، تلـك المقبـلات المتنوعـة، والطبـق الرئيسـي ، أنظـر إلـى هـذه الحلـوى أمامـك الآن وكل هـذا النعيـم ..

وهنا رفع كوب القهوة عالياً وهو يشير إليه قائلاً:

لا تنس هذا الكوب من القهوة الكولومبية..

لأقول له باندهاش: يبدو أنه قد نسيكم الناس بحكم مشاغلهم..

- القـادم مـن أحـداث أقـل إمكانيـة للفهـم، منـذ فتـرة طويلـة ونحـن

فـي طـي النسـيان، كثيـراً مـا كانـت تشـغلني أسـئلة، وفـي الأسـئلة كمـا تعـرف تمـازج بيـن عالميـن متناقضيـن، لـم أرَ طريقـي إلا مسـاراً طويـلاً مقفـراً بيـن حقـول القمـح وأشـجار النخيـل، تؤلمـه المناظـر مـن يقطعـه جيئـة وذهابـاً، وأبنـاء القريـة لا يملـون أن يقطعـوا هـذه المسـافة فـي فـرح، لـم أكـن أرى نفسـي إلا وحيـداً، فقـد تخليـت عـن الرفـاق أو هـم مـن تخلـوا عنـي، ولـم يكـن هـذا محـور اهتمـام عنـدي ولكـن الظـروف شـاءت أن ترمينـي فـي هـذا الطريـق..

في هذه اللحظة قلت له في حماسة: والمدرسة ماذا فعلت بها؟

- سـآتيك بالتفاصيـل، خوفـاً مـن أن يقتلنـا التعـب والجـوع، تأخذنـي الحماسـة بشـكل أكبـر للعمـل المتواصـل، لـم أفكـر ولا حتـى سـارة فـي المدرسـة حينهـا، فقـد نسـينا أنفسـنا، سـارة كانـت تطلـب منـي بإصـرار غريـب أن ترافقنـي كـي تخـرج مـن عزلتهـا، فكنـا نراقـب الأرض وسـرنا رؤيـة هـذه الأرض الجـرداء وهـي تتحـول ببـطء إلـى حديقـة غنـاء..

- هذا معناه أنك قد نجحت في مهمتك

- ليـس بعـد، ولكـن بيـديَّ حرثتهـا وببذورنـا زرعناهـا، وقـد أكرمنـا اللـه بخيـر فـي فتـرة بسـيطة فقـد زرعنـا البـذور مـع نهايـة

فصل الشتاء وأمامنا فترة ثلاثة أشهر لحصد ما زرعنا وهذا ما حدث، تحقق لنا مربح بسيط فوضعت غرس النخيل في ترتيب بديع ثم بنينا بيوتاً من طين يتفتت، واحدة منها لأختي كي تتقي الشمس وحتى لا تقتلها الوحدة في المنزل وقد كانت سعيدة وفي أحيان تعمل معي..

- يبدو أنها لم تكن تعبأ بعين الرقيب..

لا أحد في القرية يعبأ بنا، وسارة أيضاً لا تعبأ بما يستهوي من كن في مثل عمرها، حاولت أن أمنعها فقد يمر بنا أحد دون أن تنتبه وهي تصر على موقفها وقد كانت محقة في فعلتها، لا يمكن لي أن أعمل وحيداً طوال هذا الوقت كله، استسلمت لها عندما تذكرت بأني الأب والأم والأخ والصديق لها في هذه الحياة، وما بين زيارات الآخرين التي تكون في الغالب في فترة الظهر وما بين حراج السوق ومتاهاته اتجهت حياتي نحو تكوين قاعدة أرتكز عليها مع سارة في مواجهة لنا غير متكافئة أبداً مع الحياة، وإذا الليل يتهاوى نعود والخوف من مخالب الليل يعترينا فالمسافة ليست بالقصيرة ولا هي بالطويلة ولكننا مازلنا صغاراً على هذه الحياة..

- وهل كنت تخاف فعلاً، فما أعرفه عنك أنك كنت شجاعاً مقداماً دائماً..

لا أعلم، فعقارب الساعة في أحيان كثيرة لا تتحرك من مكانها، فتخرج علينا عقارب الأرض دون إنذار، وقد كان المشهد الأول مرعباً

لنـا ومـع مـرور الوقـت تعودناهـا لنرحـب بهـا بطريقتنـا الخاصـة، وبشـفاه يابسـة لا تنفـع معهـا أيـة سـوائل، وبوجـوه ذابلـة لا ينفـع معهـا الأكل كنّـا نعمـل تحـت وطـأة الشـمس الحارقـة كل يـوم دون انقطـاع، نقضـي فتـرة تحـت لهيـب الشـمس ثـم نهـرب منهـا إلـى بيـت الطيـن، فتكـون الدقائـق مسـاحة نسـترجع بهـا شـيئاً مـن قيمـة الوجـود، تقـوم سـارة بـدور المعلـم فتشـرح لـي فـي الرياضيـات والعلـوم ونقـرأ معـاً القـرآن، ومـرات نتحـدث عـن الأرض وعـن المسـتقبل المجهـول علـى الرغـم مـن نـدرة الوقـت المتـاح لنـا، ففـي كل يـوم يغيـب عنـا فيـه زائـر يأتـي آخـر ليقتـل فتـرة الظهيـرة بثرثـرة لا تتعـدى حكايـا العامـل الـكادح البسـيط..

- ولهذا تميل لأن تقف في صفهم الآن.
- الحيـاة صعبـة وإن أقبلـت عليـك بمنافعهـا الكثيـرة، يكفـي أنـه فـي ذاك الوقـت كنّـا نتتبـع أخبـار الأمطـار ومتـى سـتأتي..
- والآن، ما زلت تتبع أخبار الطقس والمناخ؟
- ليس كثيراً..
- ألا يزورك أحد.
- بلى وأكثرهم كان أبو صالح..
- رجل نبيل حقاً.
- قـد يكـون كذلـك فقـد تكـرم علـيَّ بالمعرفـة التـي أحتـاج، لكنّـه فـي الفتـرة الأخيـرة بـات لا يتكلـم إلا عـن المسـتقبل، أراقبـه وهـو يتحـدث وكيـف يمتلـئ ذلـك الوجـه بالتجاعيـد عنـد الـكلام،

نعم هذا الرجل ساعدني في استخراج المياه بطريقة عجيبة، ولا أعلم كيف اكتشف المكان في وقت قصير بواسطة عصا بيده ضرب بها الأرض هنا وهناك ثم قال هنا ستجدون الماء ثم رحل، لكنّي لا أحب أن أتذكره هو تحديداً..

- ألهذه الدرجة؟
- كان يزورني حاتم، تعرفه بالتأكيد؟
- المعلم في المدرسة.
- كان يزورني كل يوم وقد اتفق معي على أن يعينني على دراستي ويراجع معي كل الدروس مجاناً، فكنت أجلس معه ومعنا سارة كل يوم، وكأنه يقوم معنا بمقام المرحوم والدي..
- لقد كان قاسياً معنا.
- وكان طيباً معي، كان بمثابة أبي وما زلت على تواصل معه إلى الآن..
- لعلك ترتب لنا معه موعداً.
- قريباً جداً.
- لم تخبرني الكثير عن أبي صالح؟
- كان يزورني في المزرعة دوماً في فترة الظهر لينصحني في هذا المجال، وددت لو قلت له إنني مشغول بما هو أهم، ولكنه يفعل ذلك من باب المساعدة، كرر علي كلمة

سـمعتها منـه مـراراً «لا تغـش» فمـن الممكـن أن تربـح سـريعاً
ولكــن قــد تخســر كل شــيء..

قلـت لـه وقـد تملكتنـي الحماسـة: «ولكنّـك كنـت صغيـراً جـداً يـا سـيف علـى هـذه الحيـاة، وأسـتغرب كيـف اسـتطعت أن تفعـل كل هـذا»..

تنفس سيف بصعوبة وظلَّت نظراته الباردة تخترق جدار الصمت:

«لم أحب الزراعة قط».

وفـي هـذه الأثنـاء أغلـق المطعـم أنـواره وكأنهـا إشـارة بالخـروج، فتنبـه سـيف لذلـك ليسـتأذن بالرحيـل، وأن للحديـث بقيـة ولكـن فـي موعـد آخـر، طلبـت منـه أن يكمـل فـي مـكان آخـر ولكنـه أصـر فلـم تكـن مـن عادتـه السـهر..

الفصل العاشر

شممت رائحة القرية وحقول قمحها ونخيلها، أحسست بطعم القهوة العربية وقد ذابت بها حبات الهيل والقليل من الزعفران، كأنما هذا السيف عاد ليأخذني معه مرة أخرى إلى القرية وإلى الطفولة. كانت هذه القصة كفيلة بأن تبقيني في حالة تيقّظ وفضول لمعرفة المزيد عن قصته ففي هذه المرة كان يتحدث بطريقة مختلفة، توقعت أن تدمع عينا سيف في أي لحظة وهو يتكلم وكم توقف كثيراً كي يلتقط الأنفاس بصعوبة، هذه القصة لها تكملة فهي لم تنتهِ بإعلان منه، ولكن يبدو أنه تجاوز ظروفه القاهرة، فلم يعد الفتى صاحب الملابس الرثة أو ذاك الفتى اليتيم اليائس، هو الآن المهندس، أعطته الحياة دفعة قوية نحو الأمام حتى وإن كانت عن طريق مساعدة من الآخرين.

مرت علي أيام وأنا في حالة تكرار دائر على نفسه، أكرر الطقوس الحياتية نفسها، فما إن أستيقظ من النوم حتى أعدّ كوباً من القهوة، بمعنى يختلف عن فكرة أن القهوة دلالة اجتماع بين اثنين أو أكثر، فما زلت في عزلة عن البشر، لأرتشفها برفقة هذه المدينة وكأنها باتت هي أيضاً مسكونة بالصمت، أفتح جهاز الكمبيوتر لأتصفح الجرائد اليومية

والمنتديات وصفحة «تشايكوفسكي» الفارغة تتراقص أمامي أشعة الجهاز بخفة مع أنه لا يوجد في صفحتي سوى اسم سيف، لكنّه يكتب كثيراً ويطرح آراء ويناقش أفكاراً، يكتب ولا يمل أبداً من كلماته التي لا تنتهي وأفكاره خصبة تتجدد وأصدقاؤه في تزايد، على الرغم من كل الظلم والقسوة اللذين لحقا به في حياته، فإنه يكتب، يقرأ، ويتبادل التعليقات مع الذين حوله..

أبحث في خبايا صفحة ياسمين فيتكشف لي حضورها التأملي في حالة تُشكل حديثنا السري ليُقرأ الليل بتأملات خفية وكم كان يموج بالغيب، عالمها ككل النساء عالم شخصي ولا مجال لي للبحث فيه عن خبايا لأحاديث الهوى فتستقوي علي بما يحوم فوقها من قوة ملائكية، تخيلت لو أني أتحدث معها فأقول بطوباوية حالمة:

«احترت بأي أسلوب أكتب رسالتي إليك وأنتِ من يجمع ما بين لحن الكلمة وعذوبة الحرف في وقت واحد، عندما أخاطب الكاتبة لا بد أن اعتني بالكلمة، وعندما أخاطب الياسمين لا بد أن أعتني بجذورها، ولكن عندما يجتمع الاثنان تبقى اللغة واحدة في كلمة واحدة سحرية لا تؤخذ بمعزل عن جذرها، لا أريد من كلماتي هذه سوى أن أقول لكِ إني إنسان واحد وطريقي واحد، وفي رحلة بحث عن فكر واعد لإنسان واحد، وهذا ما أراه في قلمك الهادئ».

تخيلت لو أنه بعد هذه الرسالة يأتيني منها الرد ومعه قبول صداقتي لأعانق فرحتي بهذا الانتصار..

لـم أنـم إلا متأخـراً فجاءتنـي كعادتهـا وقـد أسـهبت كثيـراً فـي عالـم الخيـال لتظهـر لـي فـي المنـام وقبـل تأرجحـي فـوق قمـة موجـة عاليـة مـن الوعـي البدنـي ومـن ثـم موجـة هابطـة مـن الوعـي الذهنـي، قلـت لهـا : «لا تتكلمـي، لا تُفصحـي ولا تغـادري انطـواءك، لا تنطقـي حتـى بحـرف، فقـط دعـي الجمـال فـي لغـة السـكون هـي مـن تتحـدث إلـيَّ وتفجـر كلماتهـا بداخلـي».

فلمـا اسـتيقظت كان محياهـا لا يـزال ماثـلاً أمامـي، هـي فـي الحلـم أجمـل، عـدت بعدهـا مباشـرة إلـى النـوم فعـادت صـورة الحلـم، وظهـرت لـي بخصلات شـعرها الليلـي التـي تنسـدل علـى كتفيهـا بينمـا كانـت خصلـة واحـدة تمـردت لتعانـق رمـش عينهـا حيـن همسـت باسـمي فـي الحلـم، لتدفـع الخيـال أكثـر لأن يرسـم لهـا صـورة فتصبـح مرئيـة، ملموسـة..

قالت لي بعينيها النافذتين:

«يـا مـن تصافـح وجهـي كل صبـاح، صوتـك الضائـع مُثقـل بالحيـاء يأتينـي كغمغمـات، مُتهدّلـة علـى شـرفات الأمانـي، إنـك تثيـر بمـن يـراك، ضحـكات، لـم تنطـق بكلمـة حـب واحـدة، فنطـق قلبـك المُتخـم بالجـراح، وكأنهـا ترانيـم، تلحنهـا كل مسـاء علـى طريقـة المدعـو تشايكوفسـكي مـن حملتـه علـى ظهـرك، فـلا أراك سـوى عابـث بحيـاة، تتسـكع هنـا وهنـاك وفـي كل ركـن، لتقتحـم قلعـة امـرأة، يُنْظَـر إليهـا مـن كل عابـث علـى أنهـا مصـدر غوايـة، هكـذا كتبتـم عنهـا، وهكـذا نسـجتم فـي عوالـم الجهـل حكايـات»

أيقظنـي لمعـان عينيهـا الخاطـف لأكتشـف بأنـه كان حلمـاً وبأنـي الآن

فـي المجـال الحياتـي الخطـر الـذي يعـوق النـاس كثيـراً عـن طريـق العقـل لانشـغال الذهـن بمـا يسـمى «الحـب»..

لقـد كان حلمـاً وكأنـه يتصـل دائمـاً بالأفـكار التـي تشـغل الشـعور فأنـا احلـم بالأمـور التـي تتجـه إليهـا أشـد انفعالاتـي، ولـو كانـت حيـاة الليـل مـع محتـوى الأحـلام تتكـرر فـي النهـار لأسـتقبل الإنسـان يومـه وهـو علـى أهبـة الاسـتعداد، ولكنّـي بقيـت عاجـزاً عجـزاً تامـاً عـن معرفـة هـذه الياسـمين، فبقيـت فـي حالـة يقظـة لأكتشـف أننـي العاشـق الـذي لـم يُعشـق قـط..

نهضـت مـن سـريري مخاطبـاً نفسـي وقـد تملكنـي الهيـام: «هـل سـتنطق بهـذه الكلمـات فعـلاً أو أنهـا تداعيـات لأحمـال وهـم، ليتهـا تسـمعني الآن لأقول لهـا اعزفـي لحـن حروفـك ولكـن بطريقـة ألطـف، كـي تنطلـق بعدهـا أنشـودة تتصاعـد مـن فـم باسـم وبرفقـة موسـيقى مـن يـد عـازف ماهـر فتستشـعر معهـا الـروح الوجـود»..

هـو حلـم انتهـى ولكـن تحقـق فيـه كل مـا أشـتهي، وكل الأحـلام فـي النهايـة هـي حـب السـيطرة علـى الآخريـن لا فـي المثـل الشـعبي القائـل إن هـذه الأحـلام تأتـي مـن المعـدة..

إغماضـة عيـن واحـدة كافيـة لحلـم كبيـر، حـب تملـك الآخريـن وإن كان عـن طريـق حلـم عابـر لا بـد لـي مـن إفاقـة كـي تكتمـل الحكايـة التـي لا أذكـر منهـا سـوى بقايـا تفاصيـل حلـم لوجههـا الجميـل عنـد غابـة تبـدو وكأنهـا كئيبـة المنظـر وعيناهـا تلقيـان علـي السـلام مـن خلـف بـاب البيـت المسـكون..

إعداد كوب القهوة ما عاد يستهويني كي لا يعيدني مجدداً إلى عالم اليقظة، فجأة صاحبني شعور بعدم مفارقة جهاز الكمبيوتر، التصقت به دون حراك ولم يعد الأكل يمثل أهمية بالنسبة إلي فالعاشق يأكل ليعيش، ولا يعيش ليأكل..

في كل لحظة يتردد في الذهن صدى صمتها في وقار وفي عمق، لم تنبس بكلمة ولم ترتعش وكأن الصمت سكين بها تُسدد وتصوب حتى نال جفن السهاد مراده مني على أنغام أغنية تشدو بها ام كلثوم.

في هذه اللحظات بالذات لم أجرؤ على التركيز حتى لا أُهزم من خيال وقد تجسد في صورة، ما أقبحه وما أجمله من شعور فقد تحول مناخي الصحراوي إلى صباحات يوم ربيعي جاءت بدايته بمكالمة من سيف وكان في صوته رغبة في لقائي وقد حدده هذه المرة في مقهى ولكم كرهت هذه الأماكن فطقوسها تُخفى علي ولا أستطيع أن أكسر هذه الأنظمة مع حالة التردد الدائمة في الاختيار وفي انتقاء العبارة المناسبة، هذا المكان لا يقبل مني تردداً فيجب أن أكون حاضراً عندما يأتي دوري في الصف والأسوأ من هذا كله أن هذه الطقوس لها معايير وأولها أن تجيد اللغة الانجليزية..

الجهل بهذه اللغة يُفسد روح المكان، تجاهلت كل ما هو سلبي وانطلقت في الموعد لمقابلة سيف وبعد أن انتهيت من طلب ما أريد وفق لغة الإشارة، اضطررت للمكوث فترة أخرى حتى ينتهي العامل

مـن إعـداد القهـوة، لا أعلـم سـر هـذا المـكان عنـد سـيف فهـو يعشـق هـذه الأماكـن وهـو مـن يختـار، جلسـنا فـي زاويـة ومـا زالـت الأصـوات تتعالـى فـي حدتهـا وكأن الغرفـة رقـم سـبعة عـادت مـن جديـد..

- عندي لك مفاجأة.
- ما الأمر؟
- ألا تخمن؟
- نسافر معاً، وعلى حسابك.
- وكأني أراك تائهاً في صندوق وتريدني أن أخرجك منه.
- بالضبط يا صديقي.
- لِمَ لا تجرب أن تسافر وحدك؟
- لا أجيد التحدث باللغة الإنجليزية.
- سافر إلى دولة عربية.
- سأفعل ذلك قريباً، ولكني أردت مرافقتك لا أكثر.
- إذن ترقب مني دعوة قريبة..
- جميل، وتذكر أن صديقك مُعدم.
- يا رجل، ابحث عن وظيفة ولا تقف هكذا.
- ساعدني.
- لن تأتيك الوظيفة إن لم تبحث عنها أنت.
- كل هـذا مـن أجـل أن لا تدفـع قيمـة تذكـرة لـي، عمومـاً كان كلامـي مجـرد مزحة.

- حقاً، اسمع هذا الخبر إذن: هناك من سيأتي بعد قليل، ويريد مقابلتك.
- أنا.
- أنت بالذات.
- لقد شوقتني لمعرفة هذا الرجل.
- هما اثنان في الواقع.
- اثنان.
- اشرب قهوتك ولا تستعجل، سيصلان قريباً.

مرت الدقائق وكأنها ساعات كي أعرف سر هذه المفاجأة من سيف فمن عادته الوضوح في كل شيء ولكنه في هذا اليوم يحمل المفاجآت على نحو غير متوقع..

مرت الدقائق أشبه بصمت حتى أصابني الخدر وبعض الكلمات تخرج مني وكأنني أعلق بيني وبين نفسي، لا أدري إن كان سيف يسمعني فقد انصرف لينشغل بجهازه المحمول وكأنه في سباق محموم مع الوقت، أمامه كوب من القهوة الأميركية الساخنة وقد مالت إلى البرودة بعد أن ارتشفت منها القليل وإلى جانبها زهرة ياسمين لم تكن حقيقية ينظر إليها مرة ومرة يلمسها وأنا في الزاوية أراقب تصرفاته بصمت فلم يكن عندي شيء لأقوله لسيف، وما إن دخل الرجلان حتى كسرا حاجز الصمت فارتسم على ملامحهما الاندهاش لوجودي، القادمان هما سعد وخالد، الرفاق في القرية، ويالها من مفاجأة، ولو لم يكن

سـعد موجـوداً لمـا تعرفـت إلـى خالـد بسـبب لحيتـه الشـقراء الكثيفـة، امـا سـعد، فشـأنه مختلـف، ولربمـا لأنـه يحمـل جينـات هـذه الصحـراء، غابـت عـن ملامحـه عندمـا يبتسـم أسـنان كان بهـا حفـر، ووجهـه القمحـي بـات أكثـر نضـارة، ويبـدو أن مسـحة الحـزن المفعمـة بالاستسـلام قـد غادرتـه بـلا رجعـة.

بـدأت عبـارات الترحيـب الممزوجـة بضحـكات تعكـس بتلقائيتهـا معالـم اللقـاء المفاجـئ..

- لـم أصـدق عندمـا قـال لـي سـيف إنـك موجـود هنـا فـي الريـاض، أيـن تعمـل الآن يـا عسـاف؟
- حالياً لا أعمل.
- لا تعمل ما الذي حدث لك؟
- لا حاجة له في العمل يا خالد!
- ومن ذا الذي يستطيع الاستغناء عن العمل؟
- ابن سالم، تاجر التمور وصاحب محلات سالم المشهورة يعمل!
- للأسف، هي قصة طويلة ولكن خبراني ماذا عنكما؟

ليـرد علـيَّ خالـد وقـد بـدا علـى مظهـره برغـم كثافـة لحيتـه أناقـة: تخرجـت فـي جامعـة الملـك سـعود قسـم القانـون.

هنـا ضحـك سـيف قائـلاً بصـوت عـال: تخيـل، المتشـائم أصبـح قانونيـاً ورجـل ديـن.

- لا، لم أكن متشائماً، ففي القرية حين كنا صغاراً نغضب من كل شيء وحتى من اللاشيء.

في هذه الأثناء توقف خالد قليلاً وقد نظر إلى سيف بابتسامة وهو يقول: «كنت عصبياً، نعم، ولكن على من يطرح مشكلة غير قابلة لأي حل وكأنه يريد أن يهدر طاقتنا مرة أخرى على هذا اللاشيء»..

- هنا رد سيف، فقال :هكذا كنت تفكر حينها يا خالد؟

ضحك سعد بصوت عال على خالد بشكل يوحي بأُلْفَة قوية كانت بينهما..

فنظر إليه خالد وقال: «حتى أنت يا بروتس.»

وهنا تدخلت موجهاً كلامي إلى سعد: وأنت يا سعد، أين تعمل الآن؟

- أعمل يا صديقي في الصحافة، في الشأن الاقتصادي.

- اقتصاد، جميل.

قال خالد بصوت جهوري: أنتم تفكرون كما يفكر سعد، الصحافة على عكس ما هو معروف عنها، هي تريد منك أخباراً فقط لا غير ولغتها غير إبداعية تقتل لديك حتى الرغبة في الكتابة»

ليرد سعد بتهور عجيب: قانوني ولا تعرف المهنية في نقل الأخبار!

كان الحوار ساخناً بين سعد وخالد، في حين بقيت وسيف نراقب بصمت، حتى قطعت حوارهما مرة أخرى بعد أن حمي الوطيس بينهما

ولا أرى إلا سعد فوجهت له سؤالاً آخر: ولكن كيف استطعت الوصول إلى سيف والتواصل معه؟

- قصدك التاجر سيف، هو من ملاك العقار ورجل اقتصادي معروف وقد توصلت إليه بحكم حاجتي له في العمل..
- وهنا قال خالد وكلماته تتقطع بقهقهة: وتعترف بذلك.
- أعترف ولمَ لا..
- ألم أقل لكم، إن الصحافة مسألة براغماتية.
- لا لم أبحث عن مصلحتي، فما حدث هو أن مدير التحرير صارح صحافياً خبيراً يعمل معنا في فترات متقطعة برغبته في إجراء لقاء موسع مع سيف، وجاءتني الفكرة أن أستغل الفرصة.
- لو لم تكن المسألة براغماتية لما كان لوقع الحفلة تأثير في ذهنية كل صحافي.
- أثر الحفلة في كل مكان يا خالد.

أعلنت لهما جهلي بالمقصود بأثر الحفلة باحثاً عن المعنى، فكان الرد من الطرف الذي لم يشترك في الحوار وهو سيف وكأنها معلومة بديهية بالنسبة إلى الجميع ما عداي، قال سيف شارحاً:

«في أي محادثة لك تثير ضجرك قد تسمع حواراً آخر لا علاقة لك به ولكن يُذكر فيه اسم لشيء تهتم به، فتجد نفسك قد هربت من حوار ودخلت مع مجموعة أخرى في حوار»..

وهنـا رد سـعد قائـلاً: خالـد لا يتكلـم إلا بالمصطلحـات وسـيف واقـف أمامـه بالمرصـاد ليأتيـه الـرد سـريعاً مـن خالـد: وأنـت غـارق فـي الثرثـرة بيننـا دون أن تميـز.

بـت لا أعلـم حقيقـة هـذه الحـوارات فهـي تنبـئ بعلاقـة متينـة بيـن الاثنيـن برغـم كل مـا هـو سـلبي، وللهـرب مـن متاهاتهمـا قلـت لسـعد: أكمـل، مـا الـذي حـدث بعـد ذلـك؟

وافـق المديـر بـكل حماسـة، فتواصلـت مـع سـيف مباشـرة وللأمانـة قـال لـي إنـه لا يرغـب فـي إجـراء لقـاء صحفـي ولكـن بمـا أنـك أنـت جئتنـي فسـأقبل، فأجريـت اللقـاء الـذي لـم يسـتغرق سـاعة وقـد أكرمنـي سـيف بوجبـة غـداء دسـمة وأكرمـت نفسـي بالجلـوس فـي بيتـي أسـبوعاً كامـلاً بعـد هـذا اللقـاء

- أسبوع كامل.

- نعـم، قلـت لمديـري إن سـيف فـي جـده ولا بـد لـي مـن السـفر فدفـع قيمـة التذكـرة لـي.

- وهل كان سيف حينها في جدة؟

- لا، كان في الرياض.

- ألم أقل لكم بأنها مسألة براغماتية.

- ليت هذه فقط، قلت لمديري إن سيف أتعبني بمواعيده.

وهنا انفجر سيف في وجه سعد المسكين قائلاً: وتعلن هذا أمامي..

- لا تخف على سمعتك، فهي أقوى من الحسد نفسه!
- لا تنس يا سعد أن هناك من يراقبك في السماء..
- كانت كذبة بيضاء يا خالد فلا تجعل من الأمر مشكلة كبيرة.
- كل مشكلة كبيرة تبدأ بمشاكل صغيرة.

سقط سعد في فخ الاتهامات وأصبح مشتتاً بين سيف وخالد، يرد على سيف مرة ليقنعه بأن سمعته أقوى من الحسد نفسه، ولإقناع خالد بأنه لم يمارس الكذب وإنما هي محاولات لاصطياد الفرص. تنوعت الحوارات وقد مر الوقت علينا سريعاً وإن أتعبتني رقبتي كثيراً في ملاحقة الثلاثي وهم يتحدثون..

الفصل الحادي عشر

كانت لحظة اللقاء فارقة فقد ربطتني مجدداً بالمكان، متحدثاً إلى نفسي قائلاً: «دعوني أرقد هنا هادئاً ولا تسألوا عن قسوة المكان، فأن تمضي حياتي جاثمة في القرية خير لها من أن يكون صاحبها منقباً بين الوجوه العابثة في المدينة»..

رائحة المكان في تلك الأزمنة يتقاذفها الرفاق بملامحهم الجديدة في الملبس وفي المظهر، وخلف تلك السيارات الفارهة حكايات في التميز، كل منهما الآن متكئ على التخصص وعلى رؤية يقرأُها المهتمون فلا تأتي إلا بالقليل من لحظات آسرة لكل من اقترب أكثر من فضاء الزمان وأرض المكان كي يتلمس باليدين بساطة التواصل اليومي ومنها إلى تلمس تلك المسافة الفاصلة بين الجذور والقشور، بين السماء والأرض، بين البر والبحر، هي مسافات أشبه بخيمة تأمل لا تفارق مخيلة حالم مهما انتقل من مكان قصي إلى آخر، وإن كان مسلسل تساقط أوراق شجرة الحياة مستمراً، واحدة تلو الأخرى، فلا عجب أن يكون العالم في مثل هذا التشتت طالما أن الإنسان في حالة تغيير..

كل ما يأتيه الإنسان في الحياة جميلٌ إذ فكر هو في الجمال، نظرة للفرد خاصة، فطقوس الحب أشكال وألوان بين فرح وآهات، واللغة أشبه بمخدر، وفي فن تأثير الكلمات سحر يتفجر في ثوان، إن في الأمر ما يتطلب التفكير والتأمل، لمَ لا يكون هذا المخدر علاجاً وقد تميز بالنطق ذلك الإنسان، فتميزت معه الحياة حتى أصبح للتغيير عنوان تتفرع منه كل الحكايات في العالم..

صوت من بعيد أسمعه بوضوح وكأنه يقول لي:

«أيؤلمك أن تعود إلى تلك الذكريات وإلى أمكنة لم يبق منها سوى أرض ممتدة قد هجرها ساكنوها، أيؤلمك أن تعود وهي خالية حتى من النخيل وحقول القمح»

ليرد صوت آخر بإجابته:

«نعم يؤلمني يا من تكلمت، أن أعود إلى قريتي معناه اليقين الكامل بأن أهلها سئموا الحياة في حياتهم، وكرهوا النخيل في نخيلهم، وضاقت بهم الأرض وهي رحبة، فهي الآن أرض جدباء»..

بات يقلقني حتى بابها المشرع بحكايا الصمت، وكأنها مجرد حكايات لحرقة وألم فحرمان، تستظل بمظلة من كلمات، وفي الجهة المقابلة من الصورة أوراق تتساقط بعد أن فقدت تماماً القدرة على الامتصاص وعلى التمثيل الغذائي لتهوي على أرض صلبة تماماً كورقة الجمود بعد رحلة من العمر، كل هذا الجفاء بسبب أن ورقة صامدة تناجي ورقة أخرى بأن تنجو بنفسها فقد هلكت بالأمس وريقات،

كانت هـذه الأوراق تتماثـل شـكلاً وحجمـاً، وليناً، حتـى ذبلـت فسـقطت واختلفت بدورهـا عـن الأخـرى لتبقـى مميـزة بشـكلها حتـى بعـد الذبـول، فالعالـم مسـتمر فـي إطـلاق تلـك الغـازات فـي الجـوّ، فـي محـاولات حثيثـة لثقـب طبقـة الأوزون أكثـر، هـو المـوت كمـا هـو الحـال مـع البشـر ولعلـه مـن أميـز مـا يميـز الحيـاة، بعـض الأوراق مـا تـزال معلقـة تنتظـر السـقوط، هـذه هـي الحيـاة فبشـر يتسـاقطون وفـي أشـيائهم الأساسـية معنـى واحـد هـو السـقوط ولطالمـا كان العالـم معقـداً فـي تصرفـات ثانويـة ظللـت فتـرة طويلـة أراقبهـا وأطاردهـا..

ظللـت أراقـب ورقـة الحـب مـن بعيـد لأكتشـف بأنهـا الأكثـر تسـاقطاً علـى الأرض ولـكل سـقوط روايتـه الخاصـة، سـقوط ماتـع يأتـي علـى شـكل ألحـان تـدون فـي كل عقـل فتعطـي مفتاحـاً لعوالـم فـي الخفـاء..

راقبـت ورقـة أخـرى ظلـت عالقـة دون أن تسـقط فاكتشـفت أنهـا تمثـل العلـم وهـي اكتشـاف الإنسـان العظيـم وحتمـاً هنـاك مـن سـيحافظ عليهـا بـأن يبقيهـا فـي حالـة نشـاط دائـم، فـلا تسـقط..

ظللـت أراقـب وأراقـب ومـا إن تسـقط ورقـة حتـى تبـدأ واحـدة أخـرى بالظهـور، لهـا المميـزات نفسـها بأنهـا تحتفـظ بالشـكل المميـز لهـا نفسـه، هـذه الحيـاة أشـبه بشـجرة ومـن تتسـاقط أوراقـه يبحـث عـن ذاتـه أكثـر فـي ورقـة أخـرى، وقـد صُدمـت بفعـل هـذه المراقبـة بمـن اقتلـع شـجرته تمامـاً فسـقط فـي فوهـة التبعثـر فـي الحيـاة..

كل هـذه الأفـكار جاءتنـي لأن مـن كان يتأمـل الأفـق وحيـداً عـاد وكأنـه

يريد ترميم ما قد تهدّم وإن كان يتخذ ألف شكل فكل الأشكال ناصعة البياض وكأن السيئ منها أشبه بجواهر تزين بها الأنف القبيح، عاد سيف فأعاد لي اللون الأخضر مرة أخرى، وقد تركت قصته جرحاً لا يندمل فما قمت به من عمل في السابق تجاه ذاتي لم يوصلني إلا إلى الفراغ، ولاشيء سوى متابعة خيال الخصب، أعمل بعيداً عن أرض الواقع وعن المجتمع حتى غابت عني قناعات قديمة لأستبدلها بأخرى زائفة، لم أكن أعلم بأنه شخصية عامة يعرفها الجميع، فقد كنت بعيداً جداً عن مطاردة الأخبار من حولي، وعن اصطياد المعنى مع كل خبر.

دارت الأيام وهذه الساعات لا تضيف إلي شيئاً سوى مداعبة ذاكرة خاوية ليقتحم والدي غرفتي وفي وجهه علامات الغضب وكنت حينئذ أتنقل ما بين المواقع في فضاء الانترنت الرحب باحثاً عن شيء مفقود وغير محسوس، صرخ طالباً مني أن أغلق هذا الجهاز قبل أن يحطمه وأن أبحث لي عن عمل فالعمل لا يأتي إليَّ وأنا على هذه الحال، ترك هذا الموقف الذي كنت على وشك أن أحاسب فيه نفسي، ولأول مرة يكون والدي في هذه الحالة بعد أن تملكه الغضب بشكل كامل دون أن يترك مجالاً لي لكي أرتب أفكاري أو أرد، ينظر هو بنفسه إلى مستقبلي بغير تلك الطريقة البائسة، قال لي والدي بصوت عال: «حياتك كلها سهر أمام هذه الشاشة، باب الرزق لن يفُتح لك ولن يأتيك وأنت أمام هذه الشاشة أو مع الأصحاب في كل مساء، تنقضي حياتك ولا أعرف إلى أين تتجه!»

حـدث هـذا الموقـف بوجـود عامـر وبـدا لـي أن مسـتقبلي كان هاجسـاً عنـد الجميـع، فوجـود عامـر يؤكـد حقيقـة حالـة الميـلان عـن الخـط المسـتقيم مـن أحـد الأبنـاء، حالـة لاستشـعار روح العائلـة الواحـدة فـي هـذا الموقـف..

قـال لـي عامـر سـاخراً قبـل خروجـه مـن الغرفـة: «اسـتمتع بالكسـل يـا عسـل!»..

كانـت هـذه أول المؤشـرات بانتهـاء فتـرة النقاهـة بعـد خروجـي مـن المستشـفى، لـم أتعـود سـماع مثـل هـذه الكلمـات مـن عائلتـي بالذات، شـعرت بأنـي غريـب تحـت ظـلال هـذه الأسـرة، أتلفّـت حولـي فـلا أجـد لـي معينـاً بيـن حالتـي الغفلـة واليقظـة، عرفـت حينئـذ أننـي بالفعـل مصـدر إزعـاج لعائلتـي حتـى بصمتـي أنـا مزعـج، غضـب والـدي لا لشـيء سـوى هـذه التفاهـات التـي أفعلهـا كل يـوم تبقينـي فـي حالـة سـهر دائـم فأصحـو مـن النـوم متأخـراً فمـلَّ الجميـع تصرفاتـي..

لـم تكـن لـي مصاريـف تذكـر ومـا كنـت أحصـل عليـه مـن مبالـغ بسـيطة لا أصرفـه إلا فـي مناسـبات قليلـة، لـم أشـعر فـي يـوم أنـي بحاجـة إلـى المـال ولكـن عندمـا ذُكـر الـزواج أحسسـت بشـيء غريـب وبتحـول عجيـب وكأنهـا نهايـة مرحلـة وبدايـة أخـرى جديـدة..

والـدي يتكلـم عـن زوجـة تشـاركني فـي حياتـي بشـكل علنـي أمـام الجميـع..

هـذا التسـارع فـي الأحـداث جعلنـي أتنـاول الأشـياء مـن جذورهـا بعـد حالـة الفوضـى فليـس مـن المنطـق أن أظـل أسـيراً لقناعـات الآخـر التـي

كانت تتحطم على طاولة سيف في الماضي، الآن لم يعد يشكل له عقده بعد أن كُشف ضعفه، نعم هي الجذور كما في نظرية «الكايوس» التي تعتمد على أشياء بسيطة جداً، ومع الوقت تُحدث فوضى، وما كنت أشعر به هو غوص في أعماق عالم الأشياء في كل مرة ليتولد عندي ذلك الإحساس السلبي المحض، العودة إلى الأصل والبداية من جديد قد تساعد على تخطي حاجز السأم الاجتماعي وقبول عالم ثابت لا يتقبل أيّة طريقة تفكير مكتسبة..

صار لزاماً عليَّ العودة إلى نقطة الصفر، وهنا عودة بالزمن إلى الوراء واتخاذ قرار البداية بطريقة تتناسب ومحيطي وفي هذا الفعل انقلاب على الوجوه واستبدال لقوائم الأسماء..

هذه القفزة في الأفكار جعلتني في حماسة للملمة أوراقه من جديد، فتحول برنامجي لأن أستيقظ في صباح كل يوم حاملا بعضي معي لتبدأ رحلة البحث ولم أكن أعلم بقسوة الحياة إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير، ففي كل مكان أستشعر وجود وظيفة أكون حاضراً، كنت متحمساً في البداية ولكنها الأيام عندما تسابق الساعات بعضها بعضاً وهي ما قتلت رغبة الوظيفة في داخلي، يوماً بعد آخر، شهراً بعد آخر، والنتيجة لاشيء..

لم أفتح جهازي المحمول بل ظللت بعيداً عنه، وحتى لقاءاتي سيف قلت كثيراً لأدخل في دائرة المهموم الذي لا يفكر إلا في همه فلا يستشعر في وسائل الترفيه أي سعادة، ويكفي أنه في يوم كسر هذه

القاعـدة لـم أسـتطع النـوم لانشـغال الذهـن بالمسـتقبل الـذي قـدم متأخـراً بعـد انقضاء الوقـت تماماً علـى صفحـات الإنترنـت فيـزداد قلقـي أكثـر لتصبـح الدقائـق ذات معنـى فـي كل يـوم، ومـع حالـة الانشـغال هـذه لـم أشـعر بالوقـت حتـى اخترقـت أشـعة الشـمس نافـذة الغرفـة، وأنـا فـي حالـة انشـغال مـع صفحـة تشايكوفسـكي الفارغـة، وفـي حالـة تنقـل مـن صفحـة إلـى صفحـة، أحسسـت بصـورة والـدي وقـد أطـل علـي برأسـه عبـر شاشـة «الكمبيوتـر»، تلاعـب بـي السـهر وبـدلاً مـن أن أرتمـي علـى السـرير، تناولـت الملـف الأخضـر وقـد تحـول هـذا اللـون تدريجـاً إلـى اللـون الأسـود، هـو أسـود فـي نظـري ويـراه المسـؤول أخضـر وكانـت الحقيقـة أن لا أحـد يـرى لونـاً لهـذا الملـف، ارتديـت الـزى التقليـدي «الثـوب والشـماغ» لأذهـب فـي رحلـة بحـث جديـدة تحـت تأثيـر قرار سـريع، وفـي الطريـق أصابتنـي أشـعة الشـمس فـي مقتـل حتـى تحقـق لـي أنـه لا مجـال للاسـتمرار فحالـة النعـاس أشـد مـن أن أسـتمر، ولكـن قـررت المضـي قدمـاً نحـو هـدف قـادم، أردت تمضيـة الوقـت فـي مقهـى لتكـون فرصـة لالتقـاط الأنفـاس وقـراءة جريـدة، هـذه الجريـدة أحملهـا معـي فقـد تحمـل فـي صفحاتها خبـراً عـن وظيفـة أو إعلانـاً، شـربت قهوتـي وقـرأت الجريـدة بكسـل ولـم يكـن بهـا أي إعـلان لوظيفـة ولَـوْ كان هنـاك إعـلان لحـارس أمـام ثكنـة عسـكرية لقبلتـه لتتحقـق نبـوءة عامـر فلـم يعـد لـدي شـيء أخسـره، ومـا إن انتهيـت مـن قهوتـي حتـى انطلقـت بسـيارتي ولا أعلـم إلـى أيـن المسـير، لكنّـي بعـد فتـرة مـن الزمـن وفـي قـرار سـريع قـررت العـودة مجـدداً إلى المنـزل بعدمـا صُدمـت بصورتي في

المـرآة وبعينيـن كأنهمـا تقطـران دمـاً، لا أسـتطيع أن أسـتمر وأنـا علـى هـذه الحـال، حتمـاً لـن يقبـل توظيفـي أحـد، عـدت أدراجـي إلـى المنـزل ومـا إن وضعـت رأسـي علـى السـرير حتـى غـاب عنـي كل مـا تحملـه لـي الحيـاة مـن قسـوة.. لأسـتيقظ فـي الوقـت الـذي سـاء منـه كثيـراً والـدي فارتبكـت قليـلاً، فكـرت فـي طريقـة للخـروج مـن هـذا المـأزق فقـد يواجهنـي والـدي بصرامـة بعـد أن اتخـذت قـراراً أن لا أغضبـه بعـد اليـوم، فقـررت أن أتبـع فلسـفة سـعد فـي الحيـاة وأن أجلـس مـع والـدي فأقـول لـه إن هنـاك موعـداً فـي الغـد لإجـراء مقابلـة وظيفيـة فـي إحـدى الشـركات هـي محاولـة لأن أنجـح فـي تحفيـزه علـى الـكلام معـي بطريقـة هادئـة، ومـا إن نزلـت حتـى وجـدت العائلـة وقـد اكتملـت بوجـود عامـر وفاطمـة، دخلـت عليهـم شـاكياً إليهـم حالـة الخـوف مـن الغـد جـراء تلـك المقابلـة فتفاعـل معـي الجميـع وقدمـت لـي نصائـح جمـة وكانـت أقسـاها مـن امـي، فلـم أكـن صادقـاً معهـا، وصلـت إلـى هـذه المرحلـة مـن السـوء كـي أنجـو بنفسـي مـن عقـاب لفظـي، تحـدث بعدهـا عامـر عـن مشـاكله وفـي تفاصيلهـا هـم علـى أطفالـه فقـد وصـل إلـى مرحلـة أسـس فيهـا عائلـة وقـد تجـاوز مشـاكله ليرتـب وقتـاً لمشـاكل أبنائـه فـكان دقيقـاً لدرجـة أنـي شـعرت بالغثيـان وأنـا أرى فـي جهـازه المحمـول صـورة لـه كانـت جميلـة فاكتشـفت أنهـا لأحـد أبنائـه وعامـر يقـول إنهـا تفصـح عـن مشـكلة فـي الطفـل، هـذه الألـوان وهـذا الوجـه العدائـي ينبئـان برغبـة فـي نفـس الطفـل، وكأنـي فهمـت مـن كلامـه أن فـي الطفـل روحـاً شـريرة، تأثـرت أمـي بهـذه الصـورة فزادنـي الأمـر حزنـاً علـى عائلتـي..

مـرت الأيـام وأنـا أراوغ أهلـي مـن جهـة وأتحسـر علـى قلـة الفـرص الوظيفيـة مـن جهـة أخـرى، حتـى وصلـت إلـى شـركة علمـت أنهـا بحاجـة إلـى موظفيـن وكان هـذا اليـوم هـو موعـدي معهـم لإجـراء المقابلـة، وصلـت إلـى المـكان بعـد عنـاء وتكلمـت بثقـة عـن «عسـاف» البطـل المغـوار فـي كل مجـال والـذي بيـده أن يفعـل كل شـيء والوجـوه مـن حولـه تبتسـم لـي، ليتـم رفضـي بالإجمـاع..

وفـي مقابلـة أخـرى فـي شـركة تهتـم بالتحاليـل الطبيـة كانـت روحـي انهزاميـة بعـض الشـيء فتكاثـرت علـي الأسـئلة وكان كل فـرد مـن اللجنـة يسـتعرض «معرفتـه فـي العلـوم الإنسـانية وفـي العلـوم الطبيعيـة» أمـام الجميـع فكانـت الأسـئلة حاضـرة وأجوبتـي غائبـة، يعتقـدون أن عقلـي قـد امتلـك النظريـة التـي يتمناهـا البشـر كعقـل سـقراط الـذي عجـز بعـده العالـم خـلال خمسـة عشـر قرنـاً أن يكتشـف الخطـأ فـي عقـل هـذا الرجـل، فتـم رفضـي، لـم أقنعهـم بمعرفـة تأتـي بهـا الحـواس ولا معرفـة تكـون بالعقـل ولا حتـى معرفـة بيـن هـذه وتلـك أو بمعرفـة تأتـي صنيعـة الحـدس..

وبعـد ثلاثـة أشـهر مـن البحـث المتواصـل وبدعـم مـن والـدي هـذه المـرة فقـد كان كريمـاً معـه يدعمنـي بالمـال دون توقـف بعـد أن رأى حرصـي علـى نيـل الوظيفـة، وكان يطلـب مـن حيـن إلـى آخـر بـألا أتوقـف عـن السـعي وإن كثـرت أمامـي الحواجـز، أنقـل إلـى والـدي فـي كل يـوم حكايـة جديـدة مـع اللجـان، أحيانـاً يسـتمتع بالأسـئلة ليضحـك وأحيانـاً يغضـب وفـي الغالـب يواسـيني بكلمـات مـن ذهـب تركـت فـي نفسـي إحساسـاً ورغبـة فـي الوجـود..

كسـبت احتـرام والـدي فـي فتـرة قصيـرة فـكان دافعـي للعمـل أكبـر، أحسسـت بشـيء يدفعنـي نحـو الاسـتقلالية، وفـي مقابلـة لـي فـي شـركة تعمـل فـي المجـال الطبـي فوجئـت بوجـود رجـل مـن بيـن أعضـاء اللجنـة وجهـه بـدا وكأنـه لـم يتجـاوز منتصـف العمـر حتـى ولكنـه يديـر هـذه القاعـة ويحركهـا، قـام مـن بيـن الصفـوف وصافحنـي بحـرارة وقـد غـاب عنـي اسـم هـذا الرجـل، لأجلـس فـي المـكان المخصـص لتلقـي الأسئلة، وقـد تـرك تصـرف هـذا الرجـل أمـام بقيـة أعضـاء اللجنـة علامـات تعجـب واسـتغراب كانـت باديـة علـى وجوههـم، بعـد أن دهمـت وجهـي أولاً..

الأسئلة فـي بدايتهـا مـع هـذا الرجـل وهـو من يتكلـم فيمـا التـزم الباقون الصمـت، سـأل عـن الجامعـة ولمـاذا تركهـا وقـد كان هـذا هـو سـؤاله الوحيـد.. لتكـون النهايـة مـع هـذا الرجـل ومنـه بالتحديـد تلقيـت وعـداً بالاتصـال فـي وقـت قريـب..

كانـت المقابلـة نوعـاً مـن الدردشـة السـريعة والخفيفـة، لـم تكـن مقابلاتـه الوظيفيـة علـى هـذا النحـو..

وفي الطريق كنت أفكر في هذا الرجل ومن يكون؟

الفصل الثاني عشر

ملامح هذه التجربة في أن أكون تحت المجهر تكشفت لي بمراقبة لأدنى التفاصيل في اللغة وفي حقيقة ما هو داخل الذاكرة وفي حركة الجسد وفي هذا الفعل إشارة بأن هناك سلطة نقبلها بدافع الحاجة، هذه السلطة لها أن تمارس أسلوب التهكم والتغني بالعاطفة في مراقبتها بحجة مراقبة السلوك، قصص كنت أسمعها تنطوي تحت ردة فعل لسؤال تهكمي وكأن معيار النجاح لا يعتمد إلا على الجانب الشخصي، هذه الملامح أطلت برأسها عليَّ حاملة معها القبول تسليماً بهذه السلطة خوفاً من هواجس الليل وأوهام النهار ورغبة في محاربة كل ما هو سلبي، فأوهمت نفسي بتجاوزها كفارس جيد جاء ليتفقد المدينة، يخرج من منطقة ليدخل شارعاً مهجوراً، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل لا ترى المدينة سوى الحراس أو اللصوص، فأوقفت الجواد ذعراً لأترجّل عنه وما غمض لي جفن، نسيت نفسي فعوقبت منها، وها أنا الآن في غرفة تحيط بها جدران صامتة، لا أبحث إلا عن وقت أمضيه حتى ساعة النوم، فأشاهد قليلاً مما يُبث في الإعلام وأتنقل من محطة إلى محطة فلا أجد ما يسر، برامج حوارية

تُقيدها خطوط حمراء يكون الضيف تحت وطأة ما، فيبحث عن نفسه في وجود إعلامي مكثف ولا شيء آخر يحفزه على أن يعمل بصمت، هذا الغثيان أشعر به حين أشاهد المذيعة وقد أطلت من خلال جهاز التلفزة وهي في قمة أناقتها التي تسلب بها الأنفاس مع كل عملية شهيق وزفير وفي لغتها تسقط بعض الأحرف، وحين أشاهد هذه الأخبار التي لا تبتعد في لهجتها عن الوعيد الشديد بقرب الحرب، وبتحشيد لقوى يظنها السياسي معه وإذا هي بعد حين متآمرة عليه، لغة العنف باتت هي الأكثر سماعاً ..

قد لا أفهم معها حقيقة أن العنف رد فعل تلقائي إزاء البؤس والألم، أو أن هذه التصرفات من الغضب هي تجاه داء لا دواء له، فيهتز الشرق باحتمالات حدوث تبدل في الأوضاع..

توقف بي «الريموت كنترول» عند قناة تبث حواراً ساخناً على الهواء، ولم تمر دقائق حتى غضب الضيف فضرب الطاولة أمام المذيع وهو من وصفه في بداية اللقاء بالمفكر، وما أعرفه حقاً أن المفكر لا يمكن له أن يُستفز، هربت من حالة العنف إلى حيث الموسيقى فلم أجد سوى غناء جرّد من كل نغم..

تذكرت يوماً كان لي في الجامعة، كنت بين مجموعة تتناقش حول رسالة الإعلام فكانت كلمات أحدهم راسخة في ذاكرتي : «إن الإعلام يُمارس دوره شرط ألا يتجاوز قانون التاجر».

لم أستطع الهرب من ترسبات الماضي في مداعبة الوقت

وملاحقـة العوالـم الافتراضيـة فأنـا الآن فـي حالـة انتظـار لـرد الشـركة علـي، فتحـت صفحـة تشايكوفسـكي بعـد فتـرة طويلـة مـن الابتعـاد الموقـت، وفـي متابعـة لـكل مـا يكتـب فـي هـذه العوالـم فوجئـت بـأن مـن قـام بالـرد علـى إحـدى كتابـات سـيف هـو نفسـه الرجـل الـذي قـام بمصافحتـي فـي تلـك الشـركة الطبيـة أثنـاء مقابلتـي الوظيفيـة، إنـه ناصـر، وهـو مـن مجموعـة سـيف المخمليـة، مـن هـول الصدمـة كـدت أتنـازل مباشـرة عـن وظيفـة تأتينـي الآن بمسـاعدة مـن سـيف.

وفـي لملمـة هـذا التسـارع فـي الأحـداث ثبـت لـي أن ذاكرتـي لـم تكـن سـوى نفايـات مكدسـة، فمـا إن سـألت عـن ناصـر حتـى أجابنـي سـيف بأنـه المديـر العـام لهـذه الشـركة وهـو صاحـب القـرار الأول والأخيـر، ولـن يكـون هنـاك مـن فـرق جـذري بيـن ناصـر وسـيف، إن كان ديكتاتوريـاً سـتكون الوظيفة مـن نصيبـي، وإن كان لا يؤمـن بهـا فهـو حتمـاً سيستشـير الآخريـن ليصوتـوا بالإجمـاع، ومـا بيـن هـذه وتلـك يبقـى هـو صاحـب الصلاحيـات الأوحـد فـي ذلـك المـكان، وهـو مـا حـدث فعـلاً، فخـلال يوميـن جـاء الاتصـال مـن ناصـر نفسـه أو الأسـتاذ ناصـر ليـزف لـي خبـر قبولـي بالوظيفـة الجديـدة طالبـاً منـي أن أقابلـه فـي مكتبـه غـداً، ومـا إن أقفـل الخـط حتـى تذكـرت أنـه لـم يخبرنـي بالموعـد تحديـداً، لـم يكـن دقيقـاً كمـا هـي عـادة المـدراء، هـو قـال فـي الغـد ولكـن لـم يقـل فـي الصبـاح الباكـر أو بعـد الظهـر، كـدت أتصـل بسـيف لأستفسـر منـه، ولكـن شـيئاً مـا اسـتوقفني ومنعنـي مـن فعـل ذلـك، مـا يهـم الآن هـو أنـي قـد حصلـت علـى وظيفـة..

نقلت الخبر إلى أبي ففرح كثيراً ومع هذا الفرح عاد كل شيء إلى الهدوء فلا مزيد من الكلمات المزعجة بعد اليوم التي ترفض أن توفر لي راحة للذهن والجسد..

الوظيفة هي ملاذ آمن لسد أفواه الناس..

الجانب السلبي في هذه الفترة القاسية هو عندما أُسأل السؤال نفسه الذي لطالما تكرر على مسمعي كثيراً « هل وجدت وظيفة؟»

الآن أصبحت في وظيفة ولا يهم إن جاءت بمحسوبية..

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى الأستاذ ناصر وقد كانت صورته «بالجينز» في أول لقاء عالقة في ذهني فأشعر أحيانا أنه لا حواجز أمام هذا الرجل ولكن صورته في الشركة ومكتب سكرتيره الشخصي الذي يتسع لمجموعة أشخاص، وكذلك كان مكتبه الفخم بمقاعده المريحة ولوحاته الفنية وديكوراته المميزة كلها حواجز أمام هذا الرجل، نظرت إلى مجموعة اللوحات خلسة وهي معلقة على الجدران فكانت الألوان التي طليت بها تختلف عن تلك الألوان التي طليت بها الأبواب والنوافذ لكنها تشبه تلك الألوان على سجادة أرضية، كل شيء في هذا المكتب يوحي بالجمال، الأسطوانات والكتب تنبئ بحقيقة الأشياء المادية وبجمال لا يقوم إلا على سلب الأنفاس فلا تخرج الكلمات من الأفواه بارتياح وإن خرجت فإنها تخرج مرتبكة معقدة كلوحة كانت معلقة فوق رأس ناصر، يبدو أنه من النوع الذي يطلب الرفاهية لمآرب أخرى؟

جميع هذه الأشياء مؤشرات لنسيان صورته بالجينز، فبادرت بالسلام بطريقة توحي بالاحترام لمديري القادم..

- مبروك عليك الوظيفة يا عساف..

- الله يبارك فيك وإن شاء الله أكون عند حسن ظنك.

- أمامك الآن مساحة من العمل الجاد.

- بالتأكيد..

- ستعمل في قسم الموارد البشرية من اليوم ومديرك هو الأستاذ باسل، اذهب إليه الآن وهو من سيتدبر أمرك وبالتوفيق..

- شكراً لك.

ذهبت بحثاً عن باسل، وقد كان رجلاً ذا ملامح جافة، وجهه يخلو من أي تعبير، ليطلب مني مباشرة العمل بعد الانتهاء من إجراءات قسم الموارد البشرية، كانت الأحداث تُبهجني بكل تفاصيلها فما يحتويه هذا المكان من عوالم الأشياء، والأشخاص، وكذلك الأفكار لا يمكن اختصاره بوصف محدد، ناصر يمر علي كل يوم في مكتبي ويجري معي بعض الحوارات الجانبية التي جعلت من باسل في خانة الموظف الأقل رتبة مني، عملت بجد حتى كنت أفضل متدرب عند باسل بشهادته، لا أخفي حقيقة خوفي من تسلطه الوظيفي ولكن كل شيء تبدد فقد اكتشفت أني كنت مخطئاً بشأن هذا الرجل الذي يسمع كثيراً لمن حوله مع أنه يترأس إدارة قسم كامل، وما إن يتكلم حتى يجبرنا

على الاستماع إليه بالانصات والتركيز، تعجبت من سكونه وكأنه قابع في سجن، فهذا الرجل يملك من الثقافة الكثير يقرأ كثيراً ومع هذا تبقى صفاته جامدة، وسرعان ما تتحول حالته إلى خانة الضد عندما يتذكر «فلسطين» وكأنه يعاتب نفسه كثيراً فتتبدل حالته وكم تمنى لو أنه كان في بلاده يدافع عن القضية الفلسطينية، عندما تنتابه هذه الحالات يعرف من كان حوله بأن جانباً لديه قد أضاء ليزيح عتمة تاريخ منهزم، كانت لفلسطين عند باسل منزلة خاصة ودائمة، رغم أنه لم يولد فيها ولم يزرها قط في حياته ولكنه اندمج في حياتها وذاب في نسيجها، وله الحق في أن يتمسك ولو بجزء بسيط من الأمل، هي حالة أشبه بالتشبع بآمال المستقبل ومعرفة حقائق التاريخ حتى تكون ملامحه ومشاكله منعكسة في وجه فلسطين، يتباهى العربي أمام العالم بماض بطولي ويتعمّد نسيان لحظة الخزي، وينسى قصة العائلة الفلسطينية حين سافرت خارج فلسطين لقضاء إجازة، وعندما عادت وجدت بيتها وقد احتلته عائلة يهودية، هدم متعمد تضررت بسببه آلاف المنازل حتى أضحى عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال بلا مأوى ومن السهل جداً أن يبرر صاحب السلطة العليا فعلته بضرورة تلبية الحاجات الأمنية والعسكرية، تعاطفت كثيراً مع باسل وتمنيت لو أني نطقت له بهذه الكلمات:

«لست وحدك يا باسل، ففلسطين هي قضيتنا التي نؤمن بها جميعاً ، واستبدادك هنا بالقضية يقتلني عندما تحملها وحدك، فالاستقلال

بالـرأي وبالحقـوق المشـتركة «اسـتبداد»، فلـكِ يـا فلسـطين، كل يـوم هـو بمثابـة ذكـرى، لـكِ أيتهـا الأرض المباركـة يـا أرض الشـهداء، وأشـجار الزيتـون، ومـن بقـي لـك مـن الجرحـى، ومـن الأسـرى، ومـن أبطـال مـا زالـوا أحيـاء، محبـة صادقـة تعانـق السـماء»..

هـذه الرؤيـة حملتهـا سـراً بداخلـي دون أن أهمـس بهـا لباسـل، ومـع ذلـك حصـل بيننـا تناغـم وكان العمـل مريحـاً إلـى حـد كبيـر، ممتعـاً بالنسـبة إلـيَّ حتـى إنـه مـر وقـت طويـل دون حـوادث تذكـر ليأخـذ العمـل مَنْحَـى الملـل والروتيـن، وقـل ثنـاء باسـل لعملـي، لتبـدأ لعبـة جديـدة مـع الحـدس. بـدأت بمجـرد مـا إن تـم اسـتدعائي لمقابلـة المديـر العـام بطلـب منـه علـى غيـر العـادة وقـد مـر علـيَّ فـي هـذه الشـركة خمسـة أشـهر، هـذه الدعـوة مـن ناصـر وفـي مكتبـه تعنـي أن فـي الخفـاء شـيئاً مـا يجـري، وفـي اسـتجابة سـريعة لجنـون الحـدس بادرتـه أولاً بالسـؤال عمـن قـال عنـي كلامـاً سـيئاً ورحـت أسـهب فـي شـرح بعـض السـلبيات التـي أواجههـا فـرددت اسـم باسـل كثيـراً فـي وقـت كان مديـري ينظـر إلـي بعيـن فاحصـة وكأنـه مصـدوم مـن كلامـي، ومـا إن انتهيـت مـن كلامـي حتـى نظـر إلـيَّ بابتسـامة ليبيـن لـي أنـه لـم يسـمع عنـي إلا كلامـاً إيجابيـاً وليختـم حـواره معـي بعـرض لا يمكـن لعاقـل رفضـه، فقـد طلـب منـي أن أكمـل دراسـتي فـي جامعـة أهليـة وعلـى حسـاب الشـركة، وأنـه يراهـن علـيَّ كثيـراً وتمنـى ألا أخذلـه فـي يـوم مـن الأيـام، فأعطيتـه الموافقـة سـريعاً دون أن أشـعره بالأمـان فـي حالـة إربـاك.

مـر علـي عـام كامـل وكأن فـي تفاصيلـه الثانويـة عنوانـاً لحيـاة برمتهـا، فقـد دارت بـي أيامهـا فـي حالـة تكـرار مـع سـيف ومجموعتـه المخمليـة بعـد أن أصبحـت بشـكل رسـمي عضـواً فيهـا فكانـت اللقـاءات بيننـا مسـتمرة، ولطالما كنـت واقعـاً تحـت تأثيـر التناقـض فـي تحديـد هويـة ناصـر وهـي تتنقـل بـي بشـخصيته الصلبـة التـي لا تبتسـم لأحـد فـي الصبـاح إلى ذلـك الرجـل المتواضع، مـن يمـزح كثيـراً ويتقمـص دور المهـرج مـا يوقعنـي فـي حـرج التضـاد، أهـرب مـن صـورة المهـرج لكـن هـذه المجموعـة المخمليـة تلاحقنـي باسـتمرار، فتكـرر علـى مسـمعي هـذه الكلمـات:

«ألا ترى في هذه الجلسة سوى ناصر!»

«أتدفع ومديرك هنا!»

«لا تذهب إلى العمل في الغد فلقد إذن لك ناصر!»

أهواؤهـم ملاقـط، تمتـصُّ الـرُّؤى لتُظهـر عبقريـة تترافـق مـع وحشـية، أي شـيءٍ يُقـال لـن يُحسـن مـن وضعـي، لأتسـاءل فـي نفسـي: أيـنَ يَمضـي بـي الزَّمـان؟

مثاليـة باسـل هـي الأخـرى لـم تعـد تعجبنـي حتـى وإن كان يتّخـذ قراراتـه بإصـرار وإخـلاص لا يتـركان مجـالاً للشـك فـي صـدق نياتـه..

أتعبنـــي هـــذا الوجـــود مـــع هـــذه المجموعـــة، ولا أعلـــم ســـر أنانيـــة الأغنيـــاء، لتســـتمر الحيـــاة بمخالبهـــا القويـــة نهشـــاً فـــي لحمـــي، تأتـــي مـــرة

بعطـف وفـي أحيـان تكـون أعنـف، بـان ضعفـي مـرة أخـرى، وكيـف لا أكـون وأنـا الموظـف البسـيط فـي شـركة يديرهـا مهـرج فـي نظـر أصدقائـه..

كيـف لا أكـون كذلـك وابـن قريتـي المناضـل يملـك مـن المـال مـا عجـزت عـن تحقيقـه شـركات تعمـل بهـا كتيبـة مـن الموظفيـن.

سـمعت مـرة رجـلاً إعلامياً يقـول بـكل ثقـة فـي برنامـج لـه: «لكـي تكـون رجـلاً ناجحـاً فـي الحيـاة كـن مـع الناجحيـن»!

ولـم أحصـل منهـم إلا علـى مباركـة لعـودة السـأم مـن جديـد، فمـن يبقينـي خاويـاً وهادئـاً كان صوتـاً داخليـاً وحـده مـا يتأمـل حقيقـة الالتـزام التـي كان لزامـاً علـى الجميـع تقبلهـا علنـاً ورفضهـا بالسـر، تتعالـى الأصـوات فتبعثرنـي مـرة أخـرى، إن مـا يحـدث لا يكـون إلا بصـورة تلقائيـة وكأنـي لا أفعـل شـيئاً سـوى المـرور فـي الشـارع نفسـه عنـد كل صبـاح لأقابـل الوجـوه نفسـها حتـى الكلمـات كانـت هـي نفسـها لا تتغيـر وكأن هـذه الذاكـرة قـد بـدأت تشـيخ فـلا تسـليني أبـداً..

لا أرى عبثـاً فيمـا يـراه العابـث إلا حالتـه وقـد خلعـت عنهـا قميـص الحيـاة ليتلاعـب بهـا الصـوت الداخلـي كمـا تتلاعـب بـه الوجـوه الصامتـة مـن حولـه، إلـى أن أصبـح السـأم مـرة أخـرى حقيقـة مؤكـدة مـع هـذه الأجـواء.

لجـأت إلـى بعـض الحلـول الموقتـة التـي يكتـب علـى بابهـا ممنـوع الدخـول بدافـع الفضـول إلـى حيـث العالـم الافتراضـي، اسـماء تتفاعـل مـع ياسـمين وأنـا أقـرب منهـم للرغبـة فـي الحيـاة ففـي كل خليـة بداخلـي تتدفـق فـي جسـدي رغبـة منهـا فـي فعـل شـيء قبـل أن تنتهـي حياتهـا فـي المائـة

والعشـرين يومـاً لتحـل مكانهـا خليـة أخـرى لهـا الإمكانيـات نفسـها، حياتهـا وفق نهـج سـابقتها، وقبـل أن تمـوت تنتفـض فتنفضـه بقسـوة مجـدداً نحـو عالـم الخيـال حيـث ربيـع الفصـول، وقـد تجاهلتنـي تمامـاً، هـذه الزهـرة قـد تحمـل أشـواكاً ولكنهـا تحمـل العبيـر أقلـه فـي أدبهـا الـذي يماثـل قـوة الحـب فـي التعبيـر، بعكـس المجموعـة المخمليـة ففكرهـا يعـادل عقـلاً تشـابكت أفـكاره تعبيـراً عـن قضايـا..

وفـي لقـاء جديـد مـع سـيف تـرددت كثيـراً قبـل أن أصارحـه بمـا فـي داخلـي ولكنّـي فوجئـت منـه بطلـب غريـب لـم يمهلنـي حتـى لأن أفكـر، فقـد قـال لـي فـي حماسـة..

- شد قامتك فسترافقني في رحلتي القادمة.
- توقعت أنك قد نسيتني، وأين سنذهب؟
- إلى باريس، ستعجبك هذه المدينة.
- ولِمَ باريس بالذات؟
- سـيقام هنـاك معـرض وأريـد أن أزوره للتعـرف علـى كل مـا هـو جديـد فـي مجـال الدعايـة والإعـلام.

لـم أتوقـع قـط أن يكـون سـيف بهـذه الجديـة فرفضـت فـي البدايـة بحجـة الوقـت والتزامـي الوظيفـي، فأصـر علـي سـيف وطلـب منـي أن لا أقلـق بشـأن ناصـر فهـو سـيتحدث إليـه، فـكان العـرض سـخياً ولا أملـك سـوى قبولـه..

الفصل الثالث عشر

أنهيت دراستي في الجامعة الأهلية وحصلت أخيراً على شهادة الدبلوم العالي بمعدل مرتفع، ففرحت بهذا التفوق وبهذه الشهادة لأني لن أعتمد مرة أخرى على الشهادة الثانوية التي لطالما أوقعتني في حرج أمام الجميع، سر والدي عندما علم بالأمر، بحثت عن عامر كي أخبره بنجاحي ولكي يتحقق أني لست نكرة في هذا العالم ولكنه قال لي:

«كل هذه الفرحة لنيلك شهادة دبلوم»!

قتل عامر فرحتي وهي في مهدها الأول فقد كان يهيئ نفسه لنيل شهادة الدكتوراه وقد نال قبلها شهادة الماجستير دون أن يُحدث ضجيجاً في المنزل..

نلت شهادة ومعها ولّى ذلك الزمن الذي كان، متأملاً بأن يفتح لي المستقبل من حولي آفاقاً أستقبل بها العالم الجديد، لم أخبر أحداً في الشركة بنجاحي سوى هارون وكنت أعتقد بأنه مستودع للأسرار أمين لكنّه لم يكن كذلك، فبعد غياب يومين متواصلين عن العمل قابلهما الأستاذ باسل في اليوم الثالث بغضب مدفوعاً بكلام قاله هارون عني،

ليبلـغ بـدوره ناصـر الـذي قابلنـي أيضـاً بوجـه قاسـي الملامـح وهـو يستفسـر عـن سـر الغيـاب المتكـرر عـن العمـل :

- لماذا لم تأتِ إلى العمل يومي السبت والأحد؟
- لقد كنت مريضاً.
- ولكنك لم تخبر أحداً، ولم تتصل.
- لقد كنت مريضاً لدرجة أني لا أستطيع عمل شيء.
- هل ذهبت إلى المستشفى؟
- لا.
- ولماذا ؟
- كنت متعباً لدرجة أنه لا أستطيع الحراك من مكاني.
- ولكـن نحتـاج إلـى تقريـر طبـي حتـى لا تتعـرض لحسـم يوميـن مـن راتبـك.
- راضٍ بأي شيء، ولكم الحق في معاقبتي بأي طريقة تريدون
- أرجو ألا يتكرر منك هذا التصرف مرة أخرى..

غـادرت مكتـب ناصـر دون أن أهتـم بمـا سـيفعلونه بـي فقـد قـررت الرحيـل عـن هـذه الشـركة..

وقـد قابلـت فـي الطريـق باسـل ولـم يكـن حديثـه يختلـف عمـا دار بينـي وبيـن ناصـر بملامـح وجـه تسـتعيذُ مِـنْ شَـرٍّ صُنعـي، بـوادر تنـذر بالعاصفـة جـاءت بسـببي، أصبـح الجميـع أكثـر شـدة وحزمـاً معـي ممـا وضعنـي فـي

دائـرة المتهـم دائمـاً وفـي كل تصـرف، أُحاسـب علـى أشـياء بسـيطة لـم تكـن لهـا قيمـة فـي السـابق، يسـأل عنـي ناصـر فـي كل مـرة لا أكـون فيهـا فـي مكتبـي وكأن الرسـائل تصـل إليـه أسـرع مـن باسـل، وبقـي هـارون فـي حالـة صمـت معـي بعـد أن كان دوره فـي الماضـي ترديـد كلمـات تعـزز البـؤس فـي هـذا المـكان حتـى سـئمت حمـل عـبء روحـي معـه فـي هـذا المـكان..

تحـول العمـل إلـى سـاحة حـرب بـاردة بمجـرد أن طُبـق علـي القانـون، ألتمـس لنفسـي الأعـذار لأتصـرف بحماقـة دون اعتبـار لأحـد، فلـم يكـن ناصـر أو باسـل بتصرفاتهمـا مخطئيـن ولكنـي فـي حقيقـة الأمـر كنـت أبحـث عـن مخـرج مـن هـذه الشـركة متوهمـاً أنـي سـأعيش فـي أطـر مفتوحـة علـى جبهـات متمسـكاً بحقـي فـي الإدارة وفـي الضبـط..

قـررت، بعـد مـرور شـهرين أن أقـدم اسـتقالتي بشـكل رسـمي وألا أذهـب للعمـل فـي يـوم الأربعـاء، فقـد كتبـت اسـتقالتي يـوم الثلاثـاء وطلبـت مـن هـارون أن يسـلمها إلـى ناصـر مـن الغـد، لا أريـد أن أرى أحـداً منهـم..

هـذا مـا تعلمتـه مـع تقـدم العمـر بـي، الأرض بـكل شـخوصها ليـس لهـا علاقـة بمنظـوري الخـاص فهـي دائمـاً فـي حالـة حركـة، تتنقـل وترحـل حتـى وجـدت نفسـي وحيـداً مـرة أخـرى أقضـي معظـم وقتـي فـي الخـارج أو فـي غرفتـي، طعامـي أتناولـه فـي الخـارج ولـم أكـن فـي حاجـة إلـى أحـد كـي يخدمنـي، أمَّـا ناصـر فهـو بالتأكيـد سـيُطلع سـيف علـى كل مـا حـدث، وهـو مـا لا أريـده، فمحاضـرات سـيف المثاليـة تقتلنـي..

مـر يومـان ولا أعلـم إن كان ناصـر قـد قبـل اسـتقالتي ولكنّـي أصبحـت عاطـلاً عـن العمـل مـرة أخـرى..

وفـي اليـوم الثالـث بـدأت الاتصـالات تنهـال علـي مـن كل حـدب وصـوب، فلـم أسـتطع أن أرد علـى أي واحـد منهـا..

اتصال من ناصر يبدو أنه علم بقراري، فتجاهلته تماماً..

ثم آخر من باسل، فهارون ولم أرد على أحد..

وماذا عساي أن أقول لهم..

ليمـر الشـهر الثالـث معلنـاً قـدوم شـهر يونيـو وفـي هـذه الديـار يعنـي أن فصـل الصيـف قـد حـل، فكانـت أشـعة الشـمس الحارقـة تبقـي علـى أكثـر النـاس فـي منازلهـم فـي فتـرات الصبـاح والظهـر ليخرجـوا بعـد ذلـك فـي وقـت واحـد بعـد مغيـب الشـمس فيكـون الاختنـاق، لـم أشـعر برغبـة فـي الذهـاب إلـى الشـركة لأخـذ حقوقـي الماليـة خوفـاً مـن أن تقتحـم رأسـي مجموعـة أفـكار تؤكـد أنـي مـن النـوع الـذي يغتـال فريسـته غـدراً دون أن يواجههـا بشـرف، تجـاوزت هـذا الشـعور بعـد مكالمـة سـيف الهاتفيـة ليذكرنـي بموعـد السـفر، ولـم يتبـق سـوى أيـام، لأرفـع الصـوت شـيئاً فشـيئاً وأنـا أقـود سـيارتي الصغيـرة لموسـيقى صامتـة لكنهـا نقلتنـي إلـى عوالـم أخـرى مـن الأفـكار وكأنـي أخـوض معهـا الحـرب كرهـاً، هـذا النـوع مـن الموسـيقى يُسـمع ولا يُناقـش كـي ينسـى مـن يتلمـس فيهـا قيمـة الحيـاة فتصبـح كل التفاصيـل مقيـدة فـي صنـدوق، التفاصيـل الأكثـر هـي فـي رحلـة باريـس.

وفـي اليـوم المحـدد للسـفر وصـل سـيف مـع سـائقه الخـاص، مرتديـاً ملابـس عاديـة جـداً فـي الوقـت الـذي تزينـت ببدلـة أنيقـة كلفتنـي كثيـراً فكانـت مدعـاة للسـخرية مـن سـيف وهـو يقـول لـي: لِـمَ كل هـذا، سـتقضي جـل وقتـك فـي مقعـد ضيـق..

حملـت جسـدي ورميـت بـه فـي مقعـد السيارة، ليمطرنـي سـيف بوابـل مـن الأسـئلة وكأنـه يبحـث عـن شـيء:

- كم حقيبة معك، جوازك معك، لم تنس شيئاً..

وبشعور بالسلطة الأبوية قال لي سيف:

- ما الذي فعلته بناصر؟

فبـدا الطريـق لحظتهـا وكأنـه اختنـاق مـروري تنعـدم معـه المسـافات، لـم أكـن أتوقـع هـذا السـؤال مـن سيف فقـد مضـى زمـن علـى هـذه الحادثـة، لأرد بارتبـاك: أريـد لنفسـي مسـتقبلاً أفضـل، هـذا كل مـا فـي الأمـر..

- لا تنـس مـا قدمـوه لـك، عـام كامـل وأنـت شـبه متفـرغ لدراسـتك وفـي قطـاع خـاص يعـرف أيـن يضـع اسـتثماراته..
- فرصة أتيحت لي وأنا لم أقصر في عملي قط معهم..
- ولكنـه الوقـت المناسـب لكـي تـرد لهـم الديـن، اعتقـد أن توقيتـك غيـر مناسـب.
- لكنّه مناسب جداً لي.
- بهذه الصورة، لا أعتقد..
- لقد مللت العمل وأريد لنفسي التغيير.

- هل ضايقك أحد بشيء؟
- لا ولكن عرضت علي وظيفة بمبلغ أعلى من راتبي في الشركة والحياة فرص..
- الآن صرت تفكر في المستقبل، أتعلم انك كنت تكسب راتباً شهرياً لا يُعطى لمن كان بمثل مؤهلاتك!
- أربعة آلاف ريال شهرياً تسمى راتباً!
- لم تستلم أربعة آلاف فقط فقيمة دراستك لو حسبتها بطريقة أخرى وقسمتها على عدد السنوات لتجاوز راتبك راتب ناصر مديرك في العمل..
- رُشحت لكفاءتي في العمل، ولم اطلب منهم شيئاً..
- لم يرفض أحد رهاناً قام به ناصر ليستثمره فيك، وها أنت تخذله وتضعه في موقف حرج وهو لم يكن هكذا في أي يوم مر عليه في الشركة، لقد اخبرني وكان متضايقاً، تركت الجامعة ولم يحاسبك احد وها أنت الآن تترك وظيفتك ولا تريد أن يحاسبك احد، عجبي.
- ما فعلته في الجامعة أمر انتهى من زمان ولا أريد أن أتذكره، أما العمل فكانت لي أسبابي.
- وما هي هذه الأسباب؟
- أسباب.
- عرفت بأنها أسباب ولكن ما هي؟

- لم يُعجبني العمل..
- هكذا وبكل بساطة!

نظرت إليه بغضب كي يتوقف عن الكلام ولكنه استمر:

« هـذا يسـمونه فشـلاً، وهـا أنـت الآن تكـرر الخطـأ نفسـه لتسـتغل الآخريـن لإشـباع حاجاتـك الخاصـة فقـط دون أدنـى اعتبـار لحاجاتهـم أو حقوقهـم»..

- ولكن...
- ولكـن مـاذا، أهكـذا تـرد الجميـل لأصحابـه لمـن أعطـاك ثقتـه، لقـد خسـرت يـا صديقـي فرصـة الارتقـاء الوظيفـي وتحسـين وضعـك بتهـورك فقـد أراد ناصـر ان يـدرج اسـمك لـدورات أخـرى خـارج البـلاد حتـى تصبـح بعدهـا قـادراً علـى إدارة قسـم برمتـه، لقـد كنـا نتكلـم عنـك وكان يثنـي عليـك بشـكل مسـتمر..
- لم لا يكون ما قدمه ناصر لي مثل ما قدم أبو صالح لك..
- أبو صالح!
- نعـم أبـو صالـح، هـل نسـيت مـن أعطـاك مـن مالـه لكـي تـزرع بـه أرضـك، ولـم ترفض.
- ناصر مختلف، مختلف يا عساف!
- هــذا قـدم لـي خدمـه وذاك قـدم لـك خدمـة، فكيـف يكونـان مختلفيـن، هـو مـن تفضـل عليـك بغـرس النخيـل وبالبـذور وهـو فـي اشـد الحاجـة لهـا، ولـم يطلـب منـك بـدلاً، ناصـر قـدم لـي العـرض نفسـه.

وفـي هـذه اللحظـة التـي تغيـر وجـه سـيف تمامـاً وكأنـه صُـدم بجملتـي الأخيـرة. وصلنـا إلـى المطـار فنـادى سـيف العامـل كـي يحمـل الأمتعـة إلـى حيـث المـكان المقصـود، لـم تكـن لـدي أي تجربـة سـابقة فـي السـفر ويبـدو أنـي مطمئـن فـي هـذه اللحظـة لوجـود سـيف معـي لكنّـي حملـت هاجسـاً فيمـا سـيحدث لـي فـي مطـار شـارل ديغـول فأنـا أجهـل اللغـة الإنجليزيـة فكيـف الحـال باللغـة الفرنسـية، وصلنـا إلـى مكتـب الخطـوط الفرنسـية وكان الموظـف فـي غايـة اللطافـة معنـا وقـد اسـتقبلنا الأثنيـن معـاً فـي اللحظـة نفسـها، لنتوجـه بعدهـا إلـى قسـم الجـوازات فـكان المـرور سـهلاً ومعـه عبـارات تحـث علـى الطمأنينـة أكثـر، كانـت البوابـات مزدحمـة بكتـل بشـرية فمررنـا مـن بينهـا بصعوبـة متوجهيـن إلـى رقـم البوابـة المخصـص للرحلـة الباريسـية، انتهينـا تمامـاً مـن كل الاجـراءات القانونيـة فـي المطـار وكأننـي فـي حلـم، مـن حولـي عائـلات وأفـراد، الغالبيـة هنـا انشـغلت بهواتفهـا النقالـة، وأقـل منهـم عـدداً انشـغل بأجهـزة الكمبيوتـر المحمولـة، وقلـة قليلـة انشـغلت بكتـاب، هـذه الطقـوس هـي ترتيبـات مسـبقة لإبعـاد حـالات الملـل والترقـب فـي وقـت انتظـار، فكنـت المسـتثنى الوحيـد الـذي جـاء إلـى هـذا المـكان دون رفقـة لعوالمـه الداخليـة معتمـداً علـى وجـود الرفيـق معـي الـذي رتـب نفسـه لهـذه الطقـوس جيـداً فـكان معـه هاتفـه النقـال وكتـاب ليقـرأ منـه، أحضـر سـيف كوبيـن مـن القهـوة وقـد جلـس دون أن يكمـل معـي الحـوار الـذي كان قـد بـدأه معـي قبـل دقائـق فـي السـيارة، وكأنـه ملّنـي ومـا زال أمامنـا رحلـة طويلـة..

أخـرج سـيف هاتفـه ليقضـي وقتـاً ليـس بالقصيـر دون أن ينبـس بكلمـة واحـدة لـي، فـي وقـت لـم أستسـغ طعـم القهـوة فتركتهـا جانبـاً وأخـذت أفكـر فـي كلام سـيف قبـل دقائـق، توقعـت أنـه بشـهادة الدبلـوم سُـتفتح لـي أبـواب القبـول فـي وظيفـة أخـرى أفضـل تتناسـب مـع قدراتـي، ولكـن البـاب حيـث النجـاح كان موصـداً بقفـل أضعـت مفتاحـه فـي رحلـة البحـث الثانيـة عـن وظيفـة، ومـا كان يسـاعدني علـى الاسـتمرار هـو الاحسـاس بأنـي اكتسـبت قليـلاً مـن الثقـة بالنفـس واحتـرام مـن كانـوا يعملـون معـي فـي وقـت قياسـي، لـم تكـن عقـول تتبجـح بمناصبهـا بقـدر إنتاجيتهـا فـي العمـل، وعلـى مـا يبـدو أن كل شـيء انتهـى بـأن أكـون ذلـك الموظـف السـيئ فـي وقـت كانـت الأمـور تنصـب لمصلحتـي الشـخصية، لـن يفهـم سـيف أن قـرار الاسـتقالة مـن العمـل كان بحجـة التطويـر، ولكـنَّ الحـدث تحـول لأكـون ذلـك المتنكـر بقنـاع الخـداع والزيـف فـي نظـره..

هذه الجملة من الأحداث انتهت بأن جعلوا مني صياداً وصيداً..

فـي الزاويـة المقابلـة لـي كانـت هنـاك فتـاة واقفـة ومعهـا رجـل يبـدو قريبـاً لهـا ولكنهـا شـدت انتباهـي مـع حالـة الصمـت فأخـذت أراقبهـا وكأنـي ألمـح قليـلاً مـن الذكريـات لوجـه فتـاة أخـرى وأعيـش معهـا فتـرة علـى طاولـة ملكـة التخيـل، أراقبهـا مثلمـا كنـت فـي السـابق أفعـل وأنـا أراقـب نـوره فتـاة البـاب الخشـبي، الفـرق هنـا أنهـا كانـت واقفـة بشـموخ أنثـوي أصيـل، ونضـارة الشـباب بـارزة بقوامهـا المشـتد والمسـتقيم الظهـر، الأسـنان

تتألـق بريقـاً مـع كل ابتسـامة، والعينـان لا مثيـل لهمـا، تتحـركان يمنـة ويسـرة وكأنمـا أنهكهـا البحـث، ومـع هـذا لـم تنتبـه لـي..

إنـه عشـق الدهاليـز لعاشـق طائـش استسـلم لملكـة الإدراك هـذه المـرة، فهنـا امـرأة ظاهـرة أمامـه بـكل تفاصيلهـا فأخـذ يراقبهـا بحـذر، ليغلّـف رائحـة العزلـة والسـكينة بنبضـه المتهـور.

تتبـع بخطواتهـا البطيئـة جـداً رجـلاً كان يرافقهـا، قـد يكـون هـذا الرجـل هـو زوجهـا وهمـا الآن هنـا لتمضيـة شـهر العسـل فـي العاصمـة الفرنسـية، وجودهمـا هنـا فـي المـكان نفسـه عنـد صالـة الانتظـار يوحـي بذلـك..

كانـت خطواتهـا المتقطعـة تصـدر أصواتـاً أشـبه بمقطوعـة موسـيقية، توقفـت بالقـرب منـي وقـد ابتعـد عنهـا سـيدها ليحضـر لهـا شـيئاً، فمـن يعرفهـا عـن قـرب لابـد أن يعتنـي بهـا!

ومـا إن غـاب عنهـا الرجـل حتـى التقـت عينـاي عينيهـا فـي لحظـة أحدثـت فـي جسـدي ارتعاشـة خـوف فنظـرت سـريعاً إلـى الأرض مختبئـاً مـن قـوة نظراتهـا وقسـوتها، عـاودت النظـر مـن جديـد فقـد تكـون لهـذه النظـرة نـداء صامـت لكـي أسـتمر، رفعـت رأسـي ببـطء ونظـرت إليهـا مجـددًا، التقـت العينـان فدامـت النظـرة دهـراً فـي تجاهـل تـام للنـاس الذيـن كانـوا يتزاحمـون حولنـا، أطلـت النظـر بجـرأة نحوهـا وقـد كانـت عينـاي تلتهبـان هلعـاً، تفجـر بداخلـي بـركان الحـب الـذي لـم أسـتطع إدراك مـداه حتـى قطـع هـذا الموقـف صـوت الرجـل وهـو يناديهـا باسـمها، فاتـن، وقـد توقـف عندهـا فكانـت نظراتـه تتوجـه نحـوي ولكنـه لـم يطـل نظرتـه إلـي ليقـف إلـى

جانبها ويتبادلا حديثاً مطولاً، نظر إلي مرة أخرى، فأحسست حينئذ أن ما فعلته لم يكن صواباً، ولكن اللّاحوار تم بصورة تلقائية وفيه مؤشر لإلغاء عملية التواصل الروحي، تذكرت حينئذ حقيقة أن كل حوار هو بين اثنين أو أكثر وفيه شرط واحد يكمن في الاختلاف، لا يقال عن تلك المناقشات المتشابهة حوارات هي أشبه بتدريبات للذاكرة حتى تستعيد عافيتها برؤية جانب واحد من الهرم ذي الثلاثة أوجه، وما كان بيني وبين فاتن هو اللّاحوار فنظراتنا كانت متشابهة جداً، كان علي أن أقطع الأمل نهائياً فيما يتعلق بالتعرف إليها، فتوقفت هنا فما قد حظيت به من نظرات خاطفة مع فاتن يكفي، لأقلب صفحة بعين مترعة بالحزن بعد أن سحقني هذا الحلم الصغير الذي كان أشبه بنسيج حلم كخيوط العنكبوت عندما تخترقها يد بشرية لا تريد إلا أن تعبث بملكة الخيال..

مرت فترة هدوء عميقة متأملاً مقولة قرأتها لسيوران وهي أن الحدس الأول هو الحدس الصحيح، وكان الليل يتقدم دون أن يتبدل صمته، أخذت كتاباً كان يحمله سيف بعد أن استأذنته في ذلك ولم يمانع سيف، فمرر لي الكتاب ويبدو سهلاً مقارنة بحجمه الصغير، عنوانه بيكاسو، تصفحته وقد كان مليئاً بالصور حتى نسيت نفسي وأصبحت الأشياء تتدافع إلى رأسي أسرع بكثير مما أتخيله، الطائرة والحسناء وكل هذه الأجهزة الحديثة من حولي وكأني في عالم لا يستوعب هذه المظاهر من التغيير..

توقفت في لحظة وقلت لسيف في حماسة:

- ما هذه الرسومات؟
- يبدو أن الكتاب قد أعجبك.
- وهل تُصنف على أنها فن؟
- رسومات بيكاسو فن يترجم الطريقة التي تسعى المخيلة بها إلى التفلت من الطبيعة وإعطاء شكل له، أنا وأنت ومن يتلمس هذا الشأن هو من يترجم.
- ولكنها قبيحة!
- ألا ترى الجمال في أي شيء؟
- أجبت في نفسي عن سؤال سيف في الوقت الذي كنت أحدق مباشرة إلى فاتنة، قائلاً في نفسي: «إني أراه الآن ماثلاً أمامي»..
- كان سيف متسمراً في مكانه ينتظر مني إجابة وكأن هذا الموضوع قد استفزه:
- أرى الجمال بطريقتي الخاصة ولتكن هذه مجرد ترجمة مني لبيكاسو.
- حدثتني مرة عن تشايكوفسكي.
- نعم، أسمع له كثيراً.
- وحدثتني عن فاغنر.
- نعم، نعم.
- إذن أنت مغرم بالفنون، وبالموسيقى تحديداً.

- ما من شيء آخر يمكنني فعله.
- ومـن يهتـم بالفنـون يهتـم أيضـاً بالشـعر وبالتصويـر والرسـم، وبالعمـارة والنحـت.
- طبيعي جداً.
- لمَ لا تعترف إذن بفن بيكاسو!
- لأنـه لا يعجبنـي، ومسـألة الـذوق شـأن خـاص بـي، ورأيـي وحـده هـو الـذي يهـم، لا أعلـم مـا الـذي يدفعـك لأن تتكلـم هكـذا وكأنـي قـد اقترفـت خطـأ.. تبـدو الآن كرسـومات بيكاسـو، وحالتـك مسـتعصية.

رد هنـا سـيف وقـد تملكتـه حالـة مـن الضحـك: «بـدأت الآن اقتنـع بأفـكار بيكاسـو أيضـاً، فلـه مقولـة فـي الكتـاب تـرد عليـك «أن الفـن مثـل الحيـاة يسـتعصي عـن التعريـف»

- مـن يرسـم هكـذا حتمـاً سـيقول هـذا الـكلام، هـذه اللوحـة مثـلاً مـاذا يريـد بهـا «امـرأة علـى كرسـي أحمـر» أو هـذه «رأس امـرأة».
- بالمناسبة سنزور معرضه في باريس.
- زره وحدك فهذا الرجل لا يستهويني.
- قد تجد هناك ما قد يسرك.
- فـي اللامبـالاة فلسـفة، إنهـا صفـة مـن صفـات الأمـل كمـا يقـول محمـود درويـش.
- هـذا الـكلام سـاقط، فلـو أُخـذ كلام هـذا الدرويـش فـي مجـال

فلسفة العلم لقصد الجمود، وفي الجمود عجز تام عن متابعة ما هو بوجود في أعلى الهرم..

- لعله كان يقصد شيئاً ما في فلسفة التاريخ.
- لو أُخذ بفلسفة التاريخ لقصد التوقف على قراءة لما قبل شريعة حمورابي.
- لعله كان يقصد فلسفة اللغة.
- هذا معناه أن نعود إلى لغة التخاطب بالإشارة.
- لعله كان يقصد فلسفة الجمال.
- اللامبالاة في فلسفة الجمال تعني تلمس كل قيمة جمالية بأدوات العقل الجمعي.
- بالعكس، اللا مبالاة هي في نسف هذا العقل الجمعي.
- هذا هو فعل العدمية.
- لا فرق بينهما.
- العدمية هي نتاج فراغ جاء بعد مرحلة الحداثة، اللا مبالاة هي مجرد دعوة للجمود والتوقف كأن تستسلم لحقيقة وجود مؤامرة عليك.
- حسناً، حسناً سأذهب معك إلى معرض بيكاسو..

وهنا ضحك سيف ويبدو أنه قد نسي تماماً حديثنا الذي كان قبلاً في السيارة. وما إن ضج في المكان صوت الإعلان عن رحلة السفر المتوجهة إلى باريس حتى تحول المكان بهدوئه إلى نوع من الصخب

في تتبع هذه الكتل البشرية، لألمح من بعيد الحسناء وهي تمشي بخطى واثقة نحو البوابة نفسها، تقترب ومعها رجلان في كامل أناقتهما..

كان المقعد في الطائرة مناسباً تماماً لمراقبة فاتن طوال الرحلة ما جعلني أشعر بسعادة أكبر، سيف إلى جانبي ويبدو وكأنه انشغل بشيء ما، وهذا يعني أنه لاشيء أفضل من الاستمتاع بحاسة النظر هنا وهو فن أجيده تماماً، وما إن استقرت الطيارة في السماء حتى انصرف سيف إلى كتابه بعد أن وضع نظارته ولم أكن أعلم أنه ضعيف النظر ليحل الصمت بشكل غريب داخل هذه الطائرة ومع هذه الجموع من حولي تخيلت كما لو كنت أستمع إلى خرير الينابيع فتتلاشى الصور شيئاً فشيئاً من حولي حتى أُغلقت عيناي بشكل كامل ودخلت في نوم عميق..

ولم يوقظني إلا صوت المضيفة وهي تتحدث إلى سيف عن قائمة الطعام، نظرت إليها فكانت ابتسامتها حاضرة وهي تعتذر لي وتسألني إذا بالإمكان تناول الطعام، فطلبت منها قهوة عربية أولاً!

فضحك منه سيف وهو يقول : « نحن على الخطوط الفرنسية وتريد قهوة عربية، تناول طعامك الآن فأمامنا مسافة طويلة»..

فطلبت من سيف ان يتولى مهمة الاختيار واكتفيت بنظرة إلى فاتن فكانت تتحدث بصوت مسموع وكأنها أزالت عنها الخجل، وصل الطعام وطاب لي أن أستمتع بكل حالات السلام الداخلي وأمامي فاتن، طبق هنا وطبق هناك..

بعد فترة التفت نحوي من كان جالساً في جوار الفاتنة ثم التفت صاحبه الثاني فواصلا التحديق دون أن تختلج في وجهيهما عضلة..

ثـمّ، فجـأة، وقفـا ليتجهـا نحـوي كـي ينتزعـا منـي حقـي فـي عيـش حالـة خاصـة مـع السـلام الداخلـي فهربـت بنظـري نحـو الأرض وأي هـرب سـيلوح لـي مـع هـذا المـكان المغلـق تمامـاً، لـم تكـن النظـرة ومـن ثـم الحركـة سـوى مشـهد حقيقـي لأفـلام الحركـة وقـد أثـارت فـيَّ الذعـر تمامـاً..

شـعرت بنـوع مـن الحاجـة الغامضـة إلـى الهـرب، تمنيـت لـو أنّـي فـي كهـف عميـق تحـت الأرض أو أن أرمـي بنفسـي مـن خـلال تلـك النافـذة الصغيـرة علـى أن أكـون فـي مثـل هـذا الموقـف فـي حضـرة سـيف، ومـا فائـدة أن ألـوم نفسـي أو أن أصفهـا بالحماقـة وبالمـرض، فقـد توقفـا فـي جـواري عندهـا أيقنـت أنـه لا مجـال مـن الهـرب..

أوهمت نفسي كثيراً والحقيقة أن فعل المراقبة فن لا أجيده..

وفـي حالـة أشـبه بضعـف، بألـم، بمـرارة، بغشـاوة كنـت أشـعر بـأن سـقوطي هـذه المـرة سـيكون مؤلمـاً..

النظرة نحو الأرض هروب..

والانحناء قد يكون اعترافاً..

وما بين الهروب والاعتراف هزيمة أخرى بحضور سيف..

قطـع خوفـي صـوت سـيف وهـو يرحـب بهمـا وقـد قابـلاه بالترحيـب بسـعادة وتعالـت الضحـكات فـي الوقـت الـذي كنـت سـأنفجر..

وقـف سـيف وقـد كنـت حائـلاً بينهمـا فطلـب منـي أن أفسـح لـه فـي المجـال..

صافحا سيف ثم دار بينهما حوار في الطائرة:

- كيف حالك؟
- الحمد الله.
- يبــدو أنــك ســتحضر معنــا معــرض الدعايــة والإعــلان فــي قصــر المؤتمــرات؟
- نعم، سأحضره.
- انـا وأيمـن سـنكون هنـاك خـلال فتـرة المعـرض وسـيكون لنـا وجود وحضـور فـي هـذه السـنة، ومـاذا عن شـركتكم؟
- متواجد بصفة شخصية كزائر..
- جميل.
- إذن ستكون بيننا لقاءات هناك، في أي فندق ستكون.
- ذكــر لهــم ســيف اســم الفنــدق فكانــت الصدمــة بأنــه الفنــدق نفســه الــذي ســتكون فيــه فاتــن..
- وبينمـا كنـت متظاهـراً بالانشـغال الذهنـي، سـمعت سـيف يقـول: سـنلتقي فـي المعـرض وسـيكون معـي صديقـي عسـاف، نسـيت أن أعـرف بـه.
- أهــلا أســتاذ عســاف، تعمــل فــي مجــال الدعايــة والإعــلان أخ عســاف؟
- فـي الوقـت الحاضـر لا اعمـل، ولكـن مـن يـدري قـد يحـدث هـذا فـي المسـتقبل.
- جميــل، عالــم ممتــع، « لا يفتــى ومالــك فــي المدينــة» اســأل

الأستاذ سيف عن أسرارها، فهي عالم متعب وجميل في
الوقت نفسه!

وهنا مرت المضيفة ومعها عربة تحملها فضاق بها الممر بوجود الثنائي، فقال أحدهم على عجل:

- نلتقي هناك.

- إن شاء الله.

كانا ثنائياً غريباً، كادَ ينزع قلبي من مكانه..

فاتن ستكون هناك في المكان نفسه وفي الفندق نفسه!

التفتُ إلى سيف وسألته: «من هذا الرجل؟»

- اسمه خالد وهو يعمل في وكالة دعاية وإعلان بيني وبينها أعمال.

- شركه منافسة.

- الشركة أخذت توكيلاً لشركة عالمية وعلى هذا الأساس سيكون لها حضور في المعرض.

- وشركتك؟

- تعتبر محلية، ومثل هذه المعارض تعطيني أفكاراً في هذا المجال.

- يعني خبرة واحتكاك.

- نعم.

امتدح سيف خالد كثيراً فبدا لي أنه سعيد بوجوده في باريس. عدت

مجـدداً إلـى حالـة التأمـل وفـي تتبـع الحـدس جنـون، لا شـيء أجمـل فـي الحيـاة مـن الشـعور بالنجـاة مـن شـيء بعـد أن يأخـذك الحـدس إلـى الاقتنـاع ولـو قليـلاً بمسـألة الانتحـار، كل الأشـياء تتـراءى فـي عيـن المخطـوف بصـورة أخـرى مختلفـة تبعـث فـي كل تفاصيلهـا الدقيقـة بالحيـاة، ومـا حـدث بعـد كان فرصـة لالتقـاط الأنفـاس منـي والعـودة مـن سـيف مجـدداً إلـى مـا كان عليـه مـن قـراءة، فواصلـت النظـر علـى اسـتحياء فـي مراقبـة جديـدة لفاتـن التـي لـم تتحـرك أو تتكلـم طـوال السـاعات الماضيـة!

غفـا سـيف قليـلاً لأجـد بعدهـا أن الجميـع قـد غـط فـي نـوم عميـق ماعـدا القليـل ممـن يعانـون الأرق أو حتـى الخـوف أثنـاء السـفر..

وعندهـا أشـار كابتـن الطائـرة بربـط أحزمـة المقاعـد اسـتعداداً للهبـوط، وقـد كانـت النافـذة بعيـدة عنـي ولكننـي زاحمـت سـيف قليـلاً لأبحـث عـن معالـم لهـذه المدينـة، وعنـد هبوطهـا تَوَجَّـه الـركاب إلـى بنايـة المطـار، فوجئـت بهـذا الكـم الهائـل مـن الحراسـات الأمنيـة المشـددة فـي كل مـكان.

خلـف الجمـوع كنـت أمشـي ممتلئـاً برغبـة الاكتشـاف، يقولـون كل سـفر فـي المـكان، هـو سـفر فـي الذاكـرة وفـي المخيلـة وهـا قـد وصلـت إلـى المدينـة السـاحرة ولكـن مـا زال بينـي وبينهـا إجـراءات «روتينيـة» تبـدو صارمـة فـي المطـار وهـي مـا يفصـل بيـن المحـب وحبيبتـه بعـد فـراق سـنوات طويلـة إن لـم تكـن حرمانـاً.

وبعـد أن ختمـت جـوازات السـفر ذهبنـا إلـى مـكان العربـات لأخـذ عربـة كـي نحمـل بهـا حقائبنـا، حملـت حقيبـة علـى ظهـري والأخـرى فـي

يـدي وانطلقـت خلـف سـيف، كل مـا أفعلـه هـو أن أتبـع هـذا الرجـل فـي كل خطـوة وكل حركـة يقـوم بهـا.

خرجنـا مـن المطـار وكانـت الأجـواء تزهـو بمطـر خفيـف وضبـاب، ويـا لروعتـه أحـب هـذا الطقـس النـادر فـي بلـدي، ومـع تيـارات الهـواء البـاردة وسـعة الجـو القـارس ركبنـا أول سـيارة تاكسـي مـن نـوع «مرسـيدس» سـوداء اللـون سـائقها يبـدو فـي الخمسـين مـن عمـره متوسـط الطـول يرتـدي بنطـالاً مـن الجينـز وقميصـاً ذا رقبـة عاليـة دون أن يرتـدي جاكيـت مـع هـذا الجـو القـارس، كان فـي اسـتقبالنا بمجـرد خروجنـا مباشـرة، تحـدث معـه سـيف باللغـة الفرنسـية طالبـاً منـه أن يقودنـا إلـى الفنـدق ليتواصـل بينهمـا حـوار دون أن ألتقـط معنـى لـه..

اكتفيـت بمشـاهدة معالـم هـذه المدينـة وفيهـا صخـب الحيـاة علـى الطريـق وفـي جـزء منـه علقنـا فـي زحمـة داخـل نفـق، لكـن سـيف طمأننـي إلـى أن المدينـة أجمـل بـأي وسـيلة أخـرى للمواصـلات، ومـا إن وصلنـا إلـى الفنـدق حتـى طلـب منـي سـيف أن أكـون جاهـزاً بعـد سـاعة مـن الآن فمـا زال اليـوم فـي أولـه ويريـد أن يتجـول قليـلاً، ذهبنـا إلـى مقهـى قريـب جـداً مـن الفنـدق وقـد كان الجـو فـي قمـة روعتـه، ومـن هـذا المقهـى مشـينا حتـى وصلنـا إلـى بـرج أيفـل فطلـب منـي أن أخـرج الكاميـرا كـي ألتقـط بعـض الصـور فأخرجـت جهـازي القديـم جـداً وأعلـم جيـداً أنـه سـيلتقط الجمـال ليعرضهـا لـي قبيحـة، صعدنـا إلـى البـرج فبانـت لنـا باريـس مـن أعلـى وأي مدينـة كانـت، أكـره الجمـوع وكثـرة البشـر فـي حـدود ضيقـة ومـع

هـذا لـم أشـعر بهـم لروعـة المـكان، أخـرج سـيف خريطـة كانـت معـه باحثـاً عـن شـيء، توقـف عنـد أحـد المطاعـم التونسـية فتناولنـا وجبـه لا أعلـم إن كانـت غـداء أم عشـاء فالسـاعة تشـير إلـى السـابعة وكأنهـا فـي بـلادي فتـرة مـا بعـد العصـر، عدنـا إلـى الفنـدق، بعـد أن أتعبنـا المشـي فـي هـذا اليـوم لكنّـي لـم أشـعر بالمسـافة لأنّ المناظـر مـن حولـي كانـت رائعـة..

وفـي اليـوم التالـي اسـتيقظت فـي سـاعة متأخـرة قليـلاً علـى رنيـن الهاتـف فـكان سـيف يتكلـم مـن الجهـة الأخـرى بصـوت كلـه نشـاط ويطلـب منـي النـزول بعـد سـاعة، ولـم تكـن سـاعات النـوم التـي غفـوت بهـا كافيـة بالقـدر الـذي كنـت أعتقـده كـي أكـون فـي حالـة جيـدة..

تناولنـا الفطـور مـع أصدقـاء سـيف ولـم تكـن الفاتنـة معهـم، وكانـت حواراتهـم فـي حـدود الدعايـة والإعـلان..

قـرروا زيـارة المعـرض وهـو هدفهـم الرئيسـي هنـا وقـد كانـت المسـافة قريبـة جـداً مـن الفنـدق، فذهبـت معهـم وقـد كان المعـرض جميـلاً تمتلـئ النفـس فيـه بصخـب مـن نـوع آخـر، الأجسـاد بتناغـم تتلاقـى وتتقاطـع مثـل دمـى متحركـة داخـل اسـتعراض آلـيّ، يتحركـون وكأنهـم قطـع متعـددة لنمـوذج واحـد فيـه مـن يلتقـط الصـور وفيـه مـن يلتقـط أنفاسـه أمـام طاولـة صغيـرة ومـن أكثـر هـذه الطـاولات فـي المـكان، فـي الداخـل وفـي الخـارج وضعـت دون أن تكـون هنـاك كـراسٍ، الجمـوع أكثرهـا أمـام البوابـة الكبيـرة التـي مـا إن تجاوزناهـا حتـى رأيـت مجموعـة كبيـرة مـن الفتيـات الشـقراوات يقمـن بتسـجيل الأسـماء لأتسـلم بعدهـا حقيبـة مـن المعـرض مـع بطاقـة

تجـول داخـل المعـرض، وجـوه النـاس تراقـب الاشـياء هنـا وهنـاك بفـرح وسـرور، وقـد كان سـيف منهمـكاً فـي الحديـث عـن تفاصيـل أكاد أجهلهـا، التصقـت بسيف فـي تنقلـه مـن مـكان إلـى مـكان لأكتشـف مـدى براعتـه فـي مناقشته الأسـعار وإن كان بعضهـا يتجـاوز سـعره المليـون ريـال، هـذا المناضـل يناقـش فـي أدق التفاصيـل متجاهـلاً السـعر، وفـي إحـدى الزوايـا تقابـل خالـد وسـيف ليكمـلا رحلتهمـا معـاً وبقيـت خلفهمـا لا أفقـه شـيئاً مـن حديثهمـا المتواصـل عـن الأجهـزة وعـن مواصفاتهـا، وقـد توقفـا عنـد أيمـن ولـم تكـن الفاتنـة حاضرة، وإن كانـت روحـي تتـوق إلـى رؤيتهـا فقـد مـرَّ علـي هنـا أكثـر مـن َثـلاث سـاعات وهـي كافيـة للانتقـال إلـى الخطـوة التاليـة التـي تأتـي بعـد مرحلـة الإثـارة، أصبحـت فـي هـذا المـكان تائهـاً، ضائعـاً بيـن الجمهـور لا أعـرف مـاذا أفعـل وعـن أي شـيء أتحـدث، فلغـة المـكان هـي لغـة التخصـص والتخصـص فـي الدعايـة والإعـلان!

غـاب عنـي سـيف فجـأة فواصلـت المسـير علـى غيـر هـدى متنقـلاً بيـن الزوايـا أتفحـص الوجـوه وقـد أخذتهـا الحماسـة وهـي تتنقـل فـي أروقـة المعـرض، ضـاع سـيف مـع الزحـام وهـذا المطلـوب فحملـت نفسـي بخطـواتٍ غيـر مسـتقرة فـي اتجـاه مباشـر نحـو بوابـة الخـروج مـن هـذا المـكان..

خرجـت مـن هـذا المـكان المغلـق حيـث الأجـواء البـاردة فـي الخـارج، لـم تكـن هنـاك رغبـة فـي العـودة إلـى الفنـدق بسـرعة فسـرت فـي طريـق آخـر

مختلف حتى وجدت نفسي أمام دار سينما فدخلتها واشتريت تذكرة لفيلم أعجبني تصميم عرضه، كانت المقاعد شبه خالية من البشر، أصابني الملل لكثرة الحديث في هذا الفيلم دون أن أفهم شيئاً، فخرجت من هذا المكان محملاً ببعض من التعاسة في الاختيار..

كنت أسير في الشوارع دون معطف والجو يزداد برودة، فدهمتني الرغبة في التدخين لأول مرة، لم أقاوم هذه الرغبة فمررت على محل كان عن يميني مباشرة فطلبت بالإشارة شيئاً يشبه علبة السجائر وما إن خرجت حتى أشعلت سيجارتي الأولى، قررت منتشياً أن أمشي في اتجاه آخر مختلف يؤدي إلى قوس النصر مباشرة، أراه قريباً ولكن المسافة لم تكن قريبة، وما إن وصلت حتى شدني المنظر لقدم هذا المبنى ولكثرة الناس من حوله، يبدو وكأنه قطعة منحوتة من حجر، توقفت طويلاً أتأمل المنظر لأتحرك بعدها خلف مجموعة من السياح تبدو ملامحهم يونانية قدموا هنا وفي بلادهم تاريخ يروى للفلسفة القديمة، هذه المجموعة قادتني أولاً إلى مسلة فرعونية لا تقل جمالاً عن قوس النصر، هنا تاريخ وهناك تاريخ آخر ففي الأولى قراءة لتاريخ نابليون بونابرت وفي الثانية حكايات فرعونية لحضارة استفاد منها العالم، توقفت قليلاً وعيناي تراقبان هذه المجموعة من السياح بخرائطهم الكثيرة لاكتشاف معالم هذا البلد، وما إن تحركوا حتى تحركت معهم لأجد نفسي أمام متحف اللوفر، قررت الدخول ولكن ما إن رأيت عدد السياح المهول حتى تجاهلت رغبتي واكتفيت بالتقاط

الصور لزوايا مختلفة وكأن معي كاميرا احترافية، وما إن انتهيت حتى بحثت عن المجموعة التي كنت ألاحقها فلم أجدها، ضاعت مع الزحام وهنا أحسست بحالة من القلق، لا أريد أن أعود من الطريق نفسه وفي الوقت نفسه لا أريد أن أتيه في المكان، فقررت السير باتجاه مستقيم لما هو موجود خلف المتحف فوجدت نفسي أمام نهر السين فأحسست بزوال حال القلق لجمال الأرصفة فيها، رسومات للوحات ومجموعة من الكتب وكأن هذا الرصيف يستنطق حياة، انطلقت بمحاذاة هذا النهر بالاتجاه المعاكس لمكان إقامتي رغبة في الاكتشاف أكثر، الجسر الأول تزين بأقفال معلقة عليه وضعت كإعلان لحالة عشق أبدي بين المحبين، فتذكرت تلك الفاتنة في المطار، لأعود مباشرة إلى الفندق فطريق العودة لا يحتاج إلى مرشد أو إلى سؤال، رجعت مرة أخرى إلى متحف اللوفر فالمسلة الفرعونية فقوس النصر ومنه إلى الشارع الذي جئت منه، دون أن أحفظ الأسماء، وما إن تأكد لي أني في المسار الصحيح حتى أحسست براحة المنتصر في سباق ماراثوني طويل، لم أشعر بالتعب ولكني أحسست بلسعة البرد القارس، وجدت نفسي أمام الفندق وهناك رأيت فاتن فأحسست بحرارة في المكان كافية لأن تذهب بشدة برد هذا اليوم، كانت فاتن جالسة وحدها وبين يديها مجلة أو كتاب تتصفحه مرة ومرة ترمي برأسها بين يديها وكأنها في حالة بكاء والدموع تنحدر بغزارة على وجنتيها، لم تكن تقرأ بتركيز فهي حتماً تفكر في شيء ما..

اقتربت منها فَبَدَت لي وكأنها زهرة انبثقت من قلب الطبيعة لتعطي المكان جمالاً وتشعر الآخرين بالسعادة، لم يستطع الاضطراب أن يؤثر فيّ حينما اقتربت منها أكثر دون شعور لأراها بوضوح كامل وقد كانت أجمل بكثير والصورة معها على عكس ما هو متوقع من صورة باهتة متعبة كلما اقتربت منها أكثر..

جمالها يبرز عند الغياب وفي الحضور، فجأة بدت لي الحياة وكأنها في لحظات من التأمل لحقيقة الجمال في الحضور الواقعي للأشياء المستقلة عن الأفكار، في كيفية عرض المكان لنفسه دون مساعدة من أحد..

كنا وحيدين في الصالة مع موظفي الاستقبال وقد كانا مشغولَيْنِ تماماً عما يجري حولهما، أصبحت في مجال لا أنظر فيه إلّا إلى الأمام.. وبلهفة سألت أحد الرجلين فلم يفهم معنى لكلامي، فكررت عليه كلاماً أنا لا أفهمه، فالتفت إلى صاحبه فشعرت بحرج تلك الجرأة مني فهربت منهما ولا أعلم ماذا أريد بالضبط، فتوجهت إلى فاتن مباشرة فبانت لي ملامح الفاتنة أكثر، ولأول مرة كان اللقاء وجهاً لوجه كانت تبتسم ونظرتها الحنونة، العابثة تؤكد أنها قد سمعت حواري مع الشابين..

قلت لها: بصوت مرتبك: «السلام عليكم»

ردت بابتسامة ساحرة: «وعليكم السلام»

ويـا لجمـال صوتهـا، هديـةٌ مـن السّـماء يأتـي كعذوبـة المطـر ليـروي ظمـأ العطشـان، صـوت وكأنـه يخـرج مـن جبـال الألـب المغطـاة بالثلـوج وقـد اسـتقر فـي المـروج الخضـراء فـي جـوار بحيـرة صافيـة ليتـلألأ تحـت ضـوء القمـر كآلـة موسـيقية، لا تحتـاج إلـى مـن يروضهـا بمهارتـه حتـى وإن كان هايـدن أو مـوزارت، فلغـة الجسـد هـي الأخـرى كانـت تتحـدث إليـه بصـوت موسـيقي، ثقـة بالنفـس تنطـق بهجـة وفخـراً وأناقـة فقـد كانـت زينتهـا كلهـا تتنفـس نعومـة كنعومـة يدهـا العابثـة بصفحـات الكتـاب وهـي تقلـب الصفحـة ثـم تعـود إليهـا دون أن تكتـرث لرفقـة هـذا المسـاء..

- أعتـذر عـن إزعاجـك ولكنـي رأيتُـكِ جالسـة هنـا وحـدك والجميـع فـي المعـرض.

ردّت علـي بلغـة لـم تكـن عربيـة فقلـت لهـا: «عـذراً لا أجيـد اللغـة الانجليزيــة».

فقالـت وهـي تبتسـم وكان كلامهـا مصحوبـاً بشـيء مـن الفخـر: لـم تكـن لغـة إنجليزيـة.

لـم أفهـم شـيئاً ولكنـي شـعرت بعذوبـة الصـوت وأحسسـت بنعومـة هـذه اليـد وهـي ترفعهـا إلـى صدرهـا قائلـة بـكل فخـر:

«كانت باللغة الفرنسيه، لكن لا عليك فأنا أجيد العربية أيضاً».

- يبدو أنك تجيدين اللغات.

فاتسـعت ابتسـامة علـى شـفتيها وهمسـت: «أجيـد التحـدث بسـبع لغـات بطلاقـة والثامنـة لا بـأس بهـا».

لأرد عليها في حماسة وقد أثار كلامها فضولي رغبة في التباهي بنفسي أنا أيضاً: « أمّا أنا، فأجيد التحدث بسبع لهجات مختلفة من اللغة العربية».

- تقصد مصري وشامي وخليجي ومغربي ....
- لا، وان كنت أعرف القليل منها ولكن ما كنت أقصده هو لهجة أهل نجد والحجاز والشرقية والشمال والجنوب داخل الجزيرة العربية..
- ياله من تعقيد للغة واحدة، ولكن يبقى جهد جبار منك أن تتعلم كل هذه اللهجات..
- أراكِ منسجمة إلى أبعد حدّ مع هذا الكتاب وكأنكما صديقان..

رفعت الكتاب إلى أعلى وقالت بشيء من الفخر: يسمّونها الفلسفة وهو عن مناحي البرهان عند الكندي والعلاقة بين البيان والبرهان عند الفارابي وتأسيس العرفان على البرهان عند ابن سينا..

نظرت إليها في دهشة قائلاً: يبدو أن الانسجام واضح ولكن لماذا تضعين رأسك بين يديك في كل مرة..

- أكنت تراقبني؟
- نعم.
- ولِمَ كنت تراقبني؟
- أعرف أنك عربية وخفت بأن مكروهاً قد أصابك فقد كنتِ كمن هو غارق في حالة بكاء.

- ردت بكلمات ضيعتها حالة الضحك: «يبدو لي أنك من أحفاد الحصري»..
- الحصري، وماذا عساه أن يكون هذا الحصري..
- لا عليك، كنت أحفظ بعض المقاطع في الكتاب.
- ألم تزوري المعرض؟
- لا.
- لقد توقعت أنك هنا لزيارة المعرض.
- لا،، جئت مع أخي أيمن وهو من يهتم بهذا المعرض أما أنا فليس لي علاقة بالدعاية والإعلان لا من قريب ولا من بعيد.
- حالتك تماماً كحالتي.
- وما الذي دفعك لأن تكون هنا؟
- جئت مع صديقي سيف.
- وكيف كان المعرض.
- لم يعجبني.
- زرته في العام الماضي ولم يعجبني أيضاً.
- ولماذا قدمتِ إلى هنا.
- سنزور أبي في ميلانو بعد المعرض.
- اسمك فاتن.
- نعم اسمي فاتن.

وعلى الرغم من أنها لم تسألني عن اسمي إلا أنني قد أحسست في قلبي من الخفقان ما دعاني إلى أن أستند إلى عمود كان إلى جانبي بحثاً عن تناغم ومحاولة لتعلُّم سر لغة الجسد في هذا الوقت لعل كلماتي تخرج مني بهدوء : « اسمي عساف، اسمي عساف».

جميل، اسم جميل.

شكراً.

حاولت أن أستنطق ذاكرتي بشيء حتى لا يتوقف حديثنا عند هذا الحد لكنها ردت قبل أن أبدأ بعد أن ارتسمت ملامحها بالجد وكان وجهها يعبر عن قلق حقيقي: «أنا الآن كما ترى مشغولة قليلاً، عليَّ أن أكمل وسعيدة بمعرفتك.

أشاحت بنظرها نحو كتابها وقد كنت واقفاً بينما هي جالسة ولم تطلب مني الجلوس، ما أشعرني بعدم رغبتها في مواصلة الحديث، فاعتذرت لها مرة أخرى على تطفلي، لترد بصوت لا يكاد يسمع: « لا عليك»..

قلت لها متداركاً : «سأعترف لك بسّر».

- عفواً..

أجابت وهي مقطِّبة الجبين وبنظرة مستفهمة، فعجز لساني عن نطق كلمة واحدة وكأني أحمق ممسوس، وهل للإنسان مقدرة على تأمل سلوكه وهو في حالة حركة، فكرت في الرحيل حاملاً معي تعاسة تكفيني ما أصابني من حرج فما زال نظرها باتجاه كتاب كان بين يديها فاستدرت حول نفسي بخطوات مرتبكة ولا أعلم إلى أين أتجه،

فأخـذت مـن طاولتهـا منديـلاً لا حاجـة لـه بـه وانصرفـت دون أن أقـول لهـا شـيئاً..

تحولـت علـى يـدي هـذه الفيلسـوفة الصغيـرة إلـى قتيـل، كانـت طعنتهـا لـي محكمـة جـداً، مـررت بجانـب موظفـي الاسـتقبال ومـا زالا منهمكيـن فـي عملهمـا فمـرة هـذا علـى يميـن الآخـر وتـارة يكـون علـى شـماله، وفـي المصعـد شـاهدت شـاباً يحمـل معـه باقـة أزهـار فاخـرة وكأنهـا أزهـار ياسـمين، ينظـر إلـيَّ بـكل زهـو، وصلـت إلـى غرفتـي وقـد بـدت لـي كئيبـة فـي كل شـيء، فبقيـت وحيـداً محاصـراً بالصمـت مـن كل ناحيـة..

أن أتذكـر يعنـي أن ألـم بطريقـة لا تجلـب معهـا سـوى الهـم فلقـد نظـرت إلـي الفيلسـوفة الصغيـرة باحتقـار ولـم تجـب، أكاد أنفجـر فـي يومـي الأول..

كانـت الأحـداث معـي متقلبـة تحملهـا البعثـرة فـي عوالـم الأشـياء، المـكان هـو مـا أراه هنـا فـي كل شـيء، جمـال وقبـح وتـلاق وتقاطـع، كآبـة وسـعادة، صعـود وهبـوط، كانـت أضـواء المدينـة مـن خلـف النافـذة تبـدو باهتـة متعبـة وهـي أقـرب، وكأنهـا حقيقـة هـذا المـكان..

الوقـت مـا زال مبكـراً ولا يوجـد فـي غرفـة الفنـدق مـا يسـليني سـوى جهـاز تلفـاز يتحـدث بلغـة غريبـة والوجـوه مـن حولـه تحمـل جديـة هـذه الفاتنـة وقسـوتها وكأن الجمـال ذو طابـع عابـر لمـن كان مثلـه غريبـاً عـن هـذا المـكان..

وللخـروج مـن هـذه الدائـرة الضيقـة عـدت مجـدداً إلـى المعـرض

محاولاً أن أجد طريقة للتوحيد ما بين المتعة والحقيقة مستجمعاً شتى طاقات التفكير فلم أشعر بالطريق ولا بالوجوه حتى وصلت إلى المعرض وقد كان سيف كالعاصفة الهوجاء ما إن رآني حتى سأل عن غيابي وكأني طفل فزاد ارتباكي ولم تنفعني تلك الكلمات التي خرجت مني في خجل فلم يتقبل سيف تصرفي وهو من انشغل ذهنه عني كثيراً، لكن هذا السيف سرعان ما يعود إلى طبيعته معي وكأن شيئاً لم يكن، يبدو أنه لا يعاني سوء انسجام..

خرجنا من المعرض بعد أن قام سيف بجولته فمشينا في حدود المنطقة القريبة للمعرض ومعنا خالد، ويبدو أن سيف وجد ضالته، فهذا الرجل يتكلم أكثر مني على أقل تقدير، كان من الممتع رؤيتهما معاً كي أجد مخرجاً يبقيني أقله في الفندق..

ومن احد الشوارع الباريسية دار حوار بين سيف وخالد، بدأه أولاً سيف.

- هذا هو شارع فيكتور هيغو..
- سمعت عنه، وواضح أنه مرتب وأنيق.
- تخيل، كل هذه الفخامة لكاتب قصة البؤساء!..

حالته كانت مستعصية جداً لدرجة أنه صرخ وهو لا يكاد يصدق نفسه بأنه انتهى من كتابة هذه الرواية: لقد أنهيت البؤساء وتنفست الصعداء.

- قرأت عن هذه الرواية أنه كتبها وهو في المنفى.

- ما زال للبؤس والجهل والأمراض والفقر وجود في هذا العالم، بالأمس رأيت في شارع الشانزليزيه سيدة كبيرة في السن قليلاً تفترش الأرض طلباً للعطف والرحمة.
- لطالما أرقني هذا السؤال يا خالد، كيف لنا أن ننظر إلى من أصابهم سهم من سهام البؤس في مجتمع رأسمالي لا يبحث إلا عن الكفاءة الفردية ؟
- لا يمكن لأحد نزع هذه القيمة الفردية وعرضها كإشكالية متخذاً من الفقراء نقطة ارتكاز له، تبدو لي أنك ممن يؤمن بالخير كأسبقية على الحق؟
- بالطبع.
- لكنها قد تدفع للجميع في النهاية لأن يتوقف بناء الفرد لذاته في حال لم يكن هناك هدف في التميز نظير جهد، سيصبح العالم في حالة جمود.
- أراك لا تهتم بما اهتم به هيغو.
- في التجاهل كارثة إنسانية ولكن أن تعالج بصورة منفردة لكل حالة أفضل، بمعنى أن لا نغفل جانب التعليم، ومن ثم العمل..
- نسمع عن دول كثيرة تعاني البطالة يا خالد، يبدو أنك كمن يرى العالم بصورة مثالية..
- العمل هو القضية الأم في حياة الشباب ففيها جواز العبور

إلـى الأهليـة الاجتماعيـة كإنسـان منتـج ومسـتقل ماديـاً يمكنـه تأسـيس أسـرة..

- لـم تجبنـي عـن سـؤالي، بـأي طريقـة ممكنـة تسـتطيع معالجـة وضـع مـن فاتـه قطـار التعليـم وأنـت تعـرف أكيـداً أن لـكل إنسـان ظروفـه الخاصـة بـه؟
- مـن لـم يذهـب بعيـداً فـي الدراسـة تجـده فـي الغالـب ماهـراً فـي الأعمـال الحرفيـة، ومشـكلتها هـي أن التكسـب المـادي لا يأخـذ منحـى الاسـتمرار ولـو وجـد ضمانـات تبقيـه فـي دائـرة الأمـان الوظيفـي لحلـت مشـكلته..
- كـم عـدد هـذه الفئـة مـن النـاس؟.. سـتقتلك المثاليـة فـي يـوم مـن الأيـام..
- مـن يـرك الآن بهـذه الأناقـة سـيعتقد بأنـك علـى عكـس مـا تبـدو لـي.
- تقصد الحكم على المظهر؟
- أقصد الإيمان بالمبدأ.
- هنـا ضحـك سـيف بصـوت عـال ليلتفـت إلـيَّ ليسـألني: هـل قـرأت الروايـة يـا عسـاف؟
- لا، ولكن من اسمها استطيع تلمس فكرة كاتبها؟
- أنصحك بقراءتها.

وهنـا أشـار سـيف لنـا باتجـاه محـل كان علـى ناصيـة الشـارع طالبـاً منّـا

أن نستريح فيه قليلاً، فبادره خالد بابتسامة وهو يقول: بالفعل، هذا ما أريده الآن..

شعرت ببعض الارتياح بسبب أنه لم يكن العدد كبيراً في الداخل فالاجواء كانت رائعة في الخارج، كانت أحاديثهم في البداية عن التخصص فبدا مملاً ولكنّه اتخذ منحى آخر بدأه سيف بسؤال خالد:

- «ما رأيك بكلام من أعلن عن وجود مؤشرات تؤكد على وجود أزمة في الثقافة العربية بشكل عام، وكأنها إشارة منه على أنها أزمة حادّة ومعقدة في تلقي هذه التلقائية في حركة الفكر التي انحرفت عن مسارها؟
- لم يعد التفكير المعرفي هو الهاجس لدى أهل الفكر فحل بديلاً عنه شيء آخر أقرب إلى المدافعة الإيديولوجية والنضال الأصولي وإن كانت كذلك فهي أولاً وقبل كل شيء أزمة ذهنية، وفي هذا الشأن ذهب كثير من المفكرين، الجابري كمثال..
- أزمة ذهنية في عقل المفكر.
- نعم، فالقارئ، هو المؤوّل والمفكك لكل محاولة يقوم بها باحث في العمل العلمي أو في محاولة أخرى لأديب في كتابة العمل الفني، أو في الإعلام وبرامجه المكثفة، أو في الندوات حيث اللقاءات المباشرة لاستنطاق الذاكرة بكل ما تحمله من معارف تراكمية لينتقل الفكر بحركته الطبيعية

مـن فـرد إلـى آخـر أو مـن مجتمـع إلـى آخـر فتسـود هـذه الحركـة لتصبـغ المرحلـة بفعـل يفتـرض أن لا ننظـر إليـه كأزمـة متـى مـا كان تلقائيـاً فـي حركتـه، ولـه أن يشـكل أزمـة متـى مـا كان التوجيـه القسـري والتضليـل حاضريـن.

- ولكـن هـذه الإشـارات السـلبية لـم تمنـع القـارئ مـن أن يقـرأ، بحثـاً عـن مـكان لـه فـي الوجـود..

- لـو لـم يكـن هنـاك قـراء لمـا كان هنـاك كُتّـاب، ومـا بيـن فعـل القـراءة وفعـل الكتابـة تناغـم فـي مجـال واحـد فقـط لا غيـر وهـي الأفـكار، والأصـل فيهـا انهـا مسـتمدة مـن ذاكـرة تأتـي بهـا حصيلـة معرفـة تراكميـة لا تقـوم إلا علـى فعـل ذاتـي، هـذه الحصيلـة مـن الجهـد ومـن العمـل تأتـي بدايـة فـي ملاحقـة هـذه السلسـلة المهولـة مـن الأفـكار مـن أعلـى الهـرم الفكـري ويقصـد بـه فلسـفياً، ففـي الفلسـفة وحدهـا تتـم صناعـة الأفـكار أو مجـال لابتـكار مشـكلات جديـدة.

- ولكن الأزمة هنا، أزمة منهج لا أزمة ذهنية.

- لـن تكـون هـذه الأزمـة أزمـة منهـج عندمـا تكـون المناهـج الفلسـفية حاضـرة وتـدرس فـي المعاهـد والجامعـات، وفـي غيـاب هـذه المناهـج أكاديميـاً أو فـي محاولـة إدماجهـا فـي تخصصـات أخـرى قـد يتسـبب بوجـود حاجـز مـن شـأنه أن يعيـق متابعـة هـذه السلسـلة مـن العلـوم المعرفيـة فـي مجـال

العلوم الإنسانية تحديداً، فتصبح أزمة في غياب منهج، ففي الفلسفة علم وهذا العلم لا يمكن النظر إليه بوصفه الآخر طالما أنها لغة عالمية، وهي حق للجميع، وفي غياب هذا الفرع أو تقنعه بداية أولى لهذه الأزمة التي أشرت إليها بسؤالك.

- لِمَ لا تكون أزمة في المشاريع الفلسفية طالما أنك تطرقت إلى هذا الجانب؟

- بالفعل، الواقع العربي يحكي حقيقة وجود أزمة في المشاريع الفلسفية لأن تاريخ الفلسفة بناء أرضي وعليه لا يمكن تجاوز هذا البناء برمته ومن تسلح بأكثر من لغة تساعده في القراءة والبحث ومن ثم العمل على الترجمة في هذا التاريخ لينقضي العمر وكل ما كتبه الباحث العربي هو العمل على ترجمة مقولات للآخرين، وفي كتابات زكي نجيب محمود وعبدالرحمن بدوي تجارب تؤكد أن هذا التاريخ مهول وليس بالإمكان الإحاطة به.

- بالضبط وهذا ما قصدته، وكتأكيد على أزمة المشروع الفلسفي كانت الأعمال الجماعية الفلسفية هي الحل المناسب للاحتفاظ بمكانة الفلسفة ونشرها عربياً في ظل غياب العمل الفردي في حالة تماثل غريبة مع حركة المسرح واستبدال كلمة نص بمشروع لتصبح الحركة الفلسفية «مشروعاً يكتمل بعرض».

- ليس المسرح وحده ما يحتاج إلى هدم يا صديقي.
- فـي أزمـة المنهـج تحديـداً أرى الباحـث الـذي يجيـد لغـة واحـدة إلـى جانـب لغتـه الأم دائمـاً يسـتثمر عملـه البحثـي وهـو عمـل علمـي يفتـرض أن يدفـع إلـى التجديـد لا أن يحـدده قسـراً فـي هـذا المجـال الضيـق ومـن ثـم يدافـع عنـه وكأنـه اتجـاه مسـتقبلي واعـد!
- فعـلاً، عالـم مـا بعـد الحداثـة لا يعتـرف بتميـز مدرسـة مـن أخـرى لتبقـى كل المسـاحات مفتوحـة ويفتـرض بهـا أن تصـل إلـى العالـم العربـي ترجمـة دون تمييـز وطالمـا أننـا فـي هـذه المراحـل الأولـى ترجمـة فلنخفـف قليـلاً مـن حـدة التوتـر أو المبالغـة عنـد تقديـم كتـاب، ففـي هـذا الفعـل حركـة أقـرب إلـى العمـل الفنـي منهـا إلـى العمـل العلمـي.
- إذن فالأزمـة الفلسـفية تعانـي أزمـة منهـج وأزمـة اخـرى فـي المشـاريع الفلسـفية دون ان نغفـل الأزمـة الذهنيـة..
- هكـذا أراهـا، ففـي فكـرة الاسـتقلال الفلسـفي التـي دفعـت ناصيـف نصـار لأن يعلـن نفسـه فيلسـوفاً هـي مجـرد إشـارة إلـى الفعـل الأصـل وفـي دفعـه إلـى السـاحة ومـن ثـم قبولـه دلالـة علـى وجـود أزمـة ذهنيـة.
- ولكن ماذا عن المتلقي، أنا وأنت ومن يقرأ نتاج العرب
- فـي ازمـة التلقـي قـد تتكشـف حـالات مـن التيـه، فعلـى مسـتوى

أقل من فيلسوف يبرز عمل الباحث وعمل المفكر، وكلاهما يعملان في هذا المجال الذي يسمح بتلقي هذه الأفكار الفلسفية وبينهما فرق وهو أن الأول لا يمكن له أن يكتب رأياً انطباعياً حتى لا يخون عمله البحثي في عملية البحث والترجمة لهذه المقولات الفلسفية ويختلف العمل في تنقل التراجم ما بين ترجمة حرفية وخائنة لا يمكن أن تساعد على أي محاولة للفهم وما بين ترجمة حرة تعين القارئ العربي على الفهم، بينما يقوم الثاني بالقراءة لهذه الأفكار وكتابة تحليله هو وبمعنى آخر هو يكتب رأياً انطباعياً لكنه مطالب بالكتابة في حدود هذه الدائرة من الأفكار الفلسفية.

- ألا تلاحظ معي أنه في الفترة الأخيرة قد قل نتاج المفكرين لانشغالاتهم السياسية في مقابل نشاط حركة الترجمة ومع هذا ما زلنا في المراحل الأولى ترجمة؟
- قل كثيراً ولكن النتاج الأخير من الترجمة مؤشر لحل قادم أراه وقد ابتعد عن العمل الأكاديمي ليعتمد على العمل الفردي ولو لم تكن هناك مؤسسات ربحية، وأعني دور النشر التي تدعم هذه الحركة في العمل الفردي لبقينا في حال أسوأ.
- هل ساعد الباحث أو لنقل المترجم في توظيف الترجمة الحرة على حساب ترجمة حرفية، خائنة؟

- لا يمكـن لـي مطـاردة كل الأعمـال المترجمـة ومـن ثـم تقييمهـا ولكـن هـذه اللغـة الفلسـفية قـد تسـبب للقـارئ مشـكلة فـي صعوبـة التلقـي وإن جـاءت بمسـاعدة الباحـث أو المفكـر فـلا يجـد ضالتـه إلا عنـد مثقـف أو أديـب، وبينهـا فـرق فـكل أديـب هـو مثقـف وليـس كل مثقـف أديبـاً إذا أُخـذ بمعنـى الثقافـة فـي أنهـا تربيـة الإنسـان لذاتـه، هـذه اللغـة السلسـة تتشـكل فـي أتـون ذاكـرة كخلاصـة لمجموعـة مـن الأفـكار قـد تأتـي مبعثـرة، وفـي الأعمـال الفنيـة حـق فـي كتابـة أي شـيء وعـن أي شـيء.
- جميـل، القـارئ هـو وحـده مـن يسـتطيع أن يلملـم هـذه البعثـرة متـى مـا كان فـي الفعـل الذاتـي مداعبـة لذاكـرة خصبـة تنتشـي بمعرفتهـا التراكميـة.
- ولكـن مـا هـو حـق للقـارئ يـدور فـي فلـك أن للمثقـف كمـا للأديـب قبـل الشـروع فـي ممارسـة فعـل الكتابـة حقـاً للقـارئ فـي حقيقـة أن هـذا الفعـل مـا هـو إلا مرحلـة متأخـرة جـداً مـن سلسـلة مـن القـراءات المكثفـة..
- تعني أن الكتابة مرحلة متأخرة جداً من القراءة المكثفة؟
- نعـم، حتـى تكـون اللغـة أشـبه بفـك السـحر عـن العالـم تبعـاً لعبـارة ماكـس فيبـر وإن ورد هـذا النـص لوصـف العلمنـة وأرى مـن الجائـز إسـقاطه هنـا طالمـا أن فـي القـراءة اختـزالاً للعالـم يُسـلم علـى طبـق مـن ذهـب لعقـل واحـد، التشـبية لـن يذهـب بعيـداً إذا

أُخـذ كمعنـى فـي المعرفـة وكـم فيهـا مـن نهايـات لعالـم مسـحور تحكمـه الأسـطورة وقصـص العفاريـت، تسـوده الثقافـة السـلبية السـائدة بـكل اتجاهاتهـا التـي لا تنتهـي إلا عنـد محطـة واحـدة فتعلـن أحاديثهـا المقـززة، فالقـراءة فعـل والكتابـة ردة فعـل لهـذا الفعـل وبدونهـا تبقـى كل المحـاولات مجـرد تكريـس لإعـادة الأفـكار نفسـها وقـد تجاوزهـا الزمـن، تقليـد لتقليـد سـابق، أزمـة حقيقيـة فـي التكـرار الدائـر علـى نفسـه الـذي يدفـع هـذا الفعـل فـي التقليـد كل مـرة.

- وماذا عن كتابات الأديب؟

- الكتابـة الأدبيـة، كتابـة إبداعيـة تتطلـب كتابـة ابتـداءً مـن اللاشـيء وإلا لمـا أصبـح لهـا قيمـة جماليـة لعمـل إبداعـي، ومـا نـراه الآن هـو تكريـس لفـرض أسـلوب واحـد فـي توظيـف المـكان والزمـان وفـي محـاولات توظيـف اللغـة المحكيـة وكأن الروايـة لا تتلمـس حـالات إنسـانية ثانويـة تبـدأ ببدايـة العمـل وتنتهـي بـه دون أن تفقـد هـذه الفكـرة صلابتهـا، هنـاك فـرق كبيـر وواضـح بيـن فـرض أسـلوب يعتمـد الوصـف علـى حسـاب التحليـل كمعيـار أساسـي لهـذا الفعـل فـي الكتابـة مـع أنـه أقـرب للتحليـل أو هـو فـي هـذه الخانـة أصـلاً ليؤخـذ قهـراً إلـى خانـة الوصـف مـن عشـاق التقليـد.

- ولكنّ توظيف الزمان والمكان مهم جداً في كتابة الرواية.

- الوصـف هـو ثابـت ولا يمكـن لـه أن يختلـف بيـن اثنيـن أو حتـى بيـن مجموعـة لأنـه إشـارة إلـى البحـث عـن صـورة ماثلـة أمامنـا فتأتـي الذاكـرة وتطـرح مـا تتذكـره عـن هـذه الصـورة، ومـن تسعفه الذاكـرة يحصـل علـى مسـاحة أكبـر فـي الـكلام، بينمـا فـي التحليـل إشـارة إلـى مداعبـة «المعرفـة التراكميـة» للذاكـرة فيجـوز الاسـتعانة بهـا وبـكل مـا بقـي فيهـا مـن أفـكار جـاءت بهـا هـذه الحصيلـة مـن معرفـة الفـرد التراكميـة، لا يمكـن أبـداً أن يتفـق تحليـل وآخـر للفروقـات فـي هـذا العمـل التراكمـي، ومنهـا تكـون هـذه القاعـدة أساسـاً فـي كتابـة أي عمـل فنـي بعيـداً عـن قيـد التقليـد وقريبـاً جـداً مـن محاولـة كتابـة إبداعيـة متفـردة.
- هنا، أتفق معك، وماذا عن كُتاب المقالات اليومية؟
- فـي كتابـة المقـالات ملامسـة لخلـل مـا ومـا أكثرهـا فـي عوالمنـا العربيـة وفـي هـذا الفعـل مسـار طبيعـي ولكـن مـا هـو غيـر طبيعـي أن يأتـي الحـل مـن الكاتـب نفسـه وأي قـدرات بشـرية يحملهـا هـذا الرجـل فـي تحديـد المشـكلة ومـن ثـم حلهـا ليأتـي مـن الغـد فيطـرح مشـكلة ويقـوم هـو نفسـه بحلهـا وهكـذا لنجـد فـي النهايـة أنـه لا حلـول وإنمـا تنفيـس، فلـو اكتفـى بوضـع يـده علـى المشـكلة لكفـاه هـذا الأمـر..
- جميـل، فالتفسـير مهمـا أنجـز لـن يتمكـن مـن الإحاطـة بـكل أركان الفهم..

- وهنـــاك أيضــاً كُتــاب مشــغولون بكتابــات مــن شــأنها أن تعــزز مــن التضخــم النرجســي لمجتمــع برمتــه بــكل مــا تحملــه مــن لغــة حالمــة قــد تدفــع القــارئ لأن يستشــعر حــالات مــن الســلام الداخلــي وأنــه كائــن علــى درجــة عاليــة مــن الأهميــة لا بســبب أهميتــه الفردانيــة بقــدر مــا هــو جماعاتــي يغنيــه عــن التفكيــر أو الانشــغال بنفســه وبمعرفتــه التراكميــة ذات الأصــل الذاتــي فتكــون حركــة الفكــر فــي الســاحة تلقائيــة لا بتوجيــه قســري..
- بالضبــط، إذا ســلمنا بــأن التفــرد يعنــي أن الفــرد يتكــوَّن ليكــوِّن وحدتــه الخالصــة، ومــن كانــت العاطفــة تحكمــه فإنه ســيجد لنفســه تعويضــاً عــن ذلــك فــي امتــلاك حقــه فــي إراحــة العقــل تمامــاً وتعطيلــه.
- كان مــن المفتــرض فــي فعــل القــراءة رغبــة أقــرب للمتعــة منهــا إلــى الحاجــة، وان فــي فعــل الكتابــة معانــاة، وألــم ومســاحات مــن الجهــد فــلا يتــم تمييــز فعــل الكتابــة إلا بقــارئ نهــم ليبقــى شــاهداً علــى العصــر بــكل مــا يحملــه ماضــي الحاضــر مــن ذاكــرة وحاضــر الحاضــر فــي توقــع يحتــم عليــه المشــاركة فــي الأفــكار فــي وقــت تزاحــم الأخيلــة، وتراكــم الأســئلة، وبذهــن متفتــح يؤكــد حضــوره ويمــارس فعاليــة فيســاعد قليــلاً علــى إزالــة كل مــا هــو ســائد مــن ثقافــة ســلبية.
- يبــدو أنــك متخصــص فــي هــذا الشــان أكثــر مــن مجــال الدعايــة والإعــلان.

بقيت متسمراً في مكاني أفكر في الكلمات التي نطق بها خالد وبتفاعل سيف السريع معه، نحن الآن في باريس والاجواء خيالية تبعث في النفس رغبة في أن تتحرك لا أن تبقى منزوية داخل مكان مغلق، هكذا فكرت في بداية الأمر..

وبعد هذه السلسلة من الحوارات بين خالد وسيف طلب منّا سيف أن نرافقه لزيارة بعض المتاحف ومنها متحف بيكاسو، ولكن خالد اعتذر بحجة أنه تأخر عن موعد بينه وبين أيمن، فلم يكن لسيف خيار سواي كي أرافقه وقد كان بيننا عهد قديم لزيارة هذا المكان بالذات..

عدنا إلى الفندق بعد أن استمتعنا بالجمال متجسداً بالمناظر الجميلة في كل ركن من أركان هذه المدينة وفي المتاحف التي يعشقها سيف ويعرف كل تفاصيلها، ولكنّها لم تكن كافية بالنسبة إلي على الرغم من أسئلتي المتكررة التي قابلها سيف في البداية بحماسة لينصرف بعدها عني متعمداً..

ومع نهاية هذا اليوم بقي تصرف عاشقة الكندي حاضراً في الذاكرة ليفسد علي تلمس المتعة في طبيعة الأشياء..

الليلة الأولى تبدو لي ليلة أسى وطول سهاد حتى وإن كورت نفسي تحت الفراش، لتبقى العين مستيقظة فلا تشعرني برغبة في النوم، كنت متضايقاً حتى من الهواء الذي يدخل كي أتنفسه..

في اليوم التالي ما زال البرنامج يتطلب زيارة أخرى للمعرض بعد تناول وجبة الفطور وكانت فاتن وحدها إلى طاولة قريبة من طاولتنا،

تتناول فطورها بيد وباليد الأخرى تقلب صفحات كتاب دون أن يشاركها أحد، ولكم تمنيت أن أكون ذلك الكتاب وأن أكون بين يديها تتصفحني وتقلبني باستمرار، كتاب صفحاته لا تنتهي حتى لا تتركه وتأخذ كتاباً آخر، كتاب تحمله معها في كل مكان، كنت أراقبها وقد انتبهت لي فابتسمت ثم أشاحت بنظرها عني..

وفي المعرض أحس سيف بوجودي معه جسدياً فقط أتبعه أينما ذهب دون أن أتكلم ومع أول حديث وبعد حالة من الصمت الطويلة طلبت من سيف أن أعود إلى الفندق متحججاً بالتعب، فكان برنامجي اليومي بعد أن تحررت من سيف عبارة عن جهد مضن كي لا أترك أي مكان تطأه قدما فاتن إلا وأزوره، هي لا تخرج من الفندق، تقضي جلّ وقتها في البهو وحيدة، فسارعت في العودة مرة أخرى إلى الفندق وما إن وصلت حتى اكتشفت غيابها عن ممارسة طقوسها في هذا اليوم، فخرجت من الفندق باتجاه الشمال عكس الاتجاه المؤدي إلى المعرض رغبة في الاكتشاف، مشيت طويلاً وحدي لأكتشف أن فاتن في المعرض بعد أن جاءني اتصال من سيف وهو من أخبرني أنهم في مطعم قريب وعدد لي القائمة فمر على اسمها على عجل، حاولت تدارك الأمر في العودة سريعاً إلى مكان المعرض ولكنّي أجهل التعامل مع قطار الأنفاق وليست لدي تذكرة، فمشيت طويلاً حتى وصلت إلى المطعم فاكتشفت بأن الجميع قد غادر، عدت مسرعاً إلى المعرض فوجدت سيف وحده يتنقل وما زالت تملأه الحماسة، فبقيت معه بقية الوقت متحسراً على فرصة أضعتها على نفسي..

الفصل الرابع عشر

وفـي يـوم جديـد فـي باريـس كان الصبـاح ينبـئ بيـوم ماطـر فاشـتريت مظلـة ليخبرنـي بعدهـا سـيف بـأن هـذه المظلـة نسـائية بعـد أن ضحـك علـي كثيـراً، فبقيـت فـي حيـرة مـن أمـري أنظـر إلـى المظلـة متأمـلاً فـي حقيقـة مـا إذا كان هنـاك دلالـة علـى صـدق عبـارة سـيف، وفـي الطريـق كان سـيف يحذرنـي مـن فتـح هـذه المظلـة إذا ازدحـم المـكان بالنـاس..

كانـت بدايـة هـذا اليـوم مـع تصـرف أحمـق جديـد وكأنـي علـى وفـاق مـع كل مـا هـو شـاذ، كان لا منـاص مـن زيـارات لأماكـن مختلفـة فقـد انتهـى المعـرض وإن كان سـيف لا يخطّـط فـي الواقـع لشـيء، لكـن الأمنيـات العذبـة تأتـي أحيانـاً بـلا تخطيـط، فخرجنـا معـاً، وفـي الطريـق تحـدث سـيف قليـلاً عـن صفقـات قادمـة وحـان الوقـت المناسـب لاسـتعجالها، وصلنـا إلـى مـكان اختـاره سـيف بعنايـة لمعرفتـه بالمـكان وهنـا غابـت عنـا ضوضـاء المدينـة، لكنـه توقـف عـن المشـي قليـلاً وطلـب أن ندخـل مقهـى فـي زاويـة قريبـة وقبـل أن نجلـس فوجئـت بـه وكأنـه مغتـاظ بشـدة مـن شـيء، اسـتغربت غيظـه فلـم أفتـح مظلتـي حتـى مـع هطـل المطـر، وفـي حركـة سـيف المفاجئـة لـي بـأن يظـل واقفـاً تصـرف غريـب ليكـون الفعـل متوافقـاً مـع تعابيـر الوجـه،

مدّ كفه ووضعها على كتفي قبل أن يجلس على الكرسي المقابل للطاولة، وقال لي: هل يمكنني أن أكلمك بصراحة؟

- طبعاً.
- أيمن يشتكي من تصرفاتك مع فاتن..
- أنا؟
- ماذا فعلت بفاتن؟
- أنا؟
- لمَ، أأعجبتك؟
- لم افعل شيئاً
- لقد اشتكت كثيراً لأخيها أيمن الذي طلب مني أن أضع حداً لتصرفاتك، وأنت رجل كبير لا تحتاج إلى أحد كي يشرح لك الفرق ما بين الخطأ والصواب؟
- لم أفعل شيئاً لها.
- ما بالك تتشبث بالأوهام وتنجرف بأمواجها في الوقت نفسه..
- أنا!
- يا عساف، أنت لا تدرك ما تريد، ليس بهذه الصورة، تطارد النساء أهذا كل ما تفعله في حياتك، تطارد وتطارد ولا تريد من الحياة شيئاً سوى أن تُطارد، مرات كثيرة يسبقك السراب ومرة تسبقه!

قاطعه عساف قائلاً: «لا أبحث عن سراب ولا عن أي شيء ولم أفعل لها شيئاً».

عند هذه النقطة شعرت بخيبة، فقد طال وقوفنا في الممر، لا أستطيع تحمل المزيد من النصائح فكل ما أفعله هو خطأ ولا شيء سوى الخطأ، جلست على كرسي قبالة سيف وقد أيقنت أن فرصتي للولوج إلى قلب الفيلسوفة الصغيرة بعد أن هيأت نفسي قد ضاعت تماماً على يد خبير برتبة حكيم، بت كظل طائرٍ يحلّق عكس اتجاه المسير.

عاد سيف ليجلس وقد تدارك نفسه قليلاً: «كان في وسعك أقله أن تستشيرني قبل أن تتصرف على هواك» قالها سيف ضاحكا وقد تأهب لطلب مشروبه الخاص..

مر علينا وقت أشبه بصمت حتى نسي سيف موضوع فاتن وكأنه استمتع بحالة من حالات السلام الداخلي، عادت حيويته معي، وكي لا تطول بنا حالة الصمت طلبت منه أن يكمل لي حكاية أبي صالح وهنا انفجر بالكلام وبقيت مستمعاً إليه بانصات:

«لا أعلم أين توقفت بحكايتي ولكن ما كنت أشعر به حينها أنه كانت لديّ يا صديقي أسئلة كثيرة لا تجد أجوبة بحكم سني، لعلها كانت شيئاً من لُغة الصمت التي كانت تأتي متناغمة مع عملي في المزرعة، جملة من الأشياء يا عساف كانت تدفعني للاستمرار على الرغم من صعوبة العيش حينها، لم أشغل نفسي بما يحتاجه من كان في مثل سني، ولا مجال هنا للحزن على الأموات بعد أن فقدت

والدتـي، كنـت صغيـراً حينئـذ كمـا تعلـم ولكنـي جمعـت كل أحزانـي فـي سـلة واحـدة ودفنتهـا فـي هـذه الأرض، أكملـت دراسـتي وفـق نظـام أشـبه بدراسـة المنـازل محاولـة منـي لاستشـراف الأمـل مـن جديـد وكانـت سـارة تواصـل الإشـراف علـى مـا أكلّـف بـه مـن فـروض خـارج المدرسـة، وكانـت تـدرس هـي أيضـاً فـي أوقـات فراغهـا مـن جهـة ومـن جهـة أخـرى كانـت تسـاعدني وكان هـذا الجانـب الممتـع، نقطـة إيجابيـة تسـجل لنـا اسـتطعنا تجـاوز عقبتهـا، حيـاة كنّـا نـرى عيوبهـا ولا تكشـف عيوبنـا حتـى وإن كنـا صغـاراً نعبـث بأهازيـج العجائـز كـي نقهـر بـه الجـوع فـي مـرات، وأخـرى روح واحـدة لكلينـا نحتضنهـا حتـى ننـام فـي سـكون بعـد كل يـوم شـاق عندمـا تضـمّ الأزهـار أوراقهـا، قلوبنـا كانـت صغيـرة وأحلامنـا هـي أيضـاً صغيـرة، لا نبحـث إلا عـن سـد رمـق الجـوع.

ومـع الأيـام تأكـدت لنـا عزلتنا عـن العالـم الخارجـي، اكتشـفنا أن همومهم مختلفـة واهتماماتهـم مختلفـة، فواصلنـا المسـير ولـم نهتـم بهـذا الشـأن كثيـراً حتـى وإن صـادف ورأينـا مـن كانـوا يلعبـون فـي السـاحات وبيـن المـزارع، كان يبـدو لنـا أنَّ الظـروف هـي مـا جعلتهـم مسـتمتعين حقـاً بأوقاتهـم، كان هـذا صراعـاً يأتينـا مـن جانـب فنحـاول الهـرب منـه إلـى واقـع أشـد مـرارة وهـو مسـتقبلنا»..

توقـف سـيف عـن الـكلام وقـد عبسـت ملامـح وجهـه عندمـا طلـب مـن عامـل المقهـى قـارورة مـاء، ثـم قـال لـي: تسـطيع أن تتنـاول وجبتـك هنـا، بالنسـبة إلـي فقـد أضعـتُ كلّ شـهية للطعـام.

كنـت جائعـاً ولكـن، لـم أسـتطع تنـاول وجبتـي مجاملـة لسـيف، الـذي عـاد لسـرد حكايتـه:

«فـي يـوم مـن الأيـام زارنـي «أبـو صالـح»، الرجـل الـذي يشـبه ناصـر كمـا تقـول، وكنـت حينئـذ فـي المزرعـة، يحمـل عصـاه التـي لا تفارقـه أبـداً بعـد أن فارقـه الجميـع، ولأول مـرة أشـاهده بهـذه الصـورة، كان مرتبـكاً يسـألني عـن أقـارب لـي مـن جهـة أعمامـي أو أخوالـي فكانـت الإجابـة أنـه لا يوجـد أحـد، ليسـأل مـرة أخـرى وفـي كل مـرة أقـول لـه لا يوجـد أحـد وهـذا مـا علمتـه مـن أمـي وأبـي قبـل وفاتهمـا ولـو كان لـي معـارف فلـن يعنينـي مـن الأمـر شـيء، ولا حاجـة لـي الآن إلـى أيّـة مسـاعدة مـن أحـد، غـادر أبـو صالـح سـريعاً وفـي داخلـي أكثـر مـن سـؤال عـن سـؤاله البسـيط وأكثـر مـن علامـة تعجـب لتصرفـه وارتباكـه، هـو لـم يسـألني إلا هـذا السـؤال ثـم رحـل!

وعندمـا تناقشـت مـع سـارة عـن هـذا الأمـر، كانـت إجابتهـا حاضـرة بدمـوع لا أعـرف سـرها، لـم تتوقـف عـن البـكاء فأصبحـت فـي حيـرة، لـم يكـن بإمكانهـا أن تشـير إلـى شـيء محـدد وهـي تطلـب منـي العـودة إلـى البيـت، حاولـت معهـا أن أعـرف سـر هـذه الدمـوع، فـكان قرارهـا الصمـت، كل مـا نطقـت بـه هـو جملـة واحـدة وهـي: «يـوم واحـد لـن يضـر إن تركنـا المزرعـة فيـه».

وفـي العـودة حاولـت أن أسـتنطقها ولكنهـا كانـت فـي حالـة صمـت رهيبـة وبعيـون غارقـة كزهـرة ذابلـة لا يسـتقيم لهـا حـال..

وعندمـا وصلنـا إلـى البيـت، دخلـت أختـي غرفتهـا وهـي غارقـة فـي

دموعها وحزنها المجهول بعد أن طلبت مني أن أتركها وحيدة في غرفتها، فلم يعد لديها القدرة على التحمل أو سماع أي شيء مني، وجدت نفسي حينئذ يا صديقي تحت رحمة أول اختبار حقيقي لي في الحياة، انهمكت في التفكير في ما يجري من حولي من اختبارات حياتية خالية تماماً وكأنما «نفسي» هي لرجل آخر ليس هو أنا، وكأنما التفت إليَّ وقال: «أيُطيقُ الصورة الباهتة من تطلع بإمعان إلى ما سيجلبه المستقبل؟».

قلت له في حماسة: بالطبع لا، يبدو يا صديقي أنه كانت لديك أحلام بدأت وكأنها مع الوقت تقترب شيئاً فشيئاً من دائرة الواقع، ولا تريد أن تسيء إلى أحد.

«ولكن صبري يكاد ينفد وأريد أن أعرف ماذا يجري، شعرت مع حالة التجاهل الواضحة من أختي بكآبة سوداء لما رأيتها هكذا، توسّلتُ إلى كل أذن لأن تسمعني، ولكن خطر في ذهني أنها كانت تبكي على هذا النحو لتخفي عني شيئاً، ما زاد حيرتي مع نهاية أحداث هذا اليوم الغريب، هذا اليوم بالتحديد غير قناعات كانت راسخة، وسأقول لك بالتفصيل ماذا حدث ولكن دعنا نغير هذا المكان فالجو في الخارج أجمل».

خرجنا من المقهى وكان الجو ينعم بزخات من المطر الخفيف، ليخرج سيف مظلته الأنيقة في وقت كنت في خجل من أن أفسد على سيف أناقته فتجاهلت مظلتي تماماً، بدأ سيف بسرد حكايته دون أن يهتم بالعالم الخارجي، كان المكان بطبيعته في هذا المنطقة جميلاً، عكس المكان في قصة سيف، أراه قبيحاً وكأنه يوحي بالجفاف، وبلغة الإشارات قررنا ممارسة المشي نحو زاوية من الزوايا التي تؤدي إلى حديقة كبيرة تحتضن مجموعة كبيرة من الناس، تتشابه تصرفاتهم التلقائية وتختلف حكاياتهم، وبينما كان سيف يتحدث شعرت بأن ابتسامته عادت إليه من جديد حتى وإن كانت مليئة بالتمزق والتصدع:

«ثمة أزهار كتلك التي تراها، لا تقرأُها الفراشات، تمتلئ الأشياء بالأسئلة، فلا أجوبة عند عوالم الأشخاص مقنعة تعين على مغالبة بعض الفضول، تماماً كما كنت أنا، المجهول ينتظرني ليؤكد حقيقة أني «مُغيب» عن أشياء بقرار من أشخاص هم بالنسبة إلي كل الحياة، مرت الأيام وأنا أحاول أن أستنطق هذه العقول من حولي ومنهم أختي علها تتكلم، هذه ترد عليَّ ببكائها وكان يشقّ القلوب مجتمعة فكيف بقلبي أنا، طال صمتها ولم تنطق بشيء، فبقيت على هذه الحال ثلاثة أيام وما زال الرجل يأتي لزيارتي دون أن يكرر ما قاله لي، حاولت كثيراً أن استنطقه هو أيضاً ولكنّه عاد بحديثه إلى الأرض وإلى أخبار الطقس والمناخ، لم أكن مطمئناً، هناك شيء ما يخفونه عني!

وبعـد أن هـدأت سـارة، وبـدأت تعـود إلـى طبيعتهـا، فـي البدايـة لـم تبـدِ أيّـة إجابـة، حتـى صدمتنـي بمـا هـو أسـوأ، عندمـا قالـت لـي وقـد تناسـيت الموضـوع تمامـاً: لقـد أصبحـت رجـلاً يـا سـيف وهـذا الرجـل، وكانـت تقصـد أبـا صالـح، لـم يسـألك إلا لغـرض فـي نفسـه وقـد كنـت خائفـة مـن أفعالـه معـك أن يكـون سـببها مـا قـام بـه قبـل سـنوات، هـذا الرجـل كان يريدنـي زوجـة لـه».

هنـا توقـف سـيف عـن الحديـث بعـد أن شـاهد تاكسـي متحدثـاً إليـه باللغـة الفرنسـية..

«سـنذهب إلـى مـكان هـو أعلـى نقطـة فـي باريـس، اسـمه مونمارتـر، سـيعجبك كثيـراً..».

- جميل، أكمل لي وما الذي حدث لك بعد ذلك؟

«لـك أن تتخيـل يـا عسـاف، أبـو صالـح رجـل فـي سـن والـدي، لـم أكـن أتوقـع قـط أن يكـون هـذا هدفـه، كان الخبـر أشـبه بصدمـة مدويـة فـي قيمـة الخيـر وقـد ارتبـط بمصلحـة، كرهـت كل فعـل يحمـل فـي باطنـه قيمـة إنسـانية لأن هنـاك حسـاباً تدفعـه فـي الظاهـر، هـذه الواقعـة إنمـا تقـدم عـزاءً فـي زمـن نـرى أناسـاً يزعمـون أنهـم يفهمـون بحكـم تلـك الفجـوة بيننـا وبينهـم فـي العمـر، أنـت ترانـي الآن فـي أحسـن حـال، بعـد أن اسـتوعبت الـدرس تمامـاً مـن أبـي صالـح ومـا فعلـه لـم يكـن سـوى بـذرة مغروسـة فـي قلبـي، الثقـة العميـاء قـد تقـود إلـى مـا هـو أسـوأ مـن تسـليم يـا صديقـي، هـذا الرجـل كانـت

لـه محاولـة سـابقة عرفتهـا مـن سـارة لاحقـاً، جـاء إلـى البيـت ووالـدي كمـا تعـرف متوفـى منـذ زمـن، دخـل دارنـا فـي غيابـي ليتحـدث مـع أمـي فكانـت أصواتهمـا عاليـة لدرجـة أن سـارة سـمعت كل كلمـة وقـد أرادت اقتحـام المـكان لتطـرده كـون هـذا الرجـل لـم يحتـرم حرمـة البيـت، لا يوجـد وصـف أقـرب مـن أنـه اقتحـم المنـزل وكأنـه سـيد هـذا المـكان، وقفـت أختـي فـي حيـرة عندمـا سـمعت كلام أمـي عـن أشـياء كانـت فـي الماضـي، تفاصيـل لا يمكـن لـي ذكرهـا لـك هنـا مـن حماقـات هـذا الرجـل الطائـش، لـم يفعـل شـيئاً فاضحـاً بقـدر مـا كان يتصـرف وكأنـه صبـي لا يعـي حقـاً مـا يفعـل، يتوهـم أن الـزواج بامـرأة هـو سـتر لهـا، طلـب مـن أمـي أن توافـق علـى زواجـه مـن ابنتهـا فرفضـت أمـي وقـد أرادهـا مـن قبـل زوجـة لـه قبـل أن يتـزوج هـو وقبـل أن تتـزوج أمـي مـن أبـي، فـي كل مـرة كانـت أختـي تريـد المواجهـة مـع هـذا الأحمـق ولكـن الكلمـات كانـت تـزداد سـخونة حتـى خـرج مـن بيتنـا فـي حالـة غضـب وبتهديـد ووعيـد، أمـي لـم تكـن فـي أحسـن حـال فباتـت صحتهـا فـي تدهـور مسـتمر، الآن هـو يسـأل ليكـرر مـا قـد فعلـه قبـل سـنوات بعـد أن قـدم لـي مـا قـدم وهـو مهـر سـارة»

ألهذا الحد ؟

«وأكثـر، شـعرت حينئـذ بكآبـة وكأنهـا سـحابة غطـت عالمـي فصرخـت فـي وجـه أختـي وقـد تملكنـي الغضـب: «سـأذهب إليـه الآن، ليعـرف حقـاً مـن أكـون».

تمنيت لحظتئذ لو أن هذا الرجل أمامي ليعلم حقاً من أنا..

فسمعت كلمات من أختي ما زال صداها يتردد في مسامعي في كل لحظة: لسنا صغاراً يا سيف، فأنت رجل وأعلم أنك قادر أن تتخذ ما هو مناسب دون أن تتصرف معه برعونة في حالة غضب..

فصرخت بصوت عالٍ: لن تتزوجي هذا العجوز الخرف..

كففنا لحظة عن تبادل أي كلمة، وكأننا في الحياة سجّاد يدوسه العابرون، الانكسار الداخلي كان يبدو من خلال تنهداتها ومن خلال نظراتي، كلمات تتناقض مع الغموض الطفولي، ما تكلمت به سارة فسّر لي كل شيء، كان كلُّ يومٍ يمرُّ كنت ألتمس لها فيه عُذراً وعندما تكلمت لم تبدِ شيئاً ينقض تصوّري أنه انكسار، شعرت به لحظة، لم تكن هي نفسها قد انتبهت لذلك فقد كانت مقتنعة تماماً بعدم الكشف عما كانت تخفيه عني حتى جاءت اللحظة المناسبة بنظرها، كانت تعلم أن ذلك التكتم الذي كانت تحرص عليه في الفترة الأخيرة لطالما أتعبني في وقت لم يكن أحدنا يحكم على الآخر، بملام أو عتب، وحدنا في الطريق»..

هنا توقف سيف عن الحديث فقد وصلنا إلى المنطقة المنشودة وكانت منطقة مرتفعة، المكان مكتظ بالبشر، ليتابع سيف طريقه مشياً بين الممرات مكملاً حديثه: «كنت حينئذ قد أنهيت المرحلة المتوسطة في جو مشحون بالفقر وبضيق الحال والترقب، ولم استطع ان أكمل

دراستي الثانوية لأنها في منطقة بعيدة ولا أستطيع أن أترك أختي هنا وحدها، مرت علي أيام أنتظر فيها هذا الرجل لأن يتكلم فلا يتكلم إلا عن الأرض والبيع والشراء، انتظرت كثيراً فلم ينطق بشيء، وفي لحظة قررنا الرحيل عن هذا الجو المشحون، وكان قرارنا في ليلة حافلة بأحر العواطف، قمت بعرض مزرعة أبي وبيتنا للبيع ومع ما توافر لنا من مبلغ رحلنا عن القرية دون أي شيء آخر، رحلنا ولم نخبر سوى القليل، حاولوا أن يثنونِي عن قراري، ولكني كنت مصمماً على الرحيل ولكن إلى أين الوجهة، سارة لم تمانع قط مع أن المال غالباً كان ينقصنا للنفقات الإضافية ولكنه أفضل من الاستمرار في هذا المكان وهو أشبه بالمستحيل هنا، فلو بقيت هنا لكان عليَّ الذهاب في كل يوم مسافة مائة كيلو حيث أقرب مدرسة ثانوية، لا أستطيع أن اترك سارة والأرض دون رعاية، ولن أترك مجالاً للآخرين لمساعدتي ونيل بدل يصل بي إلى مرحلة تنازل، وافقت سارة وقد غمرها السرور لفكرة الرحيل، وافقت دون تردد، وكم فرحت كثيراً بهذا القرار، فلم أرَ في عينيها ضجراً أو احتجاجاً، كانت سيارتي قديمة جداً ولكنّي أجريت لها صيانة كلفتني مبلغاً ولا أريد أن أستنزف ما تبقى من مال، رحلنا ولم يكن معنا سوى أوراقنا الرسمية وبعض من الملابس القليلة ومبلغ من المال هو بمثابة الأمان لمواجهة الحياة، كانت صلاة الفجر في ذلك اليوم هي آخر مشهد تبقى لي من القرية مع وجوه كانت تحرص على صلاتها في كل مرة.

انطلقنـا بمركبـة لا تسـتطيع أن تحمـل نفسـها نحـو الطريـق الترابـي، متجهيـن ناحيـة الشـمال باتجـاه مدينـة الريـاض الكبيـرة تشـاركنا دعـوات باحثـة عـن الهـرب لأي ملامـح لشـخصية قـد تثيـر الشـبة، أقلعنـا بعيـداً عـن آلام الذاكـرة، تدفعنـا نظـرة تفاؤليـة إلـى غـد أفضـل، وسـرنا نحمـل أحلامنـا معـاً، كان الطريـق طويـلاً وقـد مضـى وقـت ليـس بالطويـل دون أن يقطـع رتابـة سـيرنا شـيء، الأشـجار تبـدو فـي السـكون غارقـة، هـي خضـراء، وغبـراء علـى جانبـي الطريـق، واقفـة بشـموخ لتـؤدي واجبهـا نحونـا فتودعنـا وتـودع كل مـن يريـد الهـرب مـن هـذا المـكان، كان الطريـق الترابـي مزعجـاً بعـض الشـيء ولكنـه حمـل إلينـا شـذا الأرض قبـل أن تختفـي البيـوت شـيئاً فشـيئاً فتصبـح مـن الماضـي، فـي الخـارج كان الجـو حينئـذ يوحـي ببعـض مـن حـرارة الشـمس قبـل أن تشـرق، وفـي داخـل السـيارة أصـوات المركبـة تتداخـل مـع أصـوات أغنيـة شـعبية تتحـدث لنـا بلغـة الحيـاة، لـم نشـعر بطـول الطريـق، كل مـا نشـعر بـه هـو الكثيـر مـن الاسـتقرار وقليـل مـن الاضطـراب، فـلا مـكان للعـودة إلـى حيـث كنـا ولا مجـال للنـدم، فـي الطريـق يـا صديقـي كنـا نشـتكي طفولتنـا الضائعـة وأحلامنـا المتبقيـة كنـت أحلـم بمواصلـة رحلـة التعليـم بعـد رحلـة فـي متابعـة الآخريـن وهـم يذهبـون فـي كل صبـاح إلـى المدرسـة وأنـا فـي عكـس الاتجـاه، أتجـه إلـى المزرعـة وفـي طريـق العـودة أراهـم وقـد اسـتيقظوا مـن نومهـم ليلعبـوا»..

هنـا شـعرت ببعـض التعـب مـن المشـي علـى الرغـم مـن جمـال الجـو فطلبـت مـن سـيف أن نسـتريح قليـلاً فـي واحـد مـن هـذه المقاهـي المنتشـرة فـي المـكان، وبتسـليم وافـق سـيف..

فكـرت لحظتهـا أن القـرار لا يدفـع القلـق دفعـاً لأن تتفاقـم حالـة الإنسـان معـه، يبـدو أن سـيف بـدأ رحلـة القـرارات مبكـراً وهـي منبـع القلـق عندمـا تتوافـر الخيـارات، كنـت فـي حاجـة لأن أرى سـيف غارقـاً فـي تصـرف شـائن، فـلا أراه إلا واثبـاً، وإنـي كنـت أريـد أن أسـمع منـه زلـة لسـان لأذكـره بهـا دومـاً فـلا أجـد، أو أن تسـتفزه الحيـاة ولـو قليـلاً فـلا يُسـتفز، كل هـذا الشـعور تهـدم مـن جـراء حكايتـه، وعلـى مـا يبـدو إن للحكايـة تتمـة فمـا أن جلسـنا حتـى بـادر سـيف إلـى مطـاردة الأفـكار والخواطـر وكل الرغبـات فـي رأسـه، جميعهـا لا تتوهـم إمكانيـة تغييـر الدنيـا نحـو الأفضـل عندمـا يلفظهـا خارجـاً، ليسـت مبعثـرةً بيـن أوراق الشـوارع أو مسـافرةً فـي صفيـر القطـارات، فعـاد ليكمـل حكايتـه حبـاً ومقتـاً وعـزاء بصـوت بـات أقـرب إلـى الهـم والتعـب:

«كنـت أرى مـن كان بمثـل عمـري يلعـب ويمـرح وأنـا منهـك القـوى، أتحاشـى المـرور بجانـب بقالـة ياسـين، محمـد وصالـح وبقيـة الرفـاق هنـاك دائمـاً يتناولـون المشـروبات الغازيـة ويتجاذبـون أطـراف الحديـث، أتحاشـى أن أرتبـط معهـم بموعـد بعـد أن سـخرت كل وقتـي للعمـل، لعلـك تذكـر تلـك الأيام يـا عسـاف فـي كل يـوم شـخص واحـد هـو مـن يقـدم المشـروبات للجميـع علـى حسـابه الخـاص».

- نعم أذكرها جيداً.

«لـم تفاجئنـي سـارة برغبتهـا فـي إكمـال تعليمهـا ولكـم آلمنـي صوتهـا

فـزادت علـيَّ الضغـوط أكثـر استشـعرت مـن كلامها رغبـة، هـي تتمنـى كمـا يتمنـى غيرهـا وتريـد كمـا يريـد غيرهـا، ولكنهـا وعلـى الـدوام تضـع رغباتهـا فـي مرتبـة ثانيـة، وهـذه حكايـة أبـي صالـح معـي يـا صديقـي».

- وما الذي حدث لك بعد ذلك في الرياض؟
- كانـت أشـبه بمعانـاة أخـرى، آفـاق مبهمـة يـا صديقـي انتهـت علـى خير .
- أخبرنـي مـا الـذي حـدث لـك بالتفصيـل، فمـا زال أمامنـا وقـت طويـل..

«أصابـت الريـاض صدمـة متوقعـة فـي حجـم هـذه المدينـة الكبيـرة، وصلنـا ولا نعلـم ماهيـة الخطـوة الأخـرى التـي تتبـع وصولنـا، البحـث عـن مـكان نسـكن فيـه ولكـن أيـن ومتـى وكيـف؟

طريـق المدينـة مختلـف، والبيـوت المتراصـة بجدرانهـا العاليـة تـكاد تلتهـم كل نسـمات الهـواء البـاردة فـي المناطـق المفتوحـة كمـا كان الوضـع فـي القريـة، جئنـا إلـى هنـا بعـد أن أحسـنا الظـنَّ بالحيـاة جئنـا هربـاً مـن الصحـراء وقسـوتها، كانـت الوجـوه إلـى حـد مـا جامـدة، قاسـية، تجعـل مـن لغـة التخاطـب صعبـة بعـض الشـيء، لـم تعـد الوجـوه أليفـة ولا الأصـوات، والطـرق علـى الـدوام مزدحمـة بالسـيارات وهـو شـيء لـم نعهـده فـي القريـة، وأتذكـر أول يـوم وصلنـا فيـه إلـى الريـاض بالتفصيـل، الشـمس قـد وصلـت

إلــى ذروتهــا، وجهــاز التكييــف فــي الســيارة يعمــل بشــكل ســيئ، مــا حصــل هــو أننــي توقفــت عنــد عمــارة ودخلتهــا ولــم أجــد أحــداً حتــى خــرج رجــل مــن إحــدى الشــقق وقــد كنــت متــردداً فــي ســؤاله ولكنــه تقــدم نحــوي قائــلاً: هــل تريــد مســاعدة؟

فداخلنــي شــعور، كــم هــو جميــل حــال أهــل هــذا البلــد فهــم طيبــون مســالمون، كانــت هــذه فكرتــي بعــد ســماع الجملــة التــي ســرعان مــا تحولــت إلــى العكــس تمامــاً، فلمــا دنــوت منــه ســائلاً عــن ســكن، رد علــيَّ غاضبــاً:فــي مكاتــب العقــار تجــد مــا تريــد وليــس هنــا..

ســألته عــن أقربهــا بعــد أن شــرحت لــه حالتــي، امســك بيــدي بطريقــة غريبــة، كأنــه يبعدنــي خارجــاً متعمــداً، كان تصرفــه أهــوج معــي، وإن أردت الحقيقــة فقــد ارتعبــت منــه، ومــا إن وصلنــا إلــى الخــارج حتــى قــال إذا ذهبــت بســيارتك مــن هنــا فســتجد لوحــات مكاتــب العقــار وإن ذهبــت مــن هنــاك ســتجد مكاتــب العقــار ووقــف يراقبنــي بنظــرات حارقــة، ركبــت ســيارتي ومــازال الرجــل واقفــاً كأنــه يريــد أن يتحقــق مــن انصرافــي عــن العمــارة كمــا لــو كان هــو الســاكن الوحيــد فيهــا، ســألتني ســارة عــن هــذا الرجــل، فقلــت لهــا مرتبــكاً: لقــد أعطانــي الوصــف ولنرحــل مــن هنــا، والحقيقــة أنهــا رأت تصــرف الرجــل معــي ولكنهــا التزمــت الصمــت، أثــار هــذا الموقــف بعضــاً مــن الشــك فــي صحــة قــراري، ذهبــت بحســب مــا قــال لــي ولــم أجــد شــيئاً ومــن الجهــة الأخــرى ولــم أجــد شــيئاً، تجنبــت الدخــول إلــى عمــارة أخــرى خوفــاً مــن تصــرف أهــل البلــد الغريــب، تابعنــا مســيرنا وقــد نســيت الجــوع

تماماً، ولم أنتبه إلى صراخ سارة وهي تقول لي: انظر، قد يوجد مطعم هنا..

وهنا تحديداً صرت ألوم نفسي على حالة الجوع»..

قلت له متداركاً: يبدو أنك أطلت من عملية البحث، يا صديقي.

« بالضبط، لقد ذكرتني سارة بما قد نسيته بالفعل، توقفت لنأكل بعضاً من الطّعام وفي الوقت نفسه لنستريح قليلًا، قرأتُ اللوحة ببطء ما جعلني أفكر في حالي وفي مستقبلي أكثر من بحثي عن أي شيء آخر في هذا البلد، هكذا مرت الأفكار والخواطر في رأسي، توقفنا وقد انقضت ساعتان على وصولنا دون فائدة، طلبت من القائمة كباباً لأول مرة، وقد كان الخبز الساخن الخارج تواً من الفرن والأكل لذيذاً لم يسبق لنا تذوقه من قبل ولكن إن تعودناه قد يفسد ما قد خططنا لأجله، ومع أنّني لم آكل إلّا القليل فقد اكتفيت، ما كنت أبحث عنه هو القليل ليُسكّن حدة الجوع لا أكثر، لننطلق بعدها في رحلة البحث عن شقة..

كنت أريد أن أثبت لسارة أنني الأب فعلاً وأني قادر على أن أتحمل المسؤولية، بينما تجسدت حقيقتي مع ذلك الرجل الغاضب وتعامله معي، حاولت أن أدخل بعض المتعة في رحلتنا بعد أن تدخلت الظروف المناخية في فرض هذه الكمية المهولة من الحرارة علينا، توقفت عند محل وكأنه بدا لي محل عصيرات وما أريده كأس واحدة

لـي ولأختـي علهـا تبـرد علينـا قليـلاً، التفـت إلـى سـارة ولكنهـا لـم تنتبـه لـي بعـد أن غلبهـا النـوم، نزلـت مـن السـيارة ودخلـت المحـل، وكـم كان شـكل الفواكـه مغريـاً فـي عـدة أطبـاق دائريـة وبـكل الألـوان، طلبـت منـه بلغـة الإشـارات ثـم سـألته بلغتـي عـن «مكاتـب العقـار» هـز رأسـه بإشـارة إلـى عـدم الفهـم ولكـن رجـلاً إلـى جانبـي سـمع حديثنـا ولـم أنتبـه لـه فقـد دخـل متأخـراً وقـد كان تركيـزي منصبـاً علـى هـذه المجموعـة مـن الألـوان علهـا تطفئ حـر الصيـف قليـلاً، شـرح لـي هـذا الرجـل بعـد أن سـبقته فـي سـرد قصتـي ابتـداءً مـن حالـة الضيـاع ومـروراً بالمنـاخ وانتهـاءً بتصـرف ذلـك الرجـل الغريـب معـي، تكلمـت بـكل هـذا وقـد وصلـت إلـى مرحلـة اليـأس، فطلـب منـي بـكل هـدوء أن اتبعـه بسـيارتي فهـو ذاهـب إلـى مـكان قريـب وفيـه طلبـي، توقـف بنـا فـي شـارع مكتـظ بمكاتـب العقـار، ومـن أول مكتـب دخلتـه، تحققـت لنـا شـقة بمبلـغ اقتطعنـاه مـن رأس المـال، كانـت الشـقة صغيـرة وفارغـة مـن كل شـيء عـدا الطاولـة المسـتطيلة التـي توسّـطت الغرفـة ومجموعـة مـن الأوانـي المرصوفـة داخـل خزائـن المطبـخ، كانـت للشـقة أرضيـة مائلـة ميـلان الحـظ عـن مسـاري، الوقـت لـم يكـن صديقـاً لنـا كمـا هـو الحـال فـي كل مـرة، فقـد مـر علينـا قرابـة أربـع سـاعات فـي الريـاض ومنـذ أن انطلقنـا ثمانـي سـاعات كاملـة، فوافقنـا دون أن نتناقـش فـي صلاحيتهـا لنقـوم بعدهـا بالخطـوة الثانيـة التـي كانـت متزامنـة مـع حالـة التعـب الواضحـة، كان المنظـر مضحـكاً بعـض الشـيء فلـم يكـن فـي الشـقة شـيء يسـتحق أن يُفـرش علـى الأرض، حالـة التعـب الواضحـة تبقينـا دون حـراك ومنظـر الشـقة يدفعنـا

بحماسة للخروج مرة أخرى، خرجنا مجدداً بعد فترة استراحة قاربت الساعة على بلاط هذه الشقة المائل وقد عادت الحماسة وبردت الأجواء الساخنة في الخارج، نريد أثاثاً تستريح به أجسادنا، ولكن هذه المرة كان حارس العمارة هو المرشد، يصف لنا الطريق مع أنه قادم من أرض بعيدة، كان الأثاث في بدايته بسيطاً عندما ننظر إليه الآن ولكن في ذاك الوقت كنا نعتبره من نوعية الأثاث الفخم، استقرت أوضاعنا وهدأت الأحداث التي لا يطرف لها جفن!

قمنا بأمور النظافة والترتيب وأزلنا خيوط العنكبوت من بعض الزوايا ونسجنا خيوطاً من الأمل في الحياة مكانها، الليلة الأولى متعبة لشدة ما مر بنا وفي صباح اليوم الثاني ذهبنا لنكمل ما تبقى من أغراض، العقد لمدة سنة كاملة وهي فترة ليست بالقصيرة، ولينقضي أول أسبوع دون أن أحصل على عمل وكانت سارة مشغولة في ترتيب الشقة وإعداد الطعام أما أنا فقد انغمست في دوامة التفكير في كل ليلة، ماذا لو لم أجد عملاً؟»

وبينما كان سيف يتحدث، تذكرت لعبة كنا نلعبها أيام كنّا في القرية وكنت أركض بكل قوة نحو الجميع وهم يفرّون من أمامي مطلقين صيحات تثير في نفسي رغبة في «المطاردة» التي لطالما لعبتها بشوق ويبقى سيف الذي يقف أمامي دون حراك فكنت أتجنب عساف خوف أن يفسد علي هذه المتعة فما إن تصل يداه إلي حتى يطرحني أرضاً..

عـدت مجـدداً للتركيـز فـي حديـث سـيف الشـيق ويبـدو أن علامـات الشـوق لسـماع حكايتـه قـد بانـت ملامحهـا علـى وجهـي، ليسـتمر سـيف بحديثـه:

«بعـد فتـرة مـن اسـتقرارنا، اكتشـفت أن فـي هـذه المدينـة أبـواب رزق كثيـرة تحتـاج إلـى الصبـر فـكان أول قـرار اتخذتـه هـو أن نكمـل دراسـتنا فـي مـدارس حكوميـة وكانـت هنـاك فرصـة شـهر كامـل قبـل عـودة المـدارس، وأن اعمـل فـي الوقـت نفسـه علـى أن تديـر سـارة أمـور المنـزل حتـى تتحسـن ظروفنـا، لـم أتحيـن الفرصـة حتـى تسـتقر أمورنـا فبحثـت عـن عمـل، وقـد تحقـق أخيـراً فـي محـل خضـار وفواكـه حيـث كانـت تجربتـي الأولـى، عمـل كنـت أعتبـره آنـذاك موقتـاً، تعلمـت أسـرارها فـي أقـل مـن شـهر فقـط لتكـون مجازفتـي الأولـى فـي تحقيـق هـدف مـن أهدافـي وهـو محـل خـاص بـي وقـد تحقـق هـذا الهـدف فـكان المحـل يـدر علينـا مبلغـاً يكفـي لسـد الحاجـة قليـلاً، ومـا زالـت الخزينـة ممتلئـة فاقترحـت علـى سـارة أن أفتـح محـلاً آخـر بعـد أن تشـربت أسـرارها فلـم ترفـض قـط فقـد كانـت حياتنـا فـي تناغـم مسـتمر، غابت حـرارة الشـمس مـع أجهـزة التكييـف الجديـدة، كمـا غـاب عنـا أبـو صالـح ليحـل محلـه جهـاز تليفزيـون ينقـل لنـا أخبـار العالـم مـن كل مـكان، ومـع ثلاثـة فـروع زاد الدخـل المـادي لنفكـر فـي الخطـوة الأخـرى وهـي السـيارة الجديـدة وتكلفة المـدارس الأهليـة بـدلاً مـن التفكيـر فـي المـدارس الحكوميـة فـي نقلـة أحدثـت بالفعـل تغييـراً أعـاد إلينـا الاسـتقرار وعدنـا معـه إلـى مسـارنا الطبيعـي..

كانت سارة تتحدث دوماً عن مقاعد الدراسة وقد بلغ منها الشوق مبلغه حتى كادت تفقد الأمل في تحقيقه..

في كل يوم أصحو مبكراً وأتحقق من سير العمل في الثلاثة فروع لأعود وأصطحب سارة إلى مدرستها ثم أذهب إلى مدرستي ومع هذا البرنامج اليومي الجميل انقضت ثلاث سنوات أنهيت فيها شهادتي الثانوية وقُبلت في الجامعة في قسم الهندسة وما زالت أختي متأخرة عني بسنتين دراسيتين وهي الأكبر ولكنها ضريبة قد دفعتها بتعقل..

زاد دخلنا فتوافرت لنا حياة فضلى أخيراً، لنفكر في سكن خاص «فيلا» وهذا ما قمت به فكان السكن في حي هادئ وجميل في شمال الرياض، فرحت به سارة كثيراً ولكم تمنت أن أمي أو أبي كانا بيننا في هذه اللحظة بالذات، سُرقت منا الفرحة في ثوان بمجرد استرجاع الذاكرة لمخزون ماضيها..

كان الأثاث يختلف كثيراً عن أثاث الشقة الأولى فتذكرنا كم كانت فرحتنا الأولى بالأثاث برغم بساطته، وكم كان الطعام لذيذاً في البداية لتتحول الذائقة نحو طعام يُقدم من مطعم لا من بوفيه..

كلّفنا التكيّف معاناة كبيرة في البداية لكنه حمل لنا مع الوقت قيمة جمالية بكل تفاصيل الأشياء والأشكال والألوان والأحجام والأضواء والظلال، جميعها بدأت تأخذ مساراً إيجابياً نحو الاستقرار فكل شيء يسير لمصلحتي الآن ولا مجال للعودة حيث كنت أقف، وحقدي يتلظى عليه بين أضلعي على من حاول خداعي، زادت تجارتي

وتوسعت لتشمل العقار، لم أكن أعرف للعقار معنى، وقد أتعبتني رحلة البحث عن مكاتبه لحظة اقتحامي هذه المدينة، أمّا الآن تستطيع القول بأنني من النوابغ في تجارة العقار».

قلت له بحماسة: عصفت بك الرياح يا صديقي، فبدّدتها.

«تستطيع القول إنه عصفت بي الرياح فبدّدتها، أو إنني كنت في حالة يقظة، وهي من كانت تصوّب عليّ بندقيّتيها حتى لا أجد إلا الشك، كانت تدهمني على الدوام رغبات في العمل أكثر وفي الدراسة لأمحو عالم الأزقة والحارات، ولكي أنسى ما فعله أبو صالح، كنت متوجساً من كل شخص يقترب مني، حذراً على الدوام وقد أفادني هذا الأمر كثيراً، تحسنت ظروف حياتنا في آخر المطاف، مكاسب تأتي سريعاً ومبالغ تتضاعف في حساب من كان يوماً فتى يتيماً، كانت لي تجربة في سوق الأسهم زادت من رصيدي وكادت تخسف بي في لحظة فكرت فيها أن أستبدل الأسهم بدفعها تجاه تجارة العقار في الوقت الذي كان الجميع يتكلم على الشركات وعلى الأرباح التي تصل في اليوم الواحد إلى مكاسب أشهر في العقار، ولكن تجربتي في الحياة جعلتني دقيقاً وما إن ساءت الأمور حتى تأكد لي أنني في مسار مستقيم وكأن فيه بركة من السماء».

وفي لحظة توقف سيف عن الكلام وكأنه تذكر شيئاً بعد أن نظر إلى ساعته، فطلب مني أن نعود إلى الفندق، ثم عاد ليكمل حديثه:

«في يوم من الأيام قدم إلينا رجل عرف بنفسه وقد كان جاراً لنا، رحبت به داخل البيت وقدمت له واجب الضيافة حتى طلب يد أختي لابنه، طلبت مهلة للتفكير، هيئة الأب توحي برقي في طريقة التفكير، طريقة كلامه ولكن غياب الابن ترك أكثر من علامة استفهام بداخلي وتوتر فقد فرحت أخيراً بهذا الخبر، أريد لأختي حياة كريمة بعد الزواج وهذا طريقها لا أستطيع أن أمنعها عنه ولكن أصبح علي أن أسأل عن هذا الابن قبل أن أفاتح سارة بالموضوع، وما حدث هو أنني كلما سألت عنه وجدت بأني أمام شخص عظيم فهو محبوب من الجميع متخصص في الفيزياء وسيكمل دراسته في أميركا وهذا يعني أن أختي ستذهب معه، لا استطيع أن أنفك عن أختي بعد هذا المشوار من العمر ولكن الواقع يقول ان تزوجت وهذا حق من حقوقها فسترحل ولكنها حتماً ستعود ولربما استطاعت أن تكمل دراستها، كان حلمها بسيطاً وقد بات قريباً جداً من أن يتجاوز حد القبول بأي شيء وبما أنه رجل فيزيائي فإن قوانين نيوتن ونسبية إينشتاين عندما تقف أمام نظرية الفوضى الخلاقة فإنها ستقف احتراماً لهذه السيدة، تستطيع القول إنني وصلت إلى نظرية كل شيء في الفيزياء، ولم أمنع نفسي من الابتسام عندما رأيت ملامح وجهها الخجول وبه علامات القبول، تزوجت سارة لترحل بعدها إلى أميركا، وأكملت أنا دراسة الماجستير في المنطقة نفسها التي كانت هي وزوجها فيها، لأعود إلى متابعة أعمالي وتجارتي هنا وقد أصبحت خالاً لسيف وأمل، فرحت بهما كعائلة بدأت تكبر شيئاً فشيئاً،

أمّـا أنـا فقـد تزوجـت مـن عائلـة كريمـة لـم تنظـر إلـى حالتـي دون أب ولا أم ولا خـال وعـم وإنمـا قبلـت دون أن تبالـغ فـي شـروطها وقـد أجبرنـي الأب علـى رفـع قبعـة الاحتـرام لعقـول تفكـر بهـذه الطريقـة، وتقريبـاً كانـت هـذه هـي حكايتـي بالتفصيـل يـا عسـاف».

الفصل الخامس عشر

في أول ليل يسدل أستاره بعد الرحلة، ما زلت مستيقظاً أطرح على نفسي التساؤلات دون أن أصل إلى إجابة تكفي لسدِّ ظمأً حقيقيٍّ في رحلة الخوف ممّا يضمرُهُ لي المستقبل، أستقبل نهاري الجديد بعد أن تنعكس أشعة الشمس الصباحية على شكل خيوط صفراء زاهية كلون الذهب تماماً، خيوط كل صباح في كل يوم تتجدد وأنا باق على الحال نفسه لا أرى سوى هذه الخيوط فأجد لوناً أصفر باهتاً أجهل تماماً كيف تكوّن ومع ذلك فهو يسمح لي بالعبور لمجرد أنه أصفر..

حتى الألوان التي كنت أراها أمامي أو تلك التي قد تلونت بها من الآخر كانت خادعة، فيها إغواء أكثر للعين كما كان سيف يقول عنها..

«هذه الألوان ما هي إلا اثر وقوع ضوئها على الشيء وعلى كل ما تلتقطه الأعين من مشاهد ومناظر، تماماً كورقة الشجر الخضراء التي اختزنت من ضوء الشمس ستة ألوان لتستغني عن السابع وهو الأخضر فيكون هو لونها»..

تعلمت من هذه الرحلة أن حقيقة كل شيء تأتي عكسه، من يفتقد الحب يتكلم عنه كثيراً، ومن يجهل في العلم يناقش كثيراً، ولا ينفق

مـن مالـه إلا الفقيـر يفعلـون كل هـذا بحثـاً عـن الـذات، فـلا أقـوم إلا برحلـة البحـث عمـا هـو عكـس فقـد سـرني كثيـراً أن أستشـعر اللـذة مـع الفشـل فأوهـم نفسـي أنهـا طريـق للنجـاح، ولطالمـا افتقـدت أشـياء لشـعوري نحوهـا بالغمـوض وبالقلـق الخفـي فـلا أتخيلهـا إلا كريهـة، أتجنبهـا وهـي فـي الأصـل أشـياء أساسـية فـلا يمكـن تهميـش الـزواج أو الوظيفـة لمجـرد أن الحيـاة لـم تـرم بثقلهـا علـيَّ..

دارت بـي الأيـام طويـلاً وقـد قبلـت ثلاثـة أمـور، فـي تحمـل مسـؤولية مـا أفعلـه، وفـي احتـرام الآخريـن وبينهمـا مسـافة فاصلـة لاحتـرام الـذات.

أقـوم بمحـاولات جـادة لـردم الهـوة الفاصلـة بينـي وبيـن علـم الاجتمـاع، مـن يأتينـي الآن سـأقول لـه تفضّـل، ادخـل وتصـرّف علـى راحتـك، ومـن يخـرج عـن السـطر يـرم بـه علـى الهامـش، يتمثـل هـذا النـوع الجديـد مـن العلاقـة إلـى حـد بعيـد بمسـألة الهجـرة والعـودة بعـد غيـاب طويـل، انفصـال واتصـال، غيـاب وحضـور، انحسـار وانتشـار، هـي حالـة أشـبه بالاغتـراب فمـا حـدث لـي فـي الماضـي هـو أشـبه بعزلـة وتحـرر مـن عوالـم متشـابهة، أجنـاس مـن البشـر لهـم أهـداف متباينـة لـم تقـرّر بعـد مقـدار النـوع والكميـة فـي مـا يسـمى بالحريـة الفرديـة التـي ينبغـي للآخـر عـدم تجاوزهـا، حريـة تنكفـئ وقـد أضاعـت طريقهـا فضعـت فـي الطريـق، لأحـط رحالـي هنـا فـي هـذا المـكان، أمـام مـا يسـمى بالعالـم الافتراضـي، أصبـح هـذا العالـم هـو صوتـي، لأرسـل رسـالة متأخـرة جـداً إلـى سـيف وكأن لحالـة الـلا شـعور دوراً فـي الحماسـة لكتابتهـا بتجـرد:

«بأي لوحة رُسمت أيها الرفيق وما سر هذه الأدوات بين يديك وكأني أتخيل الأقمشة واكوام الورق ومجموعة لا حصر لها من الألوان وفي جوارها أحبار تُمسك بها أنامل بعناية فتضعها على الجرح دون أن تهتم بسكونية اللون المعتم بل تطوعه في مسامات القماش والورق فلا تبدو إلا كلوحة لكائن حي ينبض بالحياة، لا أراك عاجزاً عن الرسم حتى على سطوح رملية، ومن يملك هذه الموهبة في إبراز تدرجات الظل والنور جدير بالاحترام، من ينتزع من رحم الألم أملاً خليقاً بالإكبار والتوقير ولا يمكنني أن أنظر إليه بحالات من القلق والخوف من تحولات الأيام المتوترة والمفجعة خوفاً من أن تُمطرني غيومك حيناً وتُمسك عني أحياناً، ولكي أكون صادقاً معك، كنتُ معلقاً بخيبتي، في حالة خراب، ظلاً واهياً لإنسان آخر أتنقل في حياة لا ضابط فيها، أقرأ لأعيش نصاً آخر، حاملاً معي حالة من الخراب الروحي فأراقب الوجوه الحزينة والأطراف المتعبة وكأنها لوحات موزونة ومشغولة بخطوط مرنة، وما بين هذه وتلك أمسك بخيوطك الرفيعة فتظهر لي حالات من الفرح والحزن، والضحك والبكاء، والسعادة والسأم، تتنقل بي بين لذة وألم ووحدة وقوة فتتابع في الزمان، أفكار بسيطة مثل هذه هي أشبه بتمثلات من عدة حواس، أفلتُ أطرافها فتلتقطها قسوة الحياة في كل الاتجاهات حيث الامتداد والشكل والحركة والعدد حتى وإن بقيت ساكناً، أو صامتاً، لن يتغير معي شيء لأنه متى ما تحركت بسرعة فإنه بحكم طبيعة الفيزياء فإني أميل إلى الاستمرار في اتجاه حركة الآخر

بالسـرعة نفسـها، ومـا بيـن السـكون والحركـة كانـت النظـرات مـن حولـي تسـاهم فـي إنهـاء لوحـة لا تمثـل إلا أنـا، فانتهيـت بصـورة مشـوهة كمعظـم النـاس مـن حولـي فـي معرفتهـم وفـي رؤيتهـم للأشـياء، كانـت المعطيـات أشـبه بوجبـة دسـمة مـن التفـاؤل، وهـو مـا حـدث وسـرعان مـا تبـع التـوازن سـقوط، فالأجسـام يـا صديقـي تسـقط لا لشـيء إلا لأنهـا تبحـث عـن مكانهـا الطبيعـي، وكان سـقوط الـذات العارفـة الخالصـة مباشـرة إلـى هـوة الأنـا، فـي حفـرة بعيدة القعـر تجمـع فيهـا كل المخلوقـات العارفـة بحقيقـة مأسـاة الـذات الواعيـة لكنهـا بقيـت عاجـزة عـن تفكيـك عناصـر لا وعيهـا..

اكتـب لـك يـا صديقـي بعـد أن رُسِـمت زيفـاً بواقعيـة مبنيـة علـى الحـواس، وبمثاليـة ذهنيـة غارقـة فـي وحـدة صوفيـة، لتأتـي نهايتهـا صـورة مشـوهة، كان ولا بـد أن يتبـع مـا حـدث حتـى وإن جـاء فـي وقـت متأخـر، تشـاؤم يلامـس الواقـع، فمـن يرسـم يُعبـر فـي النهايـة عـن حالـة فكريـة يؤديهـا بالخطـوط والألـوان ليرسـم كلماتـه رسـماً وتبقـى فـي النهايـة مهمـا عظمـت محـدودة، كونهـا لوحـة ثابتـة لا تتحـرك بـل تتشـبَّع بألـوان الشـمس الحارقـة، كانـت لوحتـي بهـذا الشـكل لا تتعـدى حالـة فكريـة انهزاميـة بعـد أن غابـت عنهـا اللمسـة الأخيـرة.

قلـت لـي كلامـاً كثيـراً، حدثتنـي عـن رأيـك فـي كثيـر مـن القضايـا بطريقة مختلفـة، ولا أظنّـك تبالـغ بهـا فمـن لـه بهـذه التجربـة الحياتيـة الصارمـة لـه أن يحلـق بعيـداً بذاكرتـه، يسـتطيع أن يسـتدعي منهـا مـا يريـد ومتـى شـاء، وكأن الأحـداث قريبـة العهـد منـه، أحـداث مـن الماضـي كألسـنة لهيـب قاسـية

لكنّها قد تضيف بعداً إنسانياً. هذا البعد لا يعرف إغواء العين عندما يرى ألوان الآخرين زاهية، فمن السهل جداً ترميم الصورة بالألوان، فتكون إطاراً من الجمال. أخذتني إلى أفلاكك ومداراتك شعراً وفكراً وخلقاً وحدودي كانت قريبة جداً من تلك الهوة السحيقة، ممزقاً بين ضروب متناقضة من الوعي، حتى وجدت نفسي عاجزاً عن الاستمرار، فلم يكن من كان مثلي ليقنع باستمرار تفوقك الدائم حتى النهاية، لم أستطع أن أعلن على الملأ قبولي هذه الحقيقة وتلك حقيقة أجد نفسي مضطراً لإعلانها أمامك وقد تشكلت مع الوقت لتصبح عقدة في مد جذور هذه المعاناة إلى الأرض حتى تحولت تماماً بفعل حركات الأيدي المتلهفة للحنان إلى إنسان عطش يفتش عن مديح ومنها إلى منفضة ممتلئة بأعقاب مطفأة..

وعلى الرغم من وجودك الفعلي وأصالة الكثير من ملاحظاتك إلا أنه تبقى في نظري ذلك الآخر القاسي، أعترف بأن ذلك غالباً ما يقع عليَّ بالمغالبة الشديدة للنفس، كم تمنيت لو أنها كانت تحمل في اليد فأتخلص منها دون أن يعلم بي أحد من البشر، ولكنها معلقة في الرقبة وتكلفني الانحناء لخلعها»..

عساف بن سالم..

...وعلى الرغم من وجودك الفعلي وأصالة الكثير من ملاحظاتك إلا أنه تبقى في نظري ذلك الآخر القاسي، أعترف بأن ذلك غالباً ما يقع عليَّ بالمغالبة الشديدة للنفس، كم تمنيت لو أنها كانت تحمل في اليد فأتخلص منها دون أن يعلم بي أحد من البشر، ولكنها معلقة في الرقبة وتكلفني الانحناء لخلعها»..

ماجد الشيباني - المملكة العربية السعودية - الرياض.

صدر له: طوبائي حالم (رواية)، دار الفكر العربي، ٢٠١١.

ISBN 978-614-432-500-1
9 786144 325001